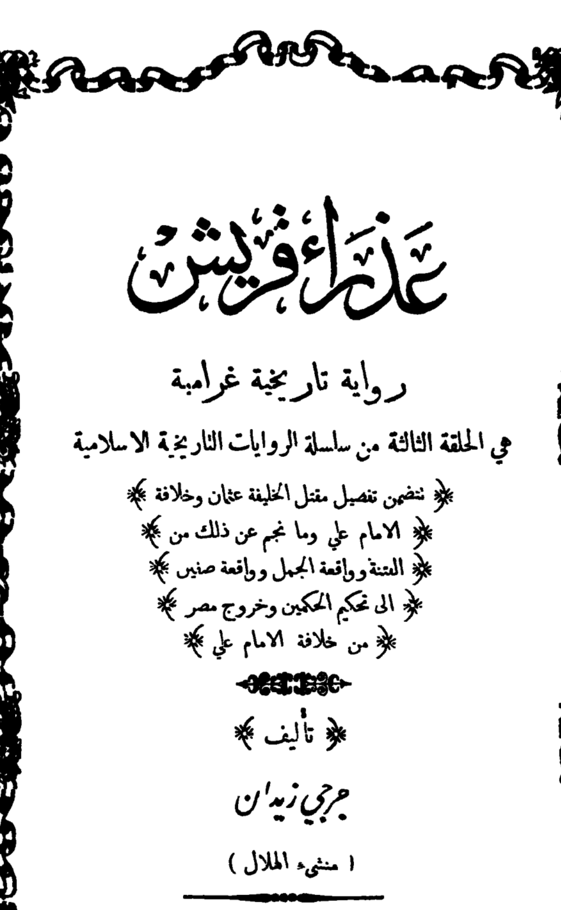


عذراء قريش

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الاسلامية

﴿ تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة ﴾
﴿ الامام علي وما نجم عن ذلك من ﴾
﴿ الفتنة وواقعة الجمل وواقعة صفين ﴾
﴿ الى تحكيم الحكمين وخروج مصر ﴾
﴿ من خلافة الامام علي ﴾

﴿ تأليف ﴾

جرجي زيدان

(منشىء الهلال)

نشرت ملحقة بالسنة السابعة من الهلال

(طبعت بمطبعة الهلال بشارع الفجالة بمصر سنة ١٨٩٩)

اسير المتمهدي

❊ رواية غرامية تاريخية · الطبعة الثانية ❊

❊ تاليف مؤلف هذا الكتاب ❊

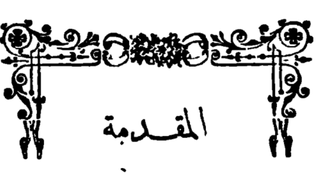
قد ادرجت فيها الحوادث المصرية وهي عرابي والمتمهدي السوداني وما تخلل ذلك من الاحوال والاعمال بحيث يخيل القارىء انه شاهد تلك الاماكن عيانًا وحضر كل الوقائع وقد دخلت في هذه الرواية ايضًا حادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق الشام ومن ابطالها عرابي وكيف نشأ والمهدي وكيف ظهر وهيكس باشا وكيف نكب وغوردون باشا وكيف قتل والخرطوم وكيف سقطت وتفصيل الحوادث العرابية من اولها الى آخرها · ثمن النسخة عشرة غروش مصرية واجرة البوسطة غرشان (تحت الطبع)

جهاد المحبين

❊ رواية ادبية غرامية ❊

❊ تأليف مؤلف هذا الكتاب ❊

تشتمل على حوادث غرامية ادبية حدثت وقائعها في العقد الماضي من هذا القرن في مصر والاسكندرية وفيها ما يدل عليه اسمها ما يقاسيه المحبون جهادًا في سبيل الحب · ثمن النسخة ٦ غروش مصرية او فرنك ونصف واجرة البوسطة غرش ونصف



المقـدمة

﴿ عذراء قريش ﴾

هي الحلقة الثالثة من سلسلة الروايات التاريخية الاسلامية التي ننشرها تباعاً في الهلال نبسط فيها تاريخ الاسلام على اسلوب الرواية تشويقاً للمطالعة وتمثيلاً للحوادث حتى تقرب من اذهان القراء · فالحلقة الاولى هي « فتاة غسان » نشرناها في جزئين مثلنا فيها حوادث التاريخ الاسلامي من ظهور الدعوة الى فتح الشام والعراق · والثانية « ارمانوسة المصرية » شرحنا فتح مصر بتفاصيله · واما الثالثة فهي « عذراء قريش » هذه وهي تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة الامام علي وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعة الجمل وواقعة صفين الى تحكيم الحكمين وخروج مصر من خلافة الامام · وهي اول فتنة ظهرت في الاسلام

وقد نشرنا « عذراء قريش » ملحقة بالسنة السابعة من الهلال ولكن ما احدثتهُ من حركة الاذهان وما آنسناهُ من استحسان القراء لها واعجابهم بها حبيا الينا طبعها ونشرها على حدة · ونستعين الله في مواصلة نشر هذه السلسلة التاريخية الاسلامية رواية اثر رواية الى آخر تاريخ الاسلام · واول رواية سننشرها بعد هذه تتضمن تفصيل مقتل الامام علي وخروج الخلافة من اهل البيت الى بني امية ستظهر تباعاً في السنة الثامنة من الهلال · والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الاوَّل

قبـاء

قباء قريةٌ على ميلين من المدينة (يثرب)[١] اشتهرت بعد الهجرة بنزول صاحب الشريعة الاسلامية فيها اثناء هجرتهِ الى المدينة فبنى فيها مسجدًا هو اول مسجد بني في الاسلام[٢] ولهُ كرامة خصوصية لانهُ اسس على التقوى واول من بنى فيهِ حجرًا صاحب الشريعة نفسهُ[٣] وكانت قباء في خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين قد اشتهر امرها وعرفت كرامة مسجدها على اثر انتشار الاسلام واتخاذ الخلفاء كرسي ملكهم في المدينة مع ما بذلوه من العناية في تحسين ذلك المسجد وخصوصًا الخليفة عثمان فانهُ وسعهُ وزاد فيهِ واوقف عليهِ الحجاب والخدمة · على ان ذلك لم يزد شيئًا كثيرًا في سكان قباء نفسها

وكان لذلك المسجد في اواخر خلافة عثمان خادم طاعن في السن اسمهُ عامر شهد بناء المسجد بنفسهِ ورأى صاحب الشريعة يوم نزل هناك وامر ببناء المسجد فاوقف حياتهُ لخدمتهِ فاقام في قباء هو وعيالهُ يقضي نهارهُ في حراسة الجامع ويقوم بتنظيفهِ وسدانتهِ فاذا فرغ من ذلك خرج مع اولاده لرعاية ابل بعض اغنياء المدينة في بعض الاودية او المستنقعات التي تكثر في ذلك الجوار

ففي مساء يوم من ايام سنة ٣٥ للهجرة خرج الشيخ لرعاية الابل فاوغل في بعض الاودية فاقترب الغروب وهو لا يعلم فاسرع بالرجوع فركب ناقتهُ وارخى لها الخطام واستخرج مسلة كان قد غرسها في شعر رأسهِ المتلبد ووخز بها الناقة بين جنبيها استحثاثًا لها في المسير فطارت بهِ واولاده يتبعونهُ ببقية النوق وقد ركب اصغرهم وهو عارٍ على ناقة عارية وركب آخر على أُخرى وامامهُ بعض الاخشاب او العيدان وقد جمعها من متساقطات الشجر ليقدحوا نارهم بها · والجمال بجملتها غفل من الخُطم اي انها سائبة بلا ارسان · وكان الشيخ اكثر الجميع عجلة يلتمس المسجد قبل ان تغيب الشمس فيفوت وقت الصلاة ورأى الشمس تسرع في الهبوط فخيل لهُ انها تسابقهُ فجعل

(١) معجم ياقوت (٢) السيرة الحلبية (٣) ابن هشام

يستحث ناقته جهد طاقته غير مبال بجمال تلك الساعة وهي اجمل ما تكون في الصحراء وقد استطالت الاظلال حتى اختلط بعضها ببعض فلم تعد تميز اظلال النخيل من اظلال البلسان او السنط وامتزجت اظلال الاشجار باظلال الآدميين او النوق وقد غفل شيخنا بعجلته ولهفته عن شذاء الريحان والقصعين وغيرها من نبات الصحراء ولم يستوقف سمعهُ شدو البلابل ولا نقيق الضفادع ٠ على انهُ لم يكد يشرف على قباء من اكمة حتى سمع رغاء الجمال وصهيل الخيل بجوار المسجد فاسرع فرأى هناك ركبًا ومعهم الجمال والاحمال ولم يستغرب ذلك وقد تعود ان يرى كثيرًا من امثاله كل عام لان القوافل بذهابها الى المدينة كانت تمر بقباء فتقف للراحة والاستقاء ٠ فخيل لهُ انها قافلة امسى المساء عليها فارادت المبيت هناك او الاستراحة فازداد رغبة في العجلة ليقوم بخدمة القادمين مخافة ان يسبقوهُ الى القصور ٠ وحوَّل وجههُ الى الوراء فنادى احد اولادهِ وقال لهُ اسرع ياولدي الى البيت فاحمل اليَّ جرة الماء لعل هؤلاء الركب يحتاجون الى شرب

الفصل الثاني

على فراش الموت

وما زال الشيخ مسرعًا وهو كلما اقترب من المسجد وتوقع ان يتبين الوجوه عارضة تكاثف الشفق حتى اقترب فاذا هم ركب ومعهم الافراس والجمال وبضعة رجال وفتاة وقد تجمعوا جميعًا بحنو ولهفة حول هودج عليه الاستار وفيه مريض شديد الدنف يحاولون اخراجه الى مقعد في خيمة نصبوها بالقرب منهُ فتفرس الشيخ في اولئك الناس فعلم انهم قادمون من الشام الى المدينة فعجب لمرورهم بقباء وهي ليست في طريقهم اليها ٠ ونظر الى كبيرهم فاذا هو كهل عليهِ لباس عرب الشام من القباء والرداء والعمامة وبجانبهِ شاب حسن البزة عليهِ عباءة من القصب وسيفهُ مرصع ووراءهُ خادم يحمل لهُ الرمح والنبال ٠ وعلى مقربة منهما فتاة غضة الشباب قد اشرق وجهها صحة ونشاطًا على رأسها كوفية مشدودة بعقال وقد ارسلت اطرافها الى ظهرها حتى تجلى نور وجهها

بما اكتسبهُ من التورد على أثر التعب وركوب الجواد اياماً في طريق الصحراء . فلما رآها الشيخ اجتذبت نظره واستلفتت انتباههُ لما آنسهُ فيها من الاهتمام بامر ذلك المريض وتسلطها على اذهان رفقائها لأنها كانت ترشدهم في كيفية حملهِ ومداراتهِ في نقلهِ ووضعهِ فترجل الشيخ عن ناقته وصاح يا هلا بوجوه العرب وتقدم لمساعدتهم وتفرس في المريض فاذا هو امرأة في حدود الاربعين قد بلغت حد التلف وتولاها الضعف حتى لا يخالها الناظر الاَّ ميتة . فعرض عامر نفسهُ للخدمة فاشارت اليه الفتاة ان لا يدنو من المريضة لأنهم انما يريدون حملها بانفسهم على اذرعهم فتنحى وامر اولاده ان يساعدوا الخدم في نصب الخيم وانزال الاحمال وسقاء الجمال والافراس وغير ذلك وسار هو الى المسجد للاذان والصلاة

فاشتغل الركب في نقل المريضة واكثرهم عناية في ذلك الفتاة واسمها **اسماء** فانها لم تغفل عن اعداد كل وسائل الراحة في نقلها حتى حملتها على ذراعيها . ولا عجب فان المريضة والدتها وقد شبت على حبها . واما الكهل فهو زوج المريضة واسمهُ **يزيد** وكان قليل العناية في امرها الاَّ بما توحيهِ اليهِ الفتاة . واما الشاب الحسن البزَّة فاسمهُ مروان وكان الاعجاب ظاهرا على وجههِ لما يعلمهُ من نفوذهِ لقرابتهِ من الخليفة عثمان بن عفان

الفصل الثالث

عذراء قريش

فلما نقلوا المريضة الى فراشها جلست أسماء الى جانب رأسها وأخذت تمسح لها العرق عن وجهها بمنديلها والأُمُّ غائبة عن الصواب واسماء شاخصة اليها والدموع ملء عينيها ولكنها كانت تتجلد وتصبّر نفسها فتحرق أسنانها لئلاَّ يغلب البكاء عليها فتسمع والدتها نحيبها فيزداد تألمها . فكانت تمسح دموعها بالمنديل خلسة ونظرها لا يتحوَّل عن وجه المريضة لحظة لا تلتفت يمنة ولا يسرة . وكان الليل قد سدل نقابهُ فجاءهم عامر بمصباح أدخلوهُ الخيمة والفتاة لا يهمها الاَّ النظر الى والدتها لعلها تفتح عينيها أو تحرّك شفتيها

أو تلتمس أمرًا فتقدمهُ اليها لا تعبأ بوالدها ولا بذلك الشاب الذي قطع البراري والقفار في خدمتها لعلهُ يكتسب قلبها وهي تكرهُ أن تراهُ · وكان قد طلب الاقتران بها مذ كانوا في الشام فرضي الوالد ولم ترضَ الوالدة ولا الفتاة · والوالد انما رضي بذلك رغبة في الدنيا وطمعًا بمنصب ينالهُ من الخليفة عثمان بواسطة مروان اذا صار صهرًا لهُ · ولم يكن فيهِ حنوّ الوالد لأنهُ يعلم كما تعلم امرأتهُ نفسها ان تلك الفتاة ليست ابنتهُ ولكنهُ لم يكن يعرف والدها لأنهُ تزوَّج أمها سبيةً من سبايا مصر يوم فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة وأسماء في السنة الثانية من عمرها · فلم يكن يهمّهُ معرفة والدها وبعد فتح الاسكندرية عاد الى الشام فأقام فيها مع أقاربهِ من بني أمية فلم تلد لهُ أولادًا

وكان يزيد كهلاً أشمط الشعر قصير القامة خفيف العضل متجعد الوجه غائر العينين طماعًا يحبُّ المال فوق كل شيء سيء الخلق لا ذمة لهُ ولا ذمام · وكان أهل الشام يعتقدون ان اسماء ابنتهُ ولكن الناقد يرى لأوَّل وهلة انها تختلف عنهُ خَلقًا وخُلقًا فقد كانت من الهيبة والجمال على جانب عظيم جمعت لطف النساء وحزم الرجال وشجاعتهم لا يستطيع الناظر اليها الاَّ ان يحترمها واذا خاطبها آنس فيها رقة وانفة ودعةً وعزةً · وكانت ربعة القوام ملآنة الجسم حنطية اللون سوداء العينين حادتهما طويلة الاهداب مقفلة الحاجبين صغيرة الفم سهلة الجبين عظيمة الهيبة لا يستطيع الناظر اليها أن يتفرس في ملامح وجهها لعظم هيبتها فاشتهرت بين أهل الشام بكل خلق حسن فأحبها مروان وجعل يتقرب منها وهو يحسب تقربهُ منةً وكرمًا وكان يظنها لا تلبث ان تعلم بميلهِ حتى تطير فرحًا لأن حالها من الدنيا ينحط عن حالهِ كثيرًا فهي من عامة الناس وهو ابن عم الخليفة عثمان · وكان هذا الخليفة كما لا يخفى يؤْثر ذوي قرابتهِ من بني أمية ويقدمهم في مناصب الدولة ويفتح لهم أبواب الرزق الأمر الذي آل الى قيام المسلمين عليهِ حتى تحدثوا في عزلهِ وكانت الفتنة المشهورة · وما زال مروان يتردد الى منزل يزيد وكلاهما من بني أمية فيحتفل يزيد بهِ ويود لو أنهُ يتزوَّج ابنتهُ فيحظى لدى الخليفة بمنصب رفيع حتى حدثهُ مروان في ذلك فاجابهُ وأكد لهُ انهُ نائل الفتاة لا محالة اعتمادًا على عادة تلك الايام في أمر الزواج فقد كان الرأْيُ راجعًا الى الوالد في كل شيء

ولكنهُ ما لبث ان خاطب امرأتهُ في الامر حتى آنس منها اعراضًا وإباء ولكنها لم

تكن تعارضهُ دفعة واحدة بل كانت تدافعهُ وتماطلهُ · وادركت الفتاة ما بينهما من أجلها فاظهرت نفورها من مروان لأنها لم تكن تعتدُّ بزخارف الدنيا ولكنها كانت تهوى الشهامة وكرم الأخلاق فلم يقع مروان من نفسها موقعاً مقبولاً فتمكنت الوالدة من الرفض ويزيد يزداد الحاحا · فخافت ان يستعمل العنف في تنفيذ مأربهِ فوقعت في حيرة ولشدة ما قاستهُ من المقاومة أُصيبت بالحمَّى ووهنت قواها فخافت الموت فطلبت ان يحملوها الى المدينة فتجيبهم الى طلبهم هناك فتتخلص لتشددها أما مروان فسرَّ لذلك السفر لأنهُ اذا جاء المدينة كان بالقرب من ابن عمهِ الخليفة عثمان واذا عادت الوالدة الى التردد هددها بغضبهِ · فجاآ في قافلة ومعهم الخدم من رجال مروان فكان ذلك السفر سبباً في اشتداد المرض واسماء لا تعلم السر في ذلك الانتقال · فخاطبت ذات يوم والدتها وعاتبتها على ما حملت نفسها من المشقة فأسرّت اليها انها انما تنوي الالتجاء الى علي بن أبي طالب لعلهُ ينقذها من أيدي الظالمين لما اشتهر بهِ من غوث المظلومين وما لهُ من المكانة عند الخليفة وغيرهِ من المسلمين · وما زال المرض يشتد بها يوماً عن يوم وزوجها ومروان يودان ان تقضي نحبها قبل الوصول الى المدينة لأنهما تنسما شيئاً من حقيقة غرضها فكانا يطيلان مدة المسير ويقودان القافلة في طرق طويلة وفي جملة ذلك مرورهم بقباء وهي في الجنوب الشرقي من المدينة (١)

فعند وصولهم اليها اشتد المرض عليها حتى غابت عن الصواب وكان النهار قد انقضى فانزلوها هناك كما تقدم

الفصل الرَّابع

سرٌّ ذاهبٌ الى القبر

وكانت تلك المريضة كهلة في نحو الاربعين من عمرها بيضاء اللون رومانية الملامح كبيرة العينين اسمها مريم وقد زادها الضعف جحوظاً وما انفكت منذ نقلوها الى الفراش وهي في سبات عميق واسماء الى جانبها وبيدها المنديل تمسح بهِ جبينها والدتها وتستلقي بهِ دموعها لا تأذن لاحد ان يأتي حركة لئلا يزعج النائمة · ولكنها لم تكن

(١) قاموس الاسلام

تستطيع التفرس في ذلك الوجه الممتقع وتينك العينين الجاحظتين والشفتين المكمدتين والعنق المستدق وقد غشاهُ من الجانبين شعر اسود بجدائله تعض التيب فلما بللهُ عرق الحمى تجمع خصلاً متلاصقة . ومع كان يتوهبا نوع خاص ذلك الصدر الذي يكاد يكون غائراً لفرط الضعف ودلائل الم تنتاب اسم واستطال حتى رر فكاهُ واستدق الانف وظهر بارزاً . فلم تكن اسماء تتأمل ذلك حتى يختلج قلبها وتخاف الموت على والدتها في تلك البرية وكم تمد الى يدها تحسها لتحقق حرارتها فترى العرق البارد ينسكب عن امامها فتبتعد مراتحها وما زادها بلاء وشقاء ان والدها ما برح منذ نزولهم هناك مختلياً بمروان في خيمة لا يدخل خيمة امرأته الا قليلاً واذا دخل تظاهر بالاهتمام وسأل عنها والمكر والرياء ظاهران على وجهه . واما مروان فكان اذا دخل الخيمة دخل متحترًا لا يدنو من المريضة واذا يتطلع الى اسماء و يبتسم كأنهُ يداعبها وهي لا تستطيع الابتسام ولا تدنو النظر اليه

فلما كان العشاء حركت الام رأسها وفتحت عينيها وحولت حدقتيها نحو اسماء وقد بهتتا من شدة الضعف فهبت الفتاة وانة وكلها آذان تتلقى أوامرها وسألتها اذا كانت تحتاج الى شيء فاشارت تطلب الماء فاسرعت الى قدح فيه ماء ادنته من شفتيها فشربت منهُ قليلاً فانبسط وجه اسماء وعاد املها اليها وانتصبت تنتظر ما تأمرها به فلما لم تقل شيئاً انحنت على جبينها تقبلهُ وامسكت يدها بلطف وقالت لها هل تريدين شيئاً يا أماه

فاجابتها بصوت ضعيف وعيناها شاخصتان اليها قائلة « لا لا اريد شيئاً غير سلامتك ولكنني اراني لا استطيع الوصول الى المدينة ولا اظنني اعيش الى الغد فقد شعرت بدنو الاجل » قالت ذلك والدموع تتساقط من عينيها فتختلط بعرقها فلما سمعت اسماء كلامها ورات دموعها اقشعر جسمها وخفق قلبها ولكنها تجالدت وتظاهرت بالابتسام قائلة لا سمح الله بسوء يصيبك. يا أماه فانك ستصبحين في خير فنركب معاً الى المدينة باذن الله

فتبسمت تبسماً ممازجة بكاء وقالت « لا يا ولدي لا ارجو بقاء الى الغد وما انا آسفة على هذه الدنيا ولكن في نفسي امرًا اود قضاءه قبل الوفاة »

قالت اسماء وما هو ذلك الامر يا أماه

قالت هو ابن التقي علي بن ابي طالب فاخاطبه دقيقتين قبل الموت

قالت عدا سنلقيه في المدينة فتخاطبينه

قالت « قلت لك اني لا ارجو ان ارى صباح الغد ياوالدي »

فهمت اسما والدتها تشلها وهي تحاول حبس الدمع فضمتها مريم الى صدرها بقوة لم تكن اسماء تعهدها فيها وعانقتها فتساقطت دموع اسماء بالرغم عنها ثم احست بدموع امها تتساقط عن عنقها سخينة تمازج ذلك العرق البارد . فاوغلت كلتاهما في البكاء . ولكن اسماء خافت على والدتها من التعب فنهضت وتظاهرت بالتجلد وقالت لا بأس عليك يا اماه ولكن تمهلي علينا لحاجتي بشأني

قالت نعم وبشأن آخر هو سر دفنته في ضميري اعواماً طوالاً وقد ان لي ان أبوح به

فقالت ما العزاء

قالت لا تدعوه ابي ودلوني له ان امرأة على فراش الموت ملتمس لقياك لتبثك سرًّا وتسكونات امرا

فنهضت اسماء الى الخارج فرأت والدها ومروان واقفين بازاء نخلة في الظلام كأنهما يتساران ولما رأياها خارجة اسرعا نحوها معاً وقالا كيف والدتك لعلها في خير

فاجابت انها قد افاقت وطلبت ان ترى علي بن ابي طالب

قال والدها وكيف يمكن ان نراه الآن وهو في المدينة

قالت لقد طلبت استقدامه اليها بالحاح

قال مروان استقدمه !! ومن يستطيع ذلك

قالت اظنه لا يأبى المجيء اذا قيل له ان امرأة في حالة التلف تلتمس مقابلتك وهو في ما اشتهر به من كرم الاخلاق

قال لا انكر كرم اخلاقه ولكنه الآن في شاغل كبير من حال المسلمين واختلافهم على الخليفة

قالت واي اختلاف

قال سمعت قبل خروجنا من الشام ان اهل الاعمال ناقمون على عثمان لأنه يؤثر ذوي قرابته فيولي العمّال منهم ويعزل الذين ولّاهم اسلافه . وبلغني ان اهل

مصر خرجوا يلتمسون المدينة ليشكوا امرهم الى علي لعلهُ يتوسط في ما بينهم وبين عثمان . وكذلك فعل أهل البصرة واهل الكوفة واظنهم وصلوا المدينة الآن فاذا وصلوها كان عليٌّ في شاغل لا يأْذن لهُ بالخروج

قالت وقد ملّت الجدال ان والدتي تطلب علياً بالحاح فما علينا الاَّ ان نبعث في طلبهِ

قال فلنبعث واحداً من رجالي واذهب أنا في أثرهِ استعجلهُ في انفاذ المهمة . قال ذلك وأَمر واحداً منهم ركب واسرع نحو المدينة ثم ركب مروان في أثرهِ وعادت اسماء الى والدتها فاذا هي قد عادت الى الغيبوبة واستغرقت في السبات

فمكثت ساعة في انتظار الرسول فلما استبطأَتهُ برحت الخيمة ونظرت نحو المدينة والظلام حالك فلم ترَ احداً فصعدت الى مرتفع اشرفت منهُ على ابنية المدينة عن بعد فلم ترَ منها الاَّ المسجد النبوي لما فيهِ من الانوار التي تشعشع في بعض جوانبهِ ولولم تصعد الى ذلك المرتفع لم تشرف على المدينة لانها قائمة في منبسط من الارض تحدق بها جبالٌ تنحدر منها السيول على اثر الامطار فيصبح السهل المجاور لها مستنقعات وآباراً تجتمع فيها المياه مدار السنة وتنمو حولها اشجار الصفصاف والبلسان والنخيل وكثير من الاعشاب . فلما اطلت اسماء على المدينة ظهر لها ما بينها وبين قباء من مجتمعات المياه وقد انعكس على سطحها اشعة الكواكب ضئيلة لبعد المسافة غير ان ذلك لم يكن ليشغلها عن هواجسها في مرض والدتها فعادت مسرعة الى الخيمة فرأت يزيداً قد توسد الارض خارج الخيمة ونام فأَسفت لما رأت من قلة اكتراثهِ وضعف احساسهِ . لكنها لم تستغرب ذلك و والدتها صرحت امامها غير مرةٍ ان هذا الرجل ليس والدها الحقيقي وكانت اسماء تلح في استطلاع اسم والدها وأُمها تعدها بالجواب من وقت الى آخر . فلما رأت ما بلغت اليهِ والدتها من الضعف في تلك الليلة خافت اذا اصابها سوءٌ ان يبقى والدها الحقيقي مجهولاً عندها فدنت من فراشها وهي لا تزال غائبة فامسكت يدها الباردة ولمست جبينها الرطب بما يتساقط عنهُ من العرق فاضطربت جوارحها وخافت ان يصيب والدتها سوءٌ وهم في ذلك القفر واستنكفت ان تخاطب والدها في الامر احتقاراً لهُ فهمّت بالخروج لاستقدام خادم الجامع لعلها تشاهد عندهُ امرأَة تستأْنس بها فرأَت والدتها تحرك رأْسها وترفع يدها كانها تشير اليها ان تدنو منها فدنت وهمت بها تقبلها وقالت ماذا تريدين يا أُماه

قالت ألم يأتِ عليٌّ بعد

قالت لم يعد رسولنا

قالت أخاف أن لا يعود وقد نفد صبري وخارت قواي . استقدموا علياً قبل ان تفوت الفرصة

فقالت لا يلبث عليٌّ أن يأتي . ألا تبوحين لي بما تريدين ان تقوليه له . ألم يأن لي أن أعرف من هو والدي

قالت ستعرفينه متى جاء عليٌّ . ثم تنهدت وقالت آه متى يأتي

الفصل الخامس

المدينة المنوّرة

فلما سمعت أسماء ذلك ثارت الحمية في رأسها وملّت الانتظار مع ما تعلمه من غرض مروان فخافت ان يكون ذهابه في أثر الخادم سبباً في ذلك التأخير والوقت ثمين فعوّلت على المسير بنفسها وهي لم تدخل المدينة قبل ذلك الحين ولكنها استسهلت كل صعب في سبيل مرضاة والدتها مع شدة رغبتها في استطلاع ذلك السر فشدت الكوفية حول رأسها وتلثمت بها حتى لم يبقَ ظاهرًا الا عيناها وتزملت بالعباءة فوق ثيابها فأخفت رداءها النسائي وركبت جوادها وكان لا يزال مسرجًا وأيقظت والدها وأوصته بوالدتها خيرًا وهمّت بالخروج فلم يطاوعها قلبها خوفًا على والدتها فوقفت متحيرة ثم تذكرت خادم الجامع فسارت اليه وكان قد فرغ من الصلاة فسألته عن امرأته فقال هي في خدمتكم وناداها فجاءت فاذا هي عجوز ولكنها نشيطة سمحة الوجه فاوصتها ان تساعد والدها في السهر على والدتها في أثناء غيابها وخرجت ولم تخبر والدتها لئلاّ تمنعها من الذهاب واتخذت انوار المسجد النبوي وجهتها وهمزت الجواد وكان من اصائل الخيل فجرى وهو تارة يغوص في مستنقع وطورًا يصعد على اكمة وهي لا ترى شيئًا لفرط قلقها واضطرابها الاّ اشباح النخيل والبستان وربما حسبتها لسرعة جري الجواد انها سائرة نحوها . وكانت كلما سمعت قرقعة او صليلاً تحسب رسولها عائدًا ثم لا

ترى احداً وهي بالحقيقة لم تسمع الاَّ نقيق الضفادع وصرير الصراصير ووقع حوافر الفرس حتى دنت من سور المدينة واهتدت الى بابها فدخلت منهُ الى اسواق ضيقة منعرجة لا يكاد الفرس يستطيع المرور فيها (١) فرأتها على ضيقها مزدحمة بالناس واكثرهم من الغرباء فعلمت ان ما قالهُ مروان صحيح فسألت رجلاً يبيع التمر عن منزل علي فدلها عليهِ وهو يحسبها رجلا فهمزت الجواد واسرعت فلم تبلغ باب المنزل حتى كبا جوادها فسقطت وكادت تصيب حتفها فاستلقت الارض بيديها واصاب رأسها نخلة قائمة امام الباب فتهشم قليلاً ولكنها لم تبالِ بل نهضت والتمست باب المنزل ولم تكد تدركهُ حتى سمعت صريرهُ فوقفت تنتظر فتحهُ فخرج اليها منهُ شاب طويل القامة لم تتبين وجههُ لشدة الظلام وكان قد سمع كبو الجواد فاسرع نحوهُ فرأى فارسهُ قد وقف وهو لا يزال ملثماً فاستقبلهُ وسألهُ عن خبرهِ وهو يظنهُ رجلاً

فقالت أسماء العلُّ مولانا علياً في المنزل

قال كلاَّ ليس هو هنا الآن ماذا تبغي منهُ واري من لهفتكَ وعجلتك انك آتٍ في أمر ذي بال فما خبرك

قالت نعم لقد جئت بامر هام ولكنني لا اقولهُ الاَّ لعلي بنفسهِ · اين هو

قال انهُ خرج في الغروب الى المسجد وقد مضت صلاة الغروب وصلاة العشاء ولم يعد فهل تذهب معي للتفتيش عنهُ هناك

قالت نعم هلمَّ بنا والجامع على مقربة منهما فمشيا وكل منهما يتوقع الوصول الى باب المسجد ليرى وجه رفيقهِ في الضوء لعلهُ يعرفهُ · وكان الشاب اكثر رغبة في ذلك لانهُ استغرب صوت اسماء ولم يتبين شيئاً من ثيابها لالتفافها بالعباءة والكوفية اما هي فمشت تقود جوادها وراءها حتى وصلا الجامع فاذا هو مزدحم بالناس بين جاثٍ وواقف ولم يبق موقف لطفل وكلهم صامتون وقد تكاثفت انفاسهم وانبعثت من باب الجامع حارَّةً ممتزجة بروائح أجسامهم واثوابهم حتى لقد يشعر المار بالازدحام وان لم يرَ الناس فلما وصل الرفيقان الى الباب واستنارا بمصابيح الجامع نظر كل منهما الى زميلهِ لعلهُ يعرفهُ فرأت اسماء ان رفيقها رجل حسن اللباس يظهر من مجمل حالهِ انهُ من كبار الصحابة او بعض اولادهم · اما هو فلم يرَ غير اللثام فاستغرب تلثمها والحشمة منعتهُ عن التحري

(١) صفوة الاعتبار

الفصل السادس

عثمان بن عفان

وارادت اسماء الدخول الى الجامع فامتنع عليها المرور لكثرة الازدحام وهيبة الاجتماع فوقفت عند الباب وهي على مثل الجمر والرفيق الى جانبها وقد تذمر من ذلك الانتظار فارتاحت لما آنسته من شعوره معها وعلمت ان الدخول الى عليّ يستحيل اذ ذاك فدعاها الرجل للاستراحة على البطحاء. وهي مقاعد من الحجر أو الخشب أنشأها عمر بن الخطاب خارج الجامع يجلس عليها الناس للاستراحة او المحادثة أو المناشدة فلم تستطع اسماء جلوسًا لعظم قلقها ولكنها التمست مكانًا تربط فرسها فيهِ اذا اضطرت لدخول الجامع فأمر رفيقها غلامًا ممن يلتقطون النوى في اسواق المدينة وهم كثيرون[1] ان يمسك الفرس فامسكهُ وسار بهِ الى مواقف الخيول بين الاشجار هناك

أما اسماء فنظرت الى صدر المسجد فرأت على منبرٍ رجلاً ربعة ليس بالطويل ولا القصير حسن الوجه لولا ما عليهِ من اثر الجدري كبير اللحية عظيمها وقد صفّرها بالحناء. اسمر اللون اصلع الرأس عظيم الكراديس عظيم ما بين المنكبين وكان واقفًا على المنبر[2] وقد توكأ على سيف واجال نظرهُ في الحضور وهمّ بالكلام . فنظرت اسماء الى رفيقها مستفهمة عن الرجل

فقال انهُ الخليفة عثمان بن عفان يخطب في الناس

فقالت العلّ هذا الجمع كلهُ من اهل المدينة

قال كلاًّ بل هم وفود اهل مصر والبصرة والكوفة وقد جاؤُا يشكون عثمان هذا ويتذمرون من تصرفهِ معهم فشكوهُ الى علي فأنبهُ عليٌّ في هذا الصباح فاستدعاهم الى هذا المسجد ليخطب فيهم واظنهُ سيلتمس لنفسهِ عذرًا فلنسمع ما يقولهُ

فنظرت اسماء الى الخليفة وعيناها لاتفتان عنهُ لتضعضع حواسها فرأت بجانبهِ رجلاً عرفت انهُ صاحبها مروان فقالت في نفسها بئس الشاب هو لقد جاء الى ابن عمهِ ونسي المهمة التي جعل نفسهُ متبرعًا في اتمامها. وجالت بنظرها في الجمع متفرسة لعلها

---

(١) الاغاني (٢) ابن الاثير

ترى عليًّا على انها لم تكن تعرفهُ فقالت لرفيقها ألا ترى عليًّا بين الجموع

قال اظنني رأيتهُ . نعم اني اراهُ جالسًا جثوًّا بقرب المنبر وقد أطرق يفكر .
فنظرت اليهِ فاذا هو فوق الربعة ضخم العضل جميل الخلقة وقد وخطهُ الشيب فلم
يصبغ شعرهُ وآنست فيهِ على شدة هواجسهِ ابتسامًا ظاهرًا في وجههِ فشعرت عند رؤيتهِ
بارتياح (١) واستأنست بطلعتهِ وحدثتها نفسها ان تخترق الجماهير اليهِ فاوقفها الحياء
وعلمت انها اذا فعلت ذلك شوشت الاجتماع فضلاً عما في هذا العمل من الوقاحة .
فلبثت تنتظر فروغ الخطيب من خطابهِ وهي كأنها على الجمر

أما عثمان فانهُ انتصب كما تقدم ويمناهُ على السيف وهي ترتعش لعظم تأثرهِ ثم
مسح لحيتهُ بيسراهُ ومشط شعرها باصابعهِ والارتعاش ظاهر عليهِ لعظم الاضطراب .
فحمد الله واثنى عليهِ وصلى على الرسول ثم قال وصوتهُ يتقطع :

« يا اهل الامصار قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبونني بامور لم آكن انا الذي
ارتكبتها وحدي فان صاحبيَّ اللذين توليا اموركم قبلي (يريد ابا بكر وعمر) قد
ظلما انفسهما . وان رسول الله (صلعم) كان يعطي قرابتهُ . واما في رهط اهل عيلة
وقلة معاش فبسطتُ يدي في شيء من ذلك لما اقوم بهِ فيهِ فان رأيتم ذلك خطأ
فردُّوهُ فامري لامركم تبع . واما ما تريدونهُ من الفتنة او الخلع فانكم قد اسرعتم في ما
عزمتم و والله لئن فارقتكم لا لتتمنون ان عمري كان عليكم مكان كل يوم سنة لما سترون
من الدماء المسفوكة والاحن والاثرة الظاهرة والاحكام المغيرة » (٢)

وكان عليٌّ في اثناء الخطاب مطرقًا مصغيًا لا يُبدي حراكًا حتى اتى عثمان على
الفقرة الاخيرة فحرَّك عليٌّ حاجبيهِ وحنى رأسهُ تصويبًا لقولهِ « لما سترون من الدماء
المسفوكة الخ ... »

واما اسماء فلا نسل عن قلقها وملها وكان رفيقها واقفًا الى جانبها وقد شغل عنها
بما ثار من عواطفهِ عند سماعهِ كلام عثمان ومال بكليتهِ الى افهام رفيقهِ الملثم جلية الخبر
تشفيًا من عثمان . ولكنهُ اراد قبل ذلك ان يعرف من هو : فتقدم اليها ان تحسر
اللثام فاجابت انها ستحسرهُ بعدئذٍ . فتنسم من لهجتها صوتًا نسائيًا ولكنهُ استكبر ان يظهر
في النساء مثل هذه الهمة فصبر نفسهُ ريثما ينقضي الخطاب وقال لها « اراك يا سيدي

(١) اسد الغابة (٢) ابن الاثير

خالي الذهن من مغزى كلام الخليفة ولكن نتفهمهُ اوضحهُ لك باختصار . فاعلم ان خليفتنا هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة وحالما تولاها عزل الولاة الذين كانوا قبلهُ ممن ولاَّهم الامام عمر (رضه) وولى مكانهم رجالاً من بني امية اي من اقاربهِ ووسع ابواب الرزق لاهلهِ ودينها على سواهم فثار المسلمون في الاعمال (الولايات) وهم اهل مصر والكوفة والبصرة اما اهل الشام فانهم على دعوة عثمان لان عاملهم هو معاوية بن ابي سفيان من اقرباء الخليفة واما اهل الامصار الثلاثة الباقية فنقموا على هذا الرجل وجاءوا في رجالهم يطالبونهُ بما اقترفهُ ويطلبون خلعهُ وتولية غيرهِ مكانهُ . ولا يليق بالخلافة من هؤلاء جميعهم الاَّ علي بن ابي طالب فانهُ ابن عم النبي (صلعم) ووصيهُ . ولكن بين الصحابة الذين يطمعون بالخلافة الآن اثنين آخرين هما طلحة والزبير . فالخلافة اذا خُلع عثمان تنازعها ثلاثة علي وطلحة والزبير فوفد مصر يريدونها لعلي ووفد الكوفة يريدونها للزبير ووفد اهل البصرة يريدونها لطلحة ولكنهم متفقون جميعاً على خلع عثمان هذا . واما عليٌّ فلا رغبة لهُ في الخلافة ولكنهُ يخاف الفتنة بين المسلمين بسبب ذلك الخصام »

وكانت اسماء تسمع كلام رفيقها وهي لا تفهم منهُ شيئاً لعظم اضطرابها ولكنها لم تكن ترى بدًّا من الصبر لان عثمان لا يزال يتكلم وما اتمَّ عثمان كلامهُ حتى ضجَّ الناس فعلمتْ انهم خارجون فحمدت الله على فرجهِ فتنحت ريثما يخرج الجمع وقد شاعت عيناها وهي تتفرَّس في الجماهير لعلها ترى عليًّا خارجًا معهم . فخرج الكلُّ ولم تر عليًّا بينهم فتحولت نحو الجامع وكان رفيقها قد سبقها اليهِ فوقفت تنتظرهُ فعاد وحدهُ فلما استقبلها سألها هل رأت عليًّا خارجًا فقالت انها لم ترهُ فجعل يبحث بين الناس وسألهم عنهُ فلم يخبرهُ بخبرهِ احد

الفصل السابع

﴿ الحجرة النبوية ﴾

فعاد الى الجامع وقد خلا من المصلين واخذ الخدَمة في اطفاء المصابيح فخافت اسماءُ ان يمنعوها من الدخول ولكنهم لما رأوا رفيقها وسَّعوا لها فعلمت انهُ من كبار القوم

فدخلا صحن الجامع ومنهُ الى المسجد . فرأت المكان خاليًا فوقف الرجل ووقفت اسماء وجعلا يفكران وبعد برهة قال الرجل « أظنهُ دخل حجرة امرأتهِ فاطمة بنت النبي (صلعم) فانها مدفونة في حجرة بازاء هذا المسجد وكثيرًا ما كنّا نراهُ يدخلها لزيارة ذلك الاثر الشريف فلا بد من الانتظار ريثما يخرج »

فقالت لا صبر لي يا مولاي على الانتظار دعني أدخل اليهِ وأُخاطبهُ فان الامر الذي جئت من أجلهِ يستدعي العجلة وهبْ انني اسأْت الادب في استعجالهِ فمتى عرف السبب عذرني . دعني أدخل الحجرة

فاجابها بصوت خافت « تمهّل يا صاح لنتأكد دخولهُ اليها » ومشيا الهوينا وهما حافيان لا يسمع لمشيتهما وقعٌ حتى اتصلا من المسجد الى الحجرة من باب صغير . والحجرة بناءٌ مربع واطئ السقف في وسطهِ ضريح السيدة فاطمة . وكان شديد الظلام الاّ مصباحًا ضعيفًا كان منيرًا فوق الضريح . فدخلا الحجرة يتلمسان والرجل ممسك بيد اسماء وهما داخلان واعينهما محملقة يتفرسان وقد أصغيا والسكوت سائد على ذلك المكان مع ما يعلوهُ من الهيبة وقد زادهُ الظلام رهبةً فوقفا لحظة لعلهما يسمعان خطوة او نطقًا او يريان شبحًا فلم يسمعا شيئًا . فهالهما الموقف ولم يجرأ احد منهما على الكلام ولكنهما تفاهما بالاشارات على الرجوع وفيما هما يتحولان سمعا صوتًا عميقًا كأنهُ خارج من القبر فاقشعرّ بدناهما ووقف شعر رأسيهما والرجل لا يزال قابضًا على انامل اسماء . فلما سمعا الصوت شعر بارتعاش تلك الانامل شعورًا امتدّ الى كل جوارحهِ فأومأ اليها ان تنصت فانصتا فاذا بالصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة وبينهما حائط واصغيا فاذا هو صوت علي بن ابي طالب يناجي الرسول بصوتٍ يتخللهُ تحرُّق وزفير . فوقفا وقلباهما يخفقان وهما يمسكان انفاسهما كأنهما يخافان ان يختلط زفيرها بما يسمعان . واليك ما سمعاه :

« قم يا رسول الله تعهد أُمتك وانظر الى ما آلت اليهِ حالها من بعدك لقد بعثك الله نذيرًا للعالمين وأَمينًا على التنزيل وليس أحدٌ من العرب يقرأْ كتابًا ولا يدّعي نبوة وقد كانوا على شرّ دين في شرّ دار يشربون الكدر ويأْكلون الجشب ويعبدون الاصنام ويسفكون الدماء ويقطعون الارحام . فسقتَ الناس حتى بوّأْتهم محلتهم وبلغتهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنت صفاتهم . وجعل الله الاسلام أمنًا لمن

علقة وسلمًا لمن دخلة وبرهانًا لمن تكلم بهِ وشاهدًا لمن خاصم بهِ ونورًا لمن استضاء بهِ وفهاً لمن عقل ولبًا لمن تدبر وعبرةً لمن اتعظ ونجاة لمن صدق وثقةً لمن توكل . فقام بنصرتهِ قوم دُعوا الى الاسلام فلبوهُ وقرأوا القرآن فاحكموهُ . قوم لا يبشّرون بالاحياء ولا يعزّون بالموتى . مرهُ العيون من البكاء خمص البطون من الصيام ذُبل الشفاه من الدعاء صفر الالوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين . وقد كنتَ يا رسول الله تأ كل على الارض وتجلس جلسة العبيد وتخصف نعلك بيدك وترقع ثوبك بيدك وتركب الحمار العاري ولقد يكون الستر على بابك عليهِ التصاوير فتقول يا فلانة من ازواجك غيبيهِ عني فاني اذا نظرت اليهِ ذكرت الدنيا وزخارفها. وكنتَ يا رسول الله اذا احمرَّ الباس واحجم الناس تُقدّم اهلك فتقي بهم اصحابك حتى قتل عبيدة بن الحارث يوم بدر وقتل حمزة يوم احد وقتل جعفر يوم موْتة [1] . هذهِ هي سنتك وتلك هي قدوتك . فلما فارقتنا خلفك شيخٌ (ابو بكر) حارب المرتدين وأيد الدين القويم وخلفهُ رجلٌ فتح الامصار ودوّن الدواوين وشاد للعدل منارًا فاعتزَّ بهِ الاسلام وامتدت رايتهُ على العراق وفارس ومصر والشام وفر من وجههِ كسرى وقيصر . والناس يومئذٍ مجتمعون حول الدعوة آخذون بناصرها بقلب واحد ورأي واحد حتى تولاهم عثمان وهو شيخ صادق الاسلام ولكنهُ استأ ثر بالسلطة وآثر اهلهُ على سائر المسلمين فقاموا عليهِ قومة رجل واحد [2] وتجمعوا على نبذ طاعتهِ وأقرّوا على خلعهِ لا ترهبهم خلافتهُ ولا يخشون سطوتهُ . كأنَّ الناس انما أذعنوا لأهل السابقة من الصحابة لما كانوا فيهِ من الذهول والدهشة لأمر النبوة وتردّد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال واستفحل الملك أنفتْ نفوس المسلمين من غير قريش وهان عليهم نبذ طاعة الصحابة [3] حتى بلغ من جرأتهم التمرد على الخليفة فعظمت الفتنة وخشيتُ ما خوّفتنيهِ يوم سألتك عن الفتنة فقلت لي « يا عليّ ان القوم سيفتنون بعدي باموالهم ويمنون بدينهم على ربهم ويتمنون رحمتهُ ويأمنون لسطوتهِ ويستحلون حرامهُ بالشبهات الكاذبة والاهواء الساهية » . آه يا رسول الله ولقد طالما نصحتُ لهذا الخليفة ان لا يكون امام هذه الامة المقتول فانهُ كان يقال « يُقتل في هذه الأمة امامٌ يفتح عليها القتل والقتال الى يوم

(١) نهج البلاغة (٢) ابن الاثير وغيره (٣) ابن خلدون

القيامة ويلبس امورها عليها وتثبت الفتن فيها » ولكنه انصاع الى شاب من اهل قرابتو (مروان بن الحكم) يسوقه حيث شاء بعد جلال السنين وتقضي العمر »

فلما بلغ علي الى هذا القول تنهد تنهداً سمعا زفيره ثم بكى بكاء تقطع له قلباهما وهما لا يكادان يصدقان انهما يسمعان علياً يبكي فبهتا وهما يحسبانه يهم بالنهوض ثم سمعاهُ يقول « هذه هي حال امتك يا رسول الله . فاني اشكو اليك قوماً افترقوا بعد الفتح وتشتتوا عن اصلهم فكلٌّ منهم آخذ بغصن من مال مال معهُ حتى اصبحت الاحوال مضطربة والايدي مختلفة والكثرة متفرقة . يا ابتاه تلك صنيتك (فاطمة) النازلة بجوارك بتضافر امتك على هضمها . واني اخاف ان أُلحقَ بكما والحال على ما وصفت فاستحيي ان احمل اليك خبر هذه الفتنة التي اخافها في تفرق كلمة الاسلام . فادعُ لنا ربك أن يجمع كلمتنا ويلمّ شعثنا ويأخذ بناصرنا فنعلم مكان الخلافة منّا والسلام عليك حتى نلتقي »

الفصل الثامن

﴿ كتاب عثمان ﴾

ثم سمعاهُ يقول الفاتحة فعلما انه يتأهب للنهوض فاسرعا في التقهقر حتى خرجا من الحجرة الى المسجد وخرجا منه الى البطحاء . وقد خف الازدحام لتفرق الناس الى منازلهم فوقفا ينتظران علياً فقال الرجل اظنه لا يخرج من هذا الباب فلنقف له بالباب الآخر فناديا الغلام قائد الفرس فسعيا ومشيا وقد نفد صبر اسماء وانهكها الملل ولم يمشيا قليلاً حتى لقيا عليًّا خارجاً من باب الجامع ومنديله لا يزال في يده يمسح به عينيه وجبينه ثم جعل يصلح عمامته ويسرح لحيته باناملهِ ويمشي الهوينا كأنه عائد من سفر طويل

فتقدم الرجل اليه وحيّاه فقال عليٌّ مرحباً « يا ابن ابي بكر اهلاً بك يا محمد ما الذي جاء بك » . فعلمت اسماء انه محمد بن ابي بكر وكانت تسمع به . قال لقد جئتك بقادم غريب قد انهكه البحث . قال اذا لم تنزله في دار الاضياف . اين هو فتقدمت اسماء والفت القبية وهي لا تزال ملثمة وقد التفت بالعباءة

فنظر عليٌّ اليها فعلم انها متنكرة لأمرٍ ذي بال فقال لها ما غرضكَ يا اخا العرب
قالت لقد جئت أدعوك لغوث امرأة مريضة في حالة الخطر الشديد تلتمس ان تراك لتبثّ لك سرًّا ضنّت به علينا جميعًا

فقال ومن تكون هذه المرأة

قالت هي والدتي واما والدي فهو من بني امية وقد جئنا بها من دمشق فتحملت مشاق السفر والمرض على أمل ان تبلغ المدينة فتطلعك على ذلك السر فاشتد عليها المرض حتى لم تعد تستطيع الوصول

قال اين هي الآن

قالت هي في قباء على مقربة من هذا المكان

قال هيّا بنا اليها · هل ترافقنا يا محمد

قال اني في خدمتك حيثما سرت واذا رأيت ان اقوم بهذا الامر دونك لما انت فيه من الشواغل الكثيرة فعلتُ فتبقى انت هنا

قال لا بأس من ذلك ولكنني اخشى ان يكون حضوري عندها ضروريًا وهي يا محمد امرأة في حالة المرض الشديد يجب علينا غياثها · قال ذلك ومشى ومشى الاثنان في أثره ومحمد ينظر الى اسماء خلسة لعله يستطلع شيئًا من امرها · وهي تطلب الى الله ان يعجل عليٌّ في الخطى ولكنه لم يمشِ قليلاً حتى لقيه رجل مهرول وعليه امارات البغتة · فقال له عليٌّ ما وراءك يا غلام

قال لقد عاد المصريون الينا بعد خروجهم

فقال وكيف عادوا وقد عهدناهم راضين بما وعدهم به الخليفة من الاصلاح

قال لا ادري الاّ انهم عادوا الينا غضابى وهم ينتظرونك في فناء دارك

فقال عليٌّ لا حول ولا قوة الاّ بالله · وسار وهو يهزّ رأسه وينظر الى محمد وكان محمد في مثل حاله من العجب لما سمعه · فقال عليٌّ ما بال هؤلاء القوم لا يريحون لنا بالاً اني ارى مشكلتهم هذه لا تنحل الاّ بفتنة تأول الى القتل فوالله انهم يرومون امرًا عظيماً اخشى عليه اختلال الحال

فقال محمد لا يخلو رجوعهم من امر ذي بال · وأسرعا حتى أتيا بيت علي فرأيا الناس عند بابه زرافات ووحدانًا بين فارس وراجل وقد علت ضوضاؤهم فلما

أشرف عليٌّ عليهم ترجّل الراكبون وهرول الواقفون نحوهُ وفي مقدمتهم رجل لا يزال بثياب السفر محيّاً عليّاً فردّ التحية وقال لهُ ما الذي عاد بكم الينا وكنا قد فضضنا الخلاف بينكم وبين عثمان ووعدكم خيرًا

قال انهُ لم يعدنا الاّ خداعاً . قال ذلك ومدّ يدهُ فاستخرج انبوبة من الرصاص فتناولها عليٌّ ومشى الى مصباح مضيء عند باب الدار ونظر فرأى فيها صحيفة من جلد استخرجها وقرأها فاذا هي كتاب من عثمان الى عاملهِ بمصر يأمرهُ فيها بجلد زعماء المصريين الذين قدموا المدينة لمطالبتهِ وحبسهم وحلق لحاهم ورؤوسهم وصلب بعضهم (١) فبغت عليٌّ لذلك وتأمل الصحيفة فاذا في ذيلها ختم عثمان وكان يختم كتبهُ بهذه العبارة « لتصبرنّ او لتندمنّ » فتحقق انهُ ختمهُ فقال وما الذي اظفركم بهذا الكتاب

قال برحنا المدينة بالامس على ما وعدنا هذا الرجل من الاصلاح وصدعنا بامرهِ فلم نكد نخرج حتى لقينا غلام عثمان على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعهُ فوجدنا فيهِ هذه الانبوبة وفيها هذه الصحيفة

فقال عليٌّ انّا لله وانا اليهِ راجعون . ما بالنا لانكاد نرتق فتقاً حتى نرى غيرهُ ما الذي غيّر عثمان وحملهُ على هذا العمل

فقال محمد بن ابي بكر انها فعال مروان بن الحكم ابن عمهِ فقد كان غائباً في الشام ولم يأتِ المدينة الاّ في غروب هذا اليوم ونظنّهُ هو الذي اغرى عثمان على ذلك

فتأفف عليٌّ وقال تبّاً لهذا الغلام انهُ لا يدلُّ الاّ الى شرّ

فلما سمعت اسماء ذكر مروان عرفت انهُ هو طالبها ورفيق سفرها فازدادت كرهاً لهُ وقالت في نفسها قبحهُ الله انهُ لا يبرح عثرة في طريقنا وايقنت ان ذلك سيكون سبباً في عدول علي عن المسير معها فكلّمت محمداً

فقال لا تخف ياصاحب اننا منجدوك . وخاطب عليّاً بشأنها فقال لهُ اني اخاف اذا برحتُ المدينة في هذا الليل ان يقع ما نندم عليهِ سرْ يا محمد مع هذا النزيل وافعل ما تراهُ وثم عني في كل خير نرجونهُ وعد اليّ بالخبر

(١) ابن الاثير

فلم تعد تجرأ اسماء على الالحاح فقنعت بما وقع مخافة ان ينفع ما هو شرٌّ منهُ فالتفتت الى فرسها فاذا بالغلام يقودهُ وراءها فتهيأ ت للركوب . و بعث محمد فاستقدم فرسهُ وركب الاثنان ومحمد ينظر اليها وهي تركب لعلهُ يرى بعض ثيابها تحت العباءة اثناء الركوب فلمح من ثوبها شيئًا احمراللون يشبه ثياب النساء ولكنهُ ما زال مستبعدًا صدور تلك الجسارة عن امرأة

واغار الاثنان يلتمسان قباء لا يكلم احدهما الآخر ولكن محمدًا كان شديد الميل الى معرفة حقيقة رفيقهِ بعد مااشتبه بهِ من حالهِ . فخرجا من المدينة والظلام حالك وبعد هنيهة اشرفا على قباء . فلما أطلّت اسماء على خيمة والدتها عرفتها من النار المضيئة خارجها فخفق قلبها مخافة ان يكون قد وقع في اثناء غيابها ما يوجب حزنًا فهمزت الجواد فطار بها حتى سبق جواد محمد فاعجب محمد بثباتها على متنه . ولم يدركا الخيمة حتى خرجت امرأة خادم الجامع لاستقبالها فترجلت اسماء عند باب الخيمة وترجل محمد فدخلت وهي تحل عقال كوفيتها وتنزع العباءة عن كتفيها ودنت من سرير والدتها فاذا هي قد افاقت وفتحت عينيها ونظرت الى اسماء بلهفة وعيناها تنظران الى باب الخيمة كانها تنتظر دخول احد وقالت اين هو عليّ

فخافت اسماء اذا اخبرتها الحقيقة ان تحدث لها كدرًا فيزيد مرضها . فقالت لها انهُ آتٍ يا اماه . واغرورقت عيناها بالدموع

اما محمد فقد كان في اثر اسماء يتفرس فيها على نور المصباح فلما نزعت كوفيتها رأى شعرها من الوراء طويلاً مسترسلاً ثم نزعت العباءة فبان رداؤُها الارجواني اللامع وهو عبارة عن قفطان من الديباج عليهِ منطقة من جلد عريضة تعودت لبسها في السفر فتحقق انها فتاة فشعر باعجاب غريب ولم يبق بعد ذلك الاَّ ان ينظر الى وجهها فاسرع في اثرها حتى دنا من السرير فاعترضهُ منظر والدتها . وحالما وقع نظرهُ عليها هالهُ نحولها وفرط سقامها وامتقاع لونها وشخوص عينيها ولكنهُ التفت الى اسماء فاذا فيها فضلاً عن الجمال هيبةٌ وجلال كانما هي ملكة وجبار معًا فلم يتمالك عن الاعجاب بها والانعطاف اليها واحسّ باحساس غريب نحوها

الفصل التاسع

ضياع السرّ

اما هي فقد كانت في شاغل عن حالهِ بما هي فيهِ من القلق على والدتها وكانت قد تطامنت قليلاً لما رأتها صاحية وكم ندمت على عودتها بلا عليّ ولكنها ايقنت ان مجيئهُ لم يكن ممكناً والناس في انتظارهِ عند منزلهِ على تلك الصورة . ثم حولت مريم وجهها نحو محمد وعيناها شاخصتان اليهِ لا تحركان الاّ بكلفة فلم تتفرس فيهِ قليلاً حتى تساقطت دموعها على خدها . فلما رآها محمد تبكي انفطر قلبهُ فخاطبها قائلاً كيف انت يا خالة

فقالت الستَ ابن ابي بكر

فلما سمع قولها اقشعر جسمهُ وابتدرها قائلاً أجل اني هو وماذا تأمرين

قالت ابن هو عليّ

قال قد بعثني لانوب عنهُ لانهُ في شاغل هام فأمري بما تريدين

قالت لا اريد احدًا غير علي ادركوني بهِ . لا اريد احدًا سواه . قالت ذلك وظهر الكدر على وجهها

فعجبت اسماء لما سمعت والدتها تذكر اسم ابن ابي بكر وشعرت منذ سمعت اسمهُ من فيها بارتياحٍ اليهِ ولكنها تمرمرت لاصرارها على استقدام علي فقالت الا تزالين تطلبين عليًا

قالت لا ازال اطلبهُ نعم لا ازال اطلبهُ ادركوني بهِ فان في نفسي سرًّا لا ابوح بهِ الاّ لهُ ادركوني بهِ قبل انقضاء أجلي

فنظرت اسماء الى محمد نظرة استغاثة أثّرت فيهِ تأثيرًا غريبًا وشعر كأن نظرها اخترق صدره حتى وقعت سهامهُ في قلبهِ فنهض للحال وقال لاسماء اذا لم يكن بدٌّ من استقدام علي فاني ذاهب لاستقدامهِ وخرج فامتطى جواده وهمزهُ يلتمس المدينة وعوّل على ان لا يعود الاّ بهِ

وخرجت اسماء لتنظرهُ فسمعت وقع اقدام جواده يخترق السهل وتذكرت والدها فبحثت عنهُ فاذا هو نائم في خيمة أُخرى لايبالي بشيء فلم تكترث بهِ

وعادت الى سرير والدتها وقلبها يخفق خوفًا عليها فاذا هي قد غيّرت وضعها فتحولت الى جنبها الآخر واطبقت اجفانها بعض الاطباق او هي ارختها وعيناها مفتوحتان على كيفية لم تعهدها فيها من ذي قبل ورأت حدقتيها قد جمدتا وشخصتا فخافت من منظرها فنادت العجوز وكانت قد خرجت لغرض فقالت لها ما بال أمي قد غيرت وضعها وما بالي ارى عينيها شاخصتين جامدتين

فبغتت العجوز وقد ايقنت ان المريضة في حالة النزع وخصوصًا لما رأت كتفها يختلج وتنفسها يسرع . فامتقع لون العجوز وظهر الخوف عليها فادركت اسماء خوفها فصاحت بها ما بالك خائفة العلّ والدتي في خطر

فقالت عسى ان لايكون خطر يا ابنتي والاتكال على الله . وخرجت مسرعة

فاضطربت الفتاة وهمّت بيد والدتها فجستها فاذا هي باردة جافة ونظرت الى عينيها وقد غارتا في تجويفها وذهب لمعانها فارتعدت فرائصها وخافت خوفًا شديدًا واسرعت الى باب الخيمة لتستقدم العجوز

وفيما هي تحول سمعت والدتها شخرت شخرة عنيفة فاجفلت وعادت الى السرير وهي تحسبها ستتكلم . فانحنت عليها لتقبلها في جبينها فاذا هو بارد جاف فاقشعر جسمها وازداد خفقان قلبها واصطكت ركبتاها ولم تكن رأت ميتًا قبل ذلك الحين فنادت العجوز فانت فجعلت اسماء تنظر اليها وتتبيّن عواطفها فرأتها في وجل فازداد خوفها فاعادت النظر الى وجه والدتها فاذا هي فاتحةٌ فاها وقد برز فكاها واتسع شدقها واستطال وسكن اختلاج صدرها وبرز انفها واستطال واتسع منخراها واكمد امتقاع لونها . فنظرت اسماء الى العجوز فرأتها قد خرجت من الخيمة فتبعتها فاذا هي تنادي يزيدًا وصوتها مختنق فتحققت وقوع المحظور

فعادت الى السرير وصاحت يا أماهُ اماه فما من مجيب فصفقت يدًا بيد ولطمت وجهها فاذا بالعجوز عائدة وهي تلطم وتقول « حلّي شعرك يا ابنتي ان والدتك قد ماتت واحسرتاه »

فحلّت اسماء شعرها واخذت تصيح وتلطم وجاءتها العجوز برماد لطخت به رأسها وكان والدها قد افاق فجاء واخذوا في العويل والنوح . فتجمع اهل القرية على صياحهم وعلا النوح ولم يفعل احد منهم فعل اسماء فانها كادت تقتل نفسها لفرط البكاء

والندب واللطم وعبثاً كانوا يخففون عنها فكم القت نفسها فوق والدتها وتوسدت جثتها واخذت في تقبيلها وهي تقول لمن تركتني يا أُماه ولمن اشكو همي بعدك ومن يخبر علياً عن السرّ ومن يحمينا من غدر الخائنين آه من الزمان العل أجلكِ قد ساقنا الى هذه الصحراء لتُدفني فيها ما الفائدة من بقائي بعدك وقد اصبحتُ يتيمة فريدة لا سند لي ولا معين

واما والدها فكان يتظاهر بالبكاء ولا تذرف له دمعة

وفيما هم في ذلك سمعتهم اسماء يقولون « جاء عليّ » فصاحت صيحة ارتج لها المكان وقالت « لقد ابطأتَ يا ابا الحسن ان والدتي ماتت ومات سرّها معها » ثم نظرت الى أُمها وكانوا قد غطوها بملاءة وقالت لها « قومي يا أُماه احسري نقابك فقد جاء عليّ قومي اليه واطلعيه على سرك · قومي اشفقي على ابنتك »

أما عليّ فترجل وقد شغلة النظر الى الفتاة عن الالتفات الى الميتة · وكانت اسماء قد توردت وجنتاها وذبلت عيناها وتكسّرت اهدابها لما انسكب عليها من الدموع · ومما زادها هيبة ووقاراً استرسال شعرها الاسود الى ظهرها وصدرها وحول كتفيها وقد غطى معظم وجهها ناهيك عن انكسارها وذلها من الحزن واليأس فانهما يزيدان الجمال جذباً · وكان اكثر الناس تأثراً من منظرها محمد بن ابي بكر فانه لم يتمالك عن البكاء لما لقيه من الفشل في سفرته وقد انهك جوادهُ سوقاً واستحث علياً على القدوم بالرغم عما كان فيه من المشاغل ووعده بالاطلاع على سرٍّ عظيم وظن نفسه قد عاد ظافراً فرأى الفشل ينتظره هناك

وحالما وقع نظر عليّ على اسماء شعر بانعطاف نحوها وتوسم في طلعتها ملامح ارتاح الى التفرس فيها فحمل ذلك الانعطاف محمل الشفقة لما اتفق من تعاسة تلك الفتاة وندم ندماً شديداً لتقاعده عن المجيء معها واحسّ بالتزامه مواساتها جهد طاقته فوقف وقفةً معتبر لمصير الانسان ثم اجال بصرهُ في الناس وهم سكوت يسمعون وقال « ما اصف من دارٍ اولها عناء وآخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها واتته ومن ابصر بها بصرته ومن ابصر اليها اعمته · انظروا الى هذا الميت فقد قبض بصرهُ كما قبض سمعه وخرجت الروح من جسدهِ فصار جيفة بين اهله ولا يسعد باكياً ولا

يجيب داعيًا . اعلموا عباد الله انكم وما انتم فيهِ من هذهِ الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم ممن كان اطول اعمارًا وابعد آثارًا فاصبحت اصواتهم هامدة ورياحهم راكدة وديارهم خالية وآثارهم عافية واقاموا في منازل شيدت بالتراب اهلها لا يستأنسون بالاوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكلهِ البلى وأكلتهم الجنادل والثرى» (١)

وكان عليٌّ يتكلم والدموع تتساقط من عينيهِ هادئة تتدحرج على لحيتهِ . فاعجب محمد لما آنسهُ في ذلك البطل من الحنو واشدُّ الحزن ما يبكي الرجال

ولكن علياً تجلد واخذ يخفف عن اسماء وكانت جالسة الاربعاء فتقدم اليها وأمسكها بيدها وقال لها تصبري يا ولدي ان الحزن والبكاء لا يجديانا نفعًا . ان والدتك قد سبقتنا الى دارِ اللقاء الاخير . واما ما تذكرينهُ من اليتم فلا تخافيهِ لأن الله وكيل باليتامى واتخذيني لك والدًا ثانيًا والقي همَّك بعدالله على عليٍّ واصبري ان الله مع الصابرين

فنهضت اسماء وقد سقط منديلها من يدها فمسحت دموعها بكمها المسترسل من معصمها فعلقت ازراره بشعرها فانحسر بعضهُ عن وجهها فاطرقت خجلاً واجابت علياً وصوتها مختنق وقالت «شكرًا لشهامتك يارجل المسلمين ووصي خاتمة النبيين اني لا اشك بمواساتك ولا ارى راحة الاَّ برضاتك لان والدتي هذهِ (قالت ذلك واشارت اليها وقد خنقتها العبرات) قد فاضت روحها وهي تذكر علياً وتناديه وفي صدرها سرٌّ ازمعت ان لا تبوح بهِ الاَّ لهُ فها قد ذهب سرُّها معها الى القبر فياليتها باحت بهِ لاحد او ياليتني الححت عليك بالقدوم ولكن ما الحيلة وقد قضي الامر» . قالت ذلك وحرقت باسنانها وعادت الى البكاء ولكنها خففت من اللطم والندب احترامًا لعلي

اما محمد فلا تسل عما خالج قلبهُ من الانعطاف وما احس بهِ من الميل الشديد الى اسماء حتى شعر ان المصيبة واقعة عليهِ ولا يدري بماذا يعزيها ولا كيف يخفف عنها وودَّ البقاء معها لمواساتها الى ساعة الدفن ثم ما لبث ان سمع عليًّا يناديهِ فقال لبيك .

فخلا بهِ جانبًا وقال لهُ لا ارى ثمَّ حاجة الى بقائي هنا وقد ماتت حاملة السرِّ

(١) نهج البلاغة

فقال اجل يا عمّاه وانت في شاغل هام من امر الخليفة وقد أسفت لمجيئك بلا فائدة

فقال اني اذًا ذاهب واوصيك باهل هذه الميتة خيرًا فانظر ما يحتاجون اليهِ فاذا تمّ الغسل والدفن اوصل الفتاة ووالدها ومن معها الى مقرّهم واذا رأيتهم في حاجة الى الانفاق فادفع اليهم ما يحتاجون اليهِ على اني لا ارى والد الفتاة حزينًا الاّ بالانقياد

فقال محمد سر بحراسة الله اني فاعل كل ما تأمرني بهِ ولكني آسف لضياع ذلك السر فانهُ لا يخلو من امر هام . فقال عليّ اني افكر في ذلك ولا ارى بابًا لحلهِ

ثم تحول نحو المأتم ونادى يزيدًا والد اسماء فجاء ووقف بين يديهِ وهو لا يستطيع النظر اليهِ الاّ خلسة فلما رأى عليٌّ تسرّعهُ في النظر مع رفرفة اجفانهِ وتردد بصرهِ كأنهُ ينظر الى ما يبهرهُ تحقق ان الرجل مراء يضمر غير ما يظهر . لان من سلمت سريرتهُ واخلص نيتهُ كان بصرهُ ثابتًا صافيًا مثل قلبهِ واما المرائي المخاتل فانهُ لا يستطيع تثبيت نظرهِ في مخاطبهِ ولا ينفكُّ يرفُّ اجفانهُ كأنهُ يفكر في حيلة يخترعها . ونظر عليٌّ الى يزيد فعرف انهُ اموي فقال لهُ تصبر يا اخا امية انك اصبتَ بما يصاب بهِ كل ابن انثى ولا حيلة لنا الاّ بالصبر

فلما قال عليٌّ ذلك تظاهر يزيد بالبكاء

فقال عليٌّ لقد اوصيت محمدًا ان يتولى مؤاساتكم بكل ما تحتاجون اليهِ واذا نزلتم المدينة فانتم في حمانا وما احتجتم اليهِ قدمناهُ لكم

فتظاهر يزيد بالشكر وهمّ بتقبيل يدي علي

ثم تقدم عليٌّ الى اسماء وهي لا تزال تبكي فعزّاها واخبرها بان محمدًا باقٍ لمؤاساتهم فبكت ولسان حالها يدلُّ على الامتنان وان لم ينطق لسانها بكلمة . فخرج عليٌّ وهو يقول لمحمد اني لأعجب ما بين هذه الفتاة ووالدها من البون فكأنها ليست ابنتهُ

ثم ركب جواده وودع محمدًا وسار قاصدًا المدينة

اما محمد فأمر خادم الجامع باحضار من يقوم بالغسل والدفن ولكنهُ افتقد يزيدًا بعد برهة فلم يجدهُ بين الناس فعجب لغيابهِ وظنهُ في بادىء الرأي قد ذهب في حاجة لنفسهِ فلما طال غيابهُ ارتاب من امرهِ حتى اذا انفلق الصبح رآهُ بين الناس فلم يسألهُ عن سبب غيابهِ لئلاّ يكون في سؤالهِ تداخل في ما لا يعنيهِ . ثم غسلوا الميتة وصلوا عليها ودفنوها واسماء لا تنفك عن البكاء والنحيب بعبارات يتفتت لها الصخر .

الفصل العاشر

﴿ المدينة المنوّرة ﴾

فلما عادوا من الدفن تقدّم محمد الى يزيد ان يطلب ما يحتاج اليه فتلطف في الثناء وبالغ في الشكر لما لاقاهُ من مؤاساته

فقال محمد اتريدون الذهاب الى المدينة فتنزلون علينا فان عليًّا اوصانا بذلك

قال لقد تفضلتم بما لا طاقة بنا على شكره ولا نشك في كرم مولانا ابي الحسن وحسن وفادته ولكن لنا اهلاً في المدينة لا بدّ من النزول عليهم واخاف اذا نزلت في غير منزلهم ان يعدّوا ذلك منّا امتهانًا على اننا حيثما نزلنا انما نكون في حمى ابي الحسن

فعجب محمد لما آنسهُ من لطفه وكاد يغير ظنهُ به فقال له واين يقيم اقاربكم يا عم

قال هم يقيمون بقرب الزوراء (١)

وكانت اسماء في اثناء الحديث جالسة تسمع ما يقولان وهي مطرقة حزنًا وانكسارًا وقد غطّت رأسها بخمار اسود زادها هيبة وجمالاً فلم يتمالك محمد عن الهيام بها فلما ذكر والدها محل اقامته قال محمد وهو ينظر الى اسماء « اذًا ارجوان لا تنسونا ومهما عنّ لكم من الامور التمسوهُ منّا فان سيدي عليًّا حفظهُ الله اوصاني بكم خيرًا » . قال ذلك ونظر الى اسماء فرأى الدمع يقطر من بين اهدابها وينحدر على خديها وهي لا تزال مطرقة فازداد انعطافًا وحنوًّا نحوها

اما والدها فقال له اننا لا نستغني عن فضلكم فاذا اصابنا ضيق لجأْنا اليكم ولا نبرح نذكر احسانكم الى آخر نسمة من حياتنا

فقال محمد الا تحتاجون الى ركائب تحمل امتعتكم

قال ان ركائبنا لا تزال عندنا وقد بعث الينا اقرباؤُنا خدمًا يساعدوننا في الحمل والنقل

فوقف محمد ووقف يزيد فودعهُ وودع اسماء

---

(١) الزوراء اسم سوق المدينة ويطلق على منزل الخليفة عثمان ايضًا (مراصد الاطلاع)

اما هي فلما وقف لوداعها تذكرت ان والدتها عرفتهُ وذكرت اسمهُ وهي على فراش الموت فنظرت اليهِ والدمع يتلألأ في عينيها وقد ذبلتا وتكسرت أهدابها وتنهدت ولم تجب. فحياها وتحوّل الى جواده فركب وعاد الى المدينة وقد علق ذهنهُ باسماء واشتغل قلبهُ بها

أما ما ظهر في حديث يزيد من الرقة فليس من عندياتهِ ولكنهُ تلقنهُ من مروان وكان قد غافل الناس في أثناء المأتم كما تقدم ويمم المدينة ليستشير مروان في ما يعملهُ مخافة ان يحملهُ محمد بن ابي بكر على النزول في جوار علي وهو لا يريد ذلك لئلاَّ يضيع ما أملهُ من مصاهرة مروان . وكان لما توفيت زوجتهُ قد شعر بزوال عقبةٍ من طريقهِ لأنها كانت عونًا لابنتها على الرفض فلما توفّيت تحقق نيل مرامهِ وخاف مجاورة عليّ فذهب ليشاور مروان فلقيهُ في منزل الخليفة عثمان فانبأهُ بوفاة مريم واستشارهُ في الامر فاوصاهُ ان يحتال في التخلص من محمد وعلمهُ ماذا يقول من عبارات الشكر والثناء وان يعتذر بالنزول عند اقاربهِ كما فعل

وكانت أسماء خالية الذهن من كل ذلك لسلامة نيتها وانشغالها عن الدنيا باحزانها وبكائها على انها شعرت بامتنان لعلي وارتياح الى محمد واحسّت بأنهما سند عظيم لها عند الحاجة فاذا آنست من مروان او والدها ما لا يرضيها استنجدتهما

ولم يكد محمد يتوارى عن قباء حتى أمر يزيد عبيدًا كان مروان قد أرسلهم لخدمتهِ فقوّضوا الخيم وحملوا الاحمال وركبوا وركبت اسماء بعد ان ودعت قبر والدتها وداعًا يتفتت لهُ الصخر وودعت خادم الجامع وامرأتهُ واكرمتهما فوق ما اكرمهما بهِ محمد فودعاها وهما يبكيان وسار الركب نحو المدينة

فلما اشرفوا على المسجد تذكرت اسماء لقاءها عليًّا هناك وما كان من اضطرابها وقلقها في الليل الغابر وتاهت في بحار التأمل . فلم يهمّها شيءٌ من ضوضاء اهل المدينة وتجمهرهم في اسواقها . وقبل وصولهم الى المسجد مرّوا باحجار الزيت وهو موضع صلاة الاستسقاء (١) بقرب الزوراء فرأوا الناس هناك جماعات متكاثفين وهم أخلاط من أهل مصر والكوفة والبصرة وفيهم الامراء والفرسان والعبيد والخدام على اختلاف ازيائهم وكل جماعة في شاغل وحديث او جدال . ثم وصلوا منزلاً وراء الجامع فناؤهُ واسع محاط

(١) ياقوت

بسور منيع له باب ضخم في وسطهِ خوخة [١] وقد أُقفل و وقف الحراس عليهِ فعلمت انها دار عثمان ولم يجاوزوها حتى وصلوا الى باب وقفوا عندهُ . فترجل والدها هناك فعلمت انهُ المنزل المقصود فترجلت وقد انهكها التعب والنعاس لما قاسته من المجاهدة والبكاء والحزن كل ذلك الليل ولكنها لم تكد تدخل ذلك المنزل حتى لقيهما مروان فلما رأتهُ استعاذت بالله وندمت على مجيئها على انها لم ترَ بدًّا من النزول مع والدها فلما شاهدها مروان وقد تسربلت بالثوب الاسود فوقهُ الخمار الاسود تحتهُ وجهٌ زادهُ انكسار الحزن جمالاً واشراقًا ازداد تعلقًا بها فتقدَّم نحوها مسلّمًا ومعزيًا فردت عليهِ ردًّا ضعيفًا وهي تود ان لا تراهُ . أما هو فبالغ في اكرامها وسار في خدمتها الى داخل الدار وكان بعض نساء المنزل قد جئن لاستقبالها فدخلن بها حجرة و والدها معها وهي لا تنطق بكلمة وإذا كلمها أحدٌ لم يكن غير البكاء جوابًا له وإلما خلت بوالدها سألتهُ عن أهل ذلك المنزل فقال هم آل حزم [٢]

الفصل الحادي عشر

الحيلة

أما مروان فرأى من الحكمة ان يتركها في الغرفة لتستريح فخرج يدبر وسيلة لاسترضائها بالحسنى فخطر له ان يوسّط بينهُ وبينها نائلة بنت الفرافصة امرأة الخليفة . وكانت نائلة ذات مقام رفيع لتزوجها بالخليفة على انها لم تكن من قريش بل هي من بني كلب من القحطانية وكان والدها الفرافصة نصرانياً يقيم في الكوفة [٣] وكانت عاقلة حسنة الخلق ولم تكن ترتاح الى مروان لنزقهِ وطيشهِ وكثيرًا ما كانت تخالفهُ في مشوراتهِ على زوجها حتى انتهرتهُ مرارًا وتقدمت الى زوجها ان لا يصغي اليهِ [٤] ولكنها لم تكن تبالغ في جنائهِ احترامًا لقرابتهِ منهُ

فسار مروان اليها وكانت في اضطراب عظيم لما احاط زوجها من الاخطار فلما رأتهُ قالت ما وراءك يا مروان

(١) الاغاني جزء ١٥ (٢) ابن خلدون (٣) الاغاني جزء ١٥ (٤) ابن الاثير

قال ما ورائي الاَّ الخير يا خالة اني اراك في وجل من أمر هؤلاء الناس الذين يحاولون نزع الملك من ايدينا ورأس ذي النورين [١] انهم بعيدون عن نيلو فقد كتبنا الى معاوية في الشام وابن عامر ورؤساء الاجناد من بني أُمية [٢] نستقدمهم الى نجدتنا فاذا جاؤوا لم يستطع المصريون او الكوفيون او البصريون مناوأتهم فيتفرقون ايدي سبا

فتنهدت نائلة وقالت لا اظنهم يصلون الينا يا مروان الاَّ بعد ان تنفد الحيلة والتبعة كلها عليك فانك كبَّرت الخرق بطيشك

فضحك مروان وتظاهر بالمزاح وقال سوف ترين بعينك ياخالة ' ان مساعي مروان هي الحقة وتحققين ان هؤلاء الاعداء مغررونٍ بانفسهم · لا تجزعي يا خالة ولا تخافي اننا الفائزون باذن الله

قالت دعنا من المزاح يا مروان ان الامر جالل

قال بل هو أهون مما تظنين وما انا حاسب له حسابًا وما يدلُّكِ على ذلك اني اهتمُّ باسترضاء عروس جميلة جئت بها الى هذا المكان

قالت وأية عروس

قال اسماء بنت يزيد الاموية انها يا خالـة على جانب عظيم من الجمال وقد كانت في دمشق وكانت والدتها تمتنع في تزويجها فماتت الوالدة بالامس في قباء فجئت بها وبوالدها اليوم وانزلتها في دار بني حزم وهي الآن نائمة للاستراحة من وعثاء السفر فاتقدم اليكِ اذا جاءتكِ غدًا ان تقنعيها بأني كفء لها

فقالت اين نحن من الزواج يا غلام

قال لا تقولي يا غلام وانما شاب بطل كما تعلمين واستحلفك برأس امير المؤمنين ان تسترضيها وهي لا شك اذا سمعت كلامك رضيت · فاذا فعلتِ ذلك فديتكِ وفديت عمي الخليفة بروحي

فسكتت نائلة وهي تعجب لطيش مروان وخفتو على ان استخفافة بمن احاط بزوجها من المقاومين طمأنها وبرد قلبها وما زال مروان بها حتى وعدتة باسترضاء اسماء

فتركها وخرج الى يزيد والد اسماء فاخبرهُ بما عزم عليو ففرح وقال حسنًا فعلت

(١) (لقب عثمان) (٢) ابن خلدون

وأرى ان آخذها انا الى نائلة للسلام عليها فيكون ذلك أقرب الى طلي الحيلة

فقال مروان وهب انها لم تقنع باسترضاء نائلة فاني حامل الخليفة على تزويجي بها قسرًا وما انا متحوّل عن عزمي لأنها فتاة لا تعرف مصلحة نفسها ولا هي مدركة مصلحة والدها في الامر (وقد أراد مروان بذلك ان يؤكد آمال يزيد بتولي منصب بواسطة تلك المصاهرة)

فابرقت أسرة يزيد وقال طب نفسًا يا ولدي فاني لست تاركًا هذه الفتاة تفعل غير ما أرضاهُ أنا

فودعهُ مروان وخرج وباتت اسماء تلك الليلة لا تدري بما نصبوهُ لها

الفصل الثاني عشر

نائلة بنت الفرافصة

وفي الصباح التالي افاقت اسماء مذعورة وقد رأت والدتها في الحلم فبكت بكاءً مرًّا ولم تكد تجلس في الفراش حتى دخل والدها وهمَّ بها وقبَّلها قبلة الوالد والرياء ظاهر على وجهه فلم تطاوعها نفسها على تقبيل يده فلبثت في الفراش صامتة كئيبة لا تبدي حراكًا

فقال لها يزيد انهضي يا ابنتي واغسلي وجهك وهيَّا بنا الى مولاتنا نائلة امرأة مولانا امير المؤمنين ولا ريب انها ستعزيك في احزانك

فقالت دعني يا ابتي واغلق باب الغرفة عليَّ فاني لا ارى شيئًا في هذا الكون يعزيني

قال قومي يا حبيبتي فان الحزن يضرُّ بك ولا فائدة منهُ . وهبي انها لا تقدر على تعزيتك فالذهاب اليها واجب لاننا في حماها . وما زال حتى انهضها وفيما هي تحفز للقيام دخل رجل فاستقبلهُ يزيد قائلاً اهلاً بابي الجراح [1] فبغتت اسما لمشاهدته فابتدرها والدها قائلاً انهُ مولى مولاتنا ام حبيبة واظنهُ جاء لاستقدامك . فقال ابو الجراح ان مولاتي تدعوكِ اليها وقد سمعتْ بما اصابك وعلمت بنزولك عند جيراننا

---

(1) الاغاني جزء ١٥

آل حزم فبعثتني لاستقدامك ومعي جارية حبشية لمرافقتك اليها

فعجبت اسما لهذا الاحتفاء وشكرت تلك العناية ونهضت فلبست ثوبها وسرحت شعرها وعقصته وارسلته الى الوراء وارخت الخمار على رأسها وتزملت بالرداء الاسود وخرجت والجارية برفقتها ودخلت في باب موصل بين الدارين حتى اتصلت الى دار عثمان فرأت فيها ما يليق ببيوت الخلفاء من الطنافس والاستار ونحوها ولقيت في باحتها كثيرًا من المماليك والاماء فمشت حتى اتت غرفة نائلة

فلما سمعت نائلة وقع اقدامها تحفزت للقائها · وحالما وصلت اسماء الى باب الغرفة تنسمت رائحة الطيب وسمعت خشخشة اساور نائلة وخلاخلها وعقودها ودمالجها وهي تتهيأ للوقوف ولم يقع نظرها عليها حتى بهرها ما على اثوابها من التطريز والزركشة بالفضة والذهب فدخلت اسماء ووقفت لها نائلة وقد اعجبت بجمالها وهيبتها فهمت بها وضمتها الى صدرها وهي تقول اهلاً بضيفتنا الحبيبة اهلاً بابنتنا العزيزة

فلما سمعت اسماء ذلك غلب عليها البكاء ولكنها تجلدت وقبلت يد نائلة وجلست الى جانبها وخرجت الجارية وبقيتا في الغرفة على حدة واسماء لا تنطق بكلمة

فتسارعت نائلة في مداعبتها فقالت اهلاً بابنتنا الجديدة ومرحبًا بها

فادركت اسماء مرادها فقالت وهي تشرق بدموعها ابهذا الكلام تعزينني يامولاتي دعيني ابكي والدة حنونة فقدتها بالامس واذا كنتِ تشفقين عليَّ فابكي معي

فأثر ذلك الكلام في قلب نائلة تأثيرًا عظيماً حتى ترقرقت الدموع في عينيها وهي تقول اني مشاركة لك في احزانك يا حبيبتي اما ترضينني بدلاً من والدتك

فقالت ان ذلك اكبر تعزية لي على مصائبي وارجو ان لا يكون مرادك ما قد تبادر الى ذهني

قالت وما ذا تبادر الى ذهنك

فاطرقت اسماء ولم تجب

فغالطتها نائلة وتأوهت لتأوهها ثم قالت تصبَّري يا ولدي على مصابك ان الحزن المفرط لايجديك نفعاً · ثم امرت بالطعام فمدّ السماط فاعتذرت اسماء عن الطعام فالحّت نائلة عليها فتناولت منهُ شيئًا ثم جلست تحادثها في شؤون مختلفة حتى هدأ روعها وجعلت تتأمل ملامحها وتعجب لجمالها فاذا هي لا تشبه والدها في شيء وكانت

قد شاهدتها عند قدومه معها

وكانت اسماء في اثناء ذلك مطرقة وهي غارقة في بحار الهواجس . فقالت لها نائلة ما بالك صامتة تكلمي يا اسماء واشغلي نفسك عن الحزن لعلك تتعزين

قالت لا ارى شيئاً يعزيني في هذا العالم يا سيدتي ولا يحلو لي التكلم قط على اني احمد الله لما لقيته من مواساتك فقد استأنستُ بك كثيرًا وشعرت بانعطاف نحوك كانعطافي الى والدتي رحمها الله . قالت ذلك وهي تمسح دموعها بالمنديل وتشهق من البكاء

فتأثرت نائلة لتلك الحالة وأجّلت مخاطبتها بشأن مروان الى فرصة اخرى . ولكنها أحبت ان تصرف ذهنها عن الحزن فدعتها لمشاهدة ما في بيتها من الاثاث واكثرهُ من الطنافس والسجاد وبعض الآنية مما غنمه القواد الذين فتحوا الشام والعراق من قصور الملوك والبطاريق واغنياء الروم والفرس وفي جملتها اسلحة مرصعة واعلام ودروع وآنية من الفضة والذهب من غنائم المدائن عاصمة الفرس على عهد عمر بن الخطاب وبينها تاج كسرى مرصعاً بالجواهر وثيابه ووشاحه من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع النعمان بن المنذر وكثير من الاسياف المرصعة . وادركت اسماء من تجمعها بعضها فوق بعض بلا ترتيب انها لم توضع هناك للزينة . ثم خرجت نائلة بها الى غرفة اخرى صغيرة رأت فيها دكة عليها فرس من ذهب فوقه سرج من فضة وعلى ثغره ولبانه الياقوت والزمرد وعلى الجواد فارس من فضة مكلل بالجوهر . وبالقرب من الفرس ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب . فانبهرت اسماء لتلك التحف التي لم ترَ مثلها ولكنها علمت لاول وهلة انها ليست من صنع بلاد العرب

فقالت ومن اين انت هذه التحف ياسيدتي

قالت انها غنائم ابطال المسلمين مما فتحوهُ من بلاد الفرس [1] وهي من خصائص بيت المال وانما نقلناها الى هنا موقتاً لامرٍ اقتضى ذلك وسنعيدها اليه فاحببتُ ان اطلعك عليها لانها من ابدع المصنوعات ولا نظن الزمان ولا الانسان سيأتيان بمثلها

(١) ابن الاثير

فقالت اسماء لقد عرفت فائدة التيجان والسيوف والدروع ولكنني لم افهم فائدة هذه الفرس وهذه الناقة

قالت نائلة لقد اخبرني بعض من شهد فتح المدائن من امرائنا انهم لما فتحوها ودخلوا ايوان كسرى رأوا في صدر الايوان الدكة التي كان تاج هذا الملك قائمًا فوقها وعلموا انه كان مركزًا على اسطوانتين من المرمر المذهب وعلى قمة احدى الاسطوانتين هذا الفرس وراكبه وعلى قمة الاسطوانة الاخرى هذه الناقة وراكبها · وكان الفُرس قد نزعوا هذه التحف وحاولوا الفرار بها فعثر بهم المسلمون واخذوها منهم (١)

فاعجبت اسماء بما رأت اعجابًا عظيمًا · وفيما هي تنظر الى صحن الدار لمحت مروان مارًا فاجفلت وانقبضت نفسها والتمست الذهاب الى غرفتها متظاهرة بالميل الى الراحة فودّعت نائلة ورجعت فدخلت الغرفة واغلقت الباب وراءها وتوسدت الفراش وغاصت في بحار الهواجس

أما مروان فكان قد علم بمجيء اسما الى نائلة فهمّه الاستفهام عما جرى بينهما لجاءه متظاهرًا بمقابلة الخليفة ثم تحول الى غرفة نائلة فرآها وحدها فسألها عما جرى فاخبرته انها لم تناقشها في شيء وانها ستذهب اليها في الغد ونرى ما يكون

فالحّ عليها ان تستطلع ضميرها ونيتها

فوعدته بانها ستدعوها في الغد الى الاقامة عندها

الفصل الثالث عشر

﴿ سرٌّ آخر ﴾

وفي صباح اليوم التالي بكرت نائلة الى غرفة اسماء فوجدت الباب مغلقًا ففتحته بلا استئذان فرأت اسماء لا تزال نائمة وقد اغمضت جفناها وكللها العرق وتوسدت احدى ذراعيها تحت خدها وجعلت ذراعها الأُخرى فوق رأسها فانحسر كمّها عنها فبان زندها وبانت عروقه مخضرّة كأنها خطوط متعرجة رسمها الجمال تحت تلك البشرة الناعمة وحول زند نمتْ عضلاته واستدارت حتى يخال لناظره ان الصحة تتدفق

---

(١) ابن خلدون

منه وكانت الشمس قد أشرقت فارسلت أشعتها من نافذة فوق رأس اسماء فمرّت الاشعة حتى اجتازت قامتها ولم تقع عليها ولكنها جعلت لزندها ظلاً خفيفًا وقع على وجهها فأخفى ظل أهدابها الطويلة . فوقفت نائلة تتأمل ذلك الجمال المحلى بالصحة وهي تحاذر ان توقظها فلمحت على معصمها وشمًا على شكل الصليب فاستغربت ذلك لعلمها انها مسلمة ولا يتخذ ذلك الرسم غير المسيحيين . فتفرست فيهِ فاذا هو رسم صليب لا ريب فيهِ ثم دنت من رأسها فرأت العرق قد كلل جبينها وزادها بهاء وجمالاً

وكأن اسماء شعرت بوقوف نائلة الى جانبها فغيّرت وضعها ورفعت يدها عن جبينها واستلقت على ظهرها فانفتح صدر ثوبها فبان من تحتهِ قلادة من فضة قد تعلق فيها حجاب صغير أشبه شيء بحجاب المسيحيين لما عليهِ من الرسوم فازداد تعجبها واستغرابها وتعاظم ميلها الى استطلاع السرّ . وفيما هي تتكر في ذلك رفعت اسماء يدها الى عينيها فمسحتها ثم فتحتها فرأت نائلة واقفة عند رأسها فخجلت لتوسّدها فنهضت للحال وارسلت كمّها فوق معصمها واطبقت ثوبها على صدرها وقد ظهر الخجل على وجهها . فحيتها نائلة فردت التحية وهي تمسح عرقها وتهمّ بالوقوف فاقعدتها وقالت استريحي يا ابنتي اني لا اريد ازعاجك ولم آتِ الاّ التماسًا لراحتك

فأثنت اسماء على فضلها ودعتها للجلوس فجلست نائلة على جانب السرير وهي ممسكة يد أسماء تنظر الى رسم الصليب فيها ثم قالت لقد استغربتُ هذا الرسم على معصمك وعهدي بكِ مسلمة فهل رسمتهِ على سبيل الزينة

قالت لا اعلم كيف رسمتهُ ولا انا ذاكرة يوم رُسم لاني كنت طفلة وقد سألت والدتي عن سببهِ فلم تخبرني

قالت وما هذا الحجاب الذي في عنقك

فمدت أسماء يدها الى الحجاب فاستخرجتهُ من بين اثوابها وقالت ولا ادري ايضًا من ألبسني اياه

قالت نائلة ولكنهُ حجاب مسيحيّ

قالت لعلهُ كذلك ولكنني لبستهُ اطاعة لامر والدتي فقد اوصتني ان احتفظ بهِ منذ طفوليتي

فلم تستطع نائلة شيئًا من حقيقة الواقع وازدادت رغبة في البحث فقالت الا اخبرتِني

يا اسماء كيف اتصل اليك هذا الحجاب وكيف رسم على يدك هذا الصليب اخبريني لا تخافي فان النصارى اهل ذمة عندنا · وزد على ذلك اني ولدتُ في بيت مسيحي وكان والدي نصرانياً (١) فاخبريني عن حقيقة حالك وانا أعلم ان والدك يزيدًا مسلم اموي ابًا عن جد

فتذكرت اسماء والدتها وكتمانها اسم والدها الحقيقي فتنهدت وصمتت

فعجبت نائلة لسكوتها وتستُّرها وقالت لها · ما بالك صامتة· بوحي لي بسرّك ولا تخافي فانك بمنزلة ابنتي

قالت اسماء بماذا ابوح لك وانا لا اعلم من هذا السر شيئًا واعترف لك اني منذ فتحت عينيّ وانا ارى هذا الصليب وهذا الحجاب ولا اعلم من خبرهما شيئًا

قالت كيف يمكن ان يكون ذالك

قالت اسماء هذا هو الواقع يا مولاتي ولا اعلم من امرها شيئًا و ····· وصمتت

فقالت نائلة قولي يا اسماء لا تخفي سرّك عني قولي ما في ضميرك ولا تخافي

قالت ماذا اقول وانا لا اعرف شيئًا غيرما ذكرت

قالت يظهر لي من ترددك انك تخفين شيئًا

فتنهدت اسماء تنهدًا عميقًا ونظرت الى نائلة والدموع ملء عينيها وحاولت التكلم فخنقتها العبرات فسكتت

فضمتها نائلة الى صدرها وقبلتها وهي تزداد اعجابًا بنور طلعتها وقالت · قولي يا ولدي قولي ما في نفسك وثقي اني حافظة سرّك عن كل انسان

فمسحت اسماء دموعها بكمّها وتنفست الصعداء وقالت ماذا اقول لك يا خالة ان سؤالك قد جدّد احزاني واذكرني والدتي المسكينة · قالت ذلك وعادت الى البكاء

فمسحت لها نائلة دموعها وقالت رحم الله تلك الوالدة الحنونة فانها قد خلفت لنا ملاكًا سماوياً · قولي ما هو سرّك

قالت ان سرّي يا سيدتي قد ذهب الى القبر مع تلك الوالدة قالت ذلك واوغلت في البكاء

(١) الاغاني جزء ١٥

فقالت نائلة ألعلها كانت تخفي السرّ عنك وماتت قبل ان تبوح به

قالت نعم نعم ماتت وخلَّفت لنا حرقة فراقها وزادت تلك الحرقة لوعة بكتمانها سرًّا ذهب معها الى القبر ولكنها . . . . .

قالت ولكنها ماذا

قالت ولكنها اخبرتني ان يزيدًا الذي يزعم انهُ والدي ليس هو بالحقيقة كذلك

فبغتت نائلة وتذكرت انها توسَّمت ذلك فيهِ مذ رأتهُ فقالت وقد ظننتُ ذلك فيهِ منذ رأيتك ورأيتهُ فاخبريني ما تعلمينهُ من تاريخ حياتك لعلي استنتج شيئًا منها

فقالت اعلمْ اني ربيت في دمشق الشام منذ طفوليتي وقد احتضنتني تلك المسكينة وزوجها يزيد هذا معها وكنت أظنهُ والدي ثم علمتُ انها تزوجتهُ في مصر على أثر قدوم عمرو بن العاص اليها وكان يزيد في جندهِ يوم الفتح فكانت والدتي نصيبهُ من الغنيمة وكنت انا يومئذٍ طفلة بنت العام هذا كل ما اعلمهُ وقد ألححت على والدتي بالاستفهام عن حقيقة والدي فوعدتني وسبقها اجلها

فبهتت نائلة وظلت صامتة برهة تفكر فلم تستطع فهم شيء

وفيما هما في ذلك سمعتا وقع اقدام مسرعة امام باب الغرفة فالتفتتا فاذا بيزيد قد دخل مسرعًا وعلى وجههِ امارات البغتة فلما رأى نائلة هناك تأدب في وقوفهِ وحيَّاها . فقالت ما وراءك يا أخا أُميَّة

قال وعيناه تترددان واجفانهما ترفُّ « ما ورائي الاَّ الخير يا مولاتي . . . . »

قالت قل ما وراءك هل من امر يهمُّنا

قال خرجت في هذا الصباح باكرًا في مهمة بعثني بها مروان فرجعت الآن ولم استطع الدخول الى هذا المنزل الاَّ خلسة

فنهضت نائلة وقد خفق قلبها وحدثتها نفسها بسوءٍ كانت تتوقعهُ وقالت ما الذي منعك من الدخول

قال اقوام تجمهروا حول منزل امير المؤمنين بخيلهم ورجلهم وقد علا ضجيجهم ولا ادري ما ينوون

فبغتت نائلة وقالت وماذا ينوون يا يزيد . قل

قال لا ادري يا سيدتي واظنهم ينوون شرًّا

الفصل الرابع عشر

﴾ حصر عثمان ﴿

فخرجت نائلة مهرولة وبدنها يترجرج لضخامة اوراكها [1] وخرجت اسماء في أثرها وقد نسيت حزنها وتشددت كأنها تهم بالهجوم في حرب حتى دخلتا الى دار عثمان وتحولتا الى اوّل غرفة تشرف على الطريق فأطلتا فرأتا الناس جماعات وقد تجمهروا بأسلحتهم وخيولهم وعلا صياحهم فاضطربت نائلة وامتقع لونها واخذ الخوف منها مأخذاً عظيماً

أما اسماء فما زالت رابطة الجاش وجعلت تشجعها وتقول لها لا تخافي يا سيدتي فانهم لا يستطيعون الوصول الى هذه الدار وهي محاطة بهذا السور المرتفع واذا هم همّوا بتسلقه فاننا نسلقهم بالنبال والحراب

فعجبت نائلة لجسارة اسماء ورابطة جاشها وتشجعت بها فامسكتها بيدها وتحولت بها من تلك الغرفة تريد غرفتها

وفيما هما في صحن الدار سمعتا لغطاً ورأتا هناك نفراً من المهاجرين يهمون بالدخول الى الدار وحالما وقعت عينا نائلة عليهم همست في اذن اسماء كلاماً يتخلله ارتعاش وقالت « هؤلاء هم كبار الصحابة قد أتوا ولا ندري غرضهم من امير المؤمنين » ونظرت اسماء اليهم فرأت علياً بينهم فحدثتها نفسها ان تخاطبه ولكن نائلة سارت بها الى اقرب حجرة هناك التماساً للحجاب واغلقت الباب وراءها فاذا هما في حجرة بينها وبين مجلس عثمان باب مقفل ونائلة لا تزال ممسكة يد اسماء وقد احست هذه بارتعاش انامله فقالت لها ما الذي أخافك يا خالة

قالت نائلة بصوت مختنق لقد اخافني مجيء هؤلاء فانهم قلّما جاؤونا الاّ لتوبيخ او تهديد

فقالت ومن هم

قالت عليّ بن ابي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم أوجه الصحابة

---

(1) ابن الاثير

ولهم مطمع في الخلافة كل منهم يتطلبها لنفسهِ . وما زلنا منذ تولاها امير المؤمنين لا يهدأ لنا بال مما يتهمونهُ بهِ من الاعمال . اما رأيتِ الناس محيطين بمنزلنا الآن فانهم اهل مصر والكوفة والبصرة قد جاؤوا لمطالبة الخليفة بامور ما انزل الله بها من سلطان

الفصل الخامس عشر

اسباب الفتنة

قالت اسماء بماذا يطالبونهُ

فادنت نائلة فاها من اذن اسماء وقالت بصوت منخفض « هم يزعمون انهُ استأثر بالسلطة ففضل اقاربهُ في مصالح الحكومة فولاَّهم الاعمال دون سواهم وانهُ اكتسب الاموال الطائلة واقتنى المماليك وانهُ يعطي المال لاقاربهِ [1] هذا ما يزعمونهُ ولكن الحقيقة غير ذلك

قالت وما هي الحقيقة اذًا

قالت اما استئثارهُ بالسلطة فذلك حقهُ من الخلافة لانهُ امير المؤمنين ولهُ الامامة والسلطان . واما تفضيل اقاربهِ فلم يكن هو اول من فعل ذلك فقد كان الرسول (صلعم) يعطي قرابتهُ [2] واما احراز الاموال والتوسع في المعيشة فانهما حق هذا المنصب . وزد على ذلك ان امير المؤمنين يطعم الناس طعام الامراء وأقسم برأسهِ ان طعامهُ لنفسهِ انما هو الخل والزيت [3] انعدّين من يفعل ذلك طامعًا في الدنيا

قالت اسماء فاذا كان الامر كذلك فما الذي دعاهم الى هذه الثورة

فتنهدت نائلة ثم قالت انهم يا عزيزتي انما فعلوا ذلك حسدًا واني اعرف من زعماء هذه الثورة جماعة عاشوا في نعم امير المؤمنين اعوامًا ثم وسوس لهم الشيطان . وقد اخبرني من اثق بروايتهِ ان الذي حرضهم على الفتنة رجلٌ يهوديٌّ اسمهُ عبد الله بن سبا أسلم حديثًا واخذ يتنقل في الحجاز والبصرة ثم الكوفة ثم الشام يريد اضلال الناس فلم

(١) ابن الاثير (٢) القزويني (٣) ابن خلدون

يصغوا له فاخرجوهُ من الشام فاتى مصر فاقام فيها فآنس هناك اذنًا واعية فجعل يقول لاهل مصر العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ويكذب ان محمدًا يرجع فوضع لهم بدعة يسمونها الرجعة فقبلوا ذلك منهُ ولكي يثير خواطرهم قال لهم قد كان لكل نبي وصيٌّ وان عليًا وصيُّ محمد فمن اظلم ممن لم يجز وصية رسول الله (صلعم) وزعم ان امير المؤمنين (عثمان) وثب على وصيهِ واخذ الخلافة بغير الحق فقال لهم « انهضوا بهذا الامر وابدأُوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا بهِ الناس » وبثَّ دعاته وكاتب من استفسد في الامصار وكاتبوهُ ودعوا في السرّ الى ما عليهِ رأيهم وصاروا يكتبون الى الامصار كتبًا يضعونها في عيب ولاتهم واوسعوا بذلك الارض اذاعة وبدأَ الفساد من ذلك الحين فثار المسلمون في كل الانحاء الاَّ اهل الشام والمدينة فانهم ثبتوا على ولاء الخليفة [1] . هذا هو سرُّ الامر يا ابنتي واما ماذكروهُ من احراز الاموال وتفضيل الاقرباء فليس بالامر المهم

فتأَثرت اسماء لذلك القول وشاركت نائلة باسفها ومالت كل الميل لنصرة عثمان ومشت الاثنتان نحو الباب المقفل بينهما وبين مجلس الخليفة وفي الباب شقٌّ يشف عمن هناك . فنظرت اسماء في الشق فرأَت عثمان جالسًا في صدر المجلس على وسادة مزركشة وقد علتهُ البغتة وامتقع لونهُ وآثار الجدري لا تزال ظاهرة فيهِ . وتأَملتهُ جيدًا فرأَتهُ مشرف الانف عظيم الارنبة [1] وقد حوَّل نظرهُ نحو الدار ويدهُ اليسرى على لحيتهِ يمشطها باصابعهِ يتشاغل بها عن هواجسهِ وخاتم الخلافة في احدى اصابعها وفي يدهِ اليمنى قضيب الخلافة . وكان قد نزع العمامة عن رأسهِ حتى بانت صلعتهُ [2] وسمعت في بعض جوانب الغرفة رجلاً يقرأُ القرآن ولم تروهُ . ورأَت بين يدي الخليفة جماعة من بني امية لم تعرفهم ثم سمعت وقع اقدام عند باب المجلس واذا بعثمان قد همَّ بالعمامة فجعلها على رأسهِ ووقف لاستقبال القادمين وهو اكرام خصوصيٌّ . فكان اول من دخل منهم علي بن ابي طالب وحيَّا عثمان بتحية الخلافة قائلاً السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاتهُ [3] . ثم دخل بعدهُ رجل مربوع الى القصر اقرب رحب الصدر عريض المنكبين اذا التفت التفت جميعًا ضخم القدمين حسن الوجه ابيضهُ مشرب بالحمرة كثير الشعر ليس بالجعد القطط ولا بالسبط وقد شاب شعرهُ فلم يصبغهُ فرأَتهُ

(١) العقد الفريد (٢) الاغاني جزء ١٥ (٣) صناجة الطرب

حيًا وجلس بجانب علي فالتفتت الى نائلة وسألتها عنهُ فقالت انهُ طلحة بن عبيد الله (١)

ثم دخل في اثرهما رجل اسمر اللون خفيف اللحية معتدل العضل . فقالت اسماء ومن هذا قالت هذا هو الزبير بن العوام (٢) ولما استتب بهم الجلوس قالت نائلة اجلسي يا ابنتي لنسمع ما يدور بينهم فعسام ان يكونوا قد جاؤُا لخير

فجلستا وهما تريان وتسمعان ولا يراهما احدٌ

الفصل السادس عشر

الشورى

فجلسوا برهة لا ينطق احدٌ بكلمة ثم بدأَ عليٌّ بالكلام قائلاً « اندري لاي شيء جئناكَ يا امير المؤْمنين »

قال عثمان « الله اعلم »

قال « يعلم الله اننا انما جئنا نريد بك خيرًا انك يا امير المؤْمنين ابن عمّ الرسول الاعلى وقد تزوجت باثنتين من بناتهِ (صلعم) وتلك كرامة لم يحزها احد سواك وانت يا اباعبد الله من السابقين الاولين وقد صليتَ الى القبلتين وهاجرت الهجرتين وانت اول من هاجر الى الحبشة وقد قال الرسول (صلعم) بيدهِ اليمنى هذه يد عثمان . وتوليتَ الكتابة لهُ وجمعت القرآن . فانت يا امير المؤْمنين من خيرة الصحابة وقد توفي رسول الله (صلعم) وهو عنك راض وبشرك بالجنة (٣) فلا نرضى ان تكون الأُمة ناقمة عليك حتى يهموا بخلعك وقتلك ونحن نعلم انهم اذا تمكنوا من ذلك كانت الفتنة نعوذ بالله منها فتنقسم الأُمة وتكون العاقبة وبالاً عليها » وكان عليٌّ يتكلم وعثمان مطرق يقلب في صفحات القرآن

فلما اتمّ عليٌّ كلامهُ رفع عثمان رأْسهُ وقال « اني عالم بكل ذلك يا ابا الحسن ولكن بمَ يقتلونني وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول لا يحلُّ دم امرءٍ مسلم الا باحدى ثلاث رجل كفر بعد اسلام او زنى بعد احصان او قتل نفس بغير حق فانا لم افعل

(١) اسد الغابة (٢) اسد الغابة (٣) القزويني

شيئاً من ذلك ولكنني اتقدم اليكم ان تشيروا عليّ »

فقال عليّ « نرى ان تخاطب الناس فانهم قد هاجوا واحاطوا بدارك ناقمين فقُم اليهم وعِدهم خيراً »

قال عثمان « لقد طالما وعدتهم وطأ نتهم فلم يرضوا »

قال عليّ « لقد وعدتهم ثم اخلفت ولا نعدُّ ذلك اخلافاً منك ولكنك اصغيت لابن عمك مروان وهو غلام لا يفقه شيئاً فاذا نحن خرجنا من بين يديك جاءك واعظمَ استرضاءك المسلمين وقد فاتهُ ان في استرضائهم قطع دابر الفتنة فقم اليهم وخاطبهم »

وكانت اسماء تسمع كلامهما فاستحسنت انصياع عثمان واستبشرت بانفراج الازمة فلما سمعت ذكر مروان اقشعر بدنها

اما عثمان فقال « اني اقوم واخاطبهم ولا يصعب عليّ ذلك ولكنني اود معرفة السبب الذي حملهم على هذه الثورة فاخبروني بهِ فاذا كنت مخطئاً استغفرت واذعنت »

فابتدره الزبير قائلاً « هم يقولون انك استأثرت بالامارة واستخدمتها لمنفعة اقاربك وجمع الاموال والاستكثار من المماليك والضياع فانك تملك نحو مئة الف وخمسين الف دينار والف الف درهم نقوداً ومثلها من الضياع وقد اقتنيت الخيل والابل والمماليك وقد كان الفاروق (عمر بن الخطاب) يرقع ثوبهُ بالجلد وهذا عليّ ابن عم الرسول (صلعم) يقول يا بيضاء ويا صفراء غرّي غيري

فالتفت عثمان الى الزبير وقد نشط كأنهُ شعر بان الحق في جانبهِ وقال « أأنت تقول ذلك يا ابن العوام اتحسبون حشد الاموال ذنباً يستوجب القتل ونحن فيهِ سواء ألم تستكثر انت من الاموال الا تملك خمسين الف دينار والف فرس والف عبد والف أمة ماعدا الدور والضياع وهذا طلحة ايضاً فان غلتهُ من العراق الف دينار في اليوم ولهُ الف بعير وعشرة آلاف من الغنم وهذه دارهُ في الكوفة وتسمى الكناس [1]

وهذا زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة عندهم الاموال الوافرة العلكم ورثتموها عن آبائكم ام هي مالٌ حلال لنا جميعاً وقد غنمناها في الجهاد بنعمة الاسلام

---

(١) المسعودي

ثم وجه عثمان خطابه الى الجميع وقال

« ألم نكن نعرف بعضنا بعضاً في الجاهلية وقد كنّا نسكن ارضاً غير ذات زرع ولا ضرع ألم يكن فينا اناسٌ يأكلون العقارب والخنافس ويفاخرون باكل وبر الابل يموهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه . فلما انارنا الله بالاسلام واجتمعت عصبية العرب على الدين وطلبنا ما كتب الله لنا من الارض بوعد الصدق فابتززنا ملكهم [1] واستبحنا دنياهم . اليس ذلك مالاً حلالاً لنا فكيف نستوجب القتل والخلع عليه . واما اعالتي اقاربي فقد كان رسول الله (صلعم) يعطي قرابته . ولكنني اراكم قد غرّتكم مقالة ابن سبا . . . . » قال ذلك وقد أخذ منه التأثر مأخذاً عظيماً حتى رقصت لحيته

فلما سمع عليٌّ مقالته اغضى عن الجواب عن مسألة ابن سبا لانها تتعلق به مخافة ان تسبب نفوراً ولكنه قال « يخال لي يا اباعبدالله ان سبب هذه الفتنة انما هو ما ذكرتَ من استكثار المال فانه يفرّق بين الاب وابنه وهذا ما حملني على كرهه حتى قلت (يا صفراء ويا بيضاء غرّي غيري) فها انها قد غرّتكم ولكن مالنا ولهذا الجدال فقد جئنا نلتمس حسم الخلاف وهو لا يكون الاّ بمخاطبة هؤلاء الناس المحيطين بهذه الدار ولا آمن ان يجيء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول يا عليُّ اركب اليهم فان لم افعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك » [2]

فقال عثمان « اني اوّل من اتعظ ولا احبُّ ان يهريق بسببي محجب من الدم » قال ذلك ونهض وهو يصلح عمامته ويمكّن برده على كتفيه والقضيب بيده وخرج من الغرفة وتبعه علي ورفاقه . فقالت نائلة لاسماء نحمد الله ان الامر قد قضي

قالت اسماء بورك بعليٍّ فان به صلاح هذه الامة ولكنني احب ان اسمع الخليفة يتكلم

قالت اتبعيني ان في غرفتي نافذة تطلُّ على المكان الذي سيقف به امير المؤمنين

فنهضتا ولبثتا برهة ريثما خرج الناس وخرجتا الى غرفة نائلة وأطلتا من النافذة بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما احد . فرأتا عثمان قد أشرف على الجموع فلما رآه الناس علا ضجيجهم ونظروا اليه فقال وصوته يتلجلج « ايها الناس اني اول من اتعظ . استغفر الله مما فعلت واتوب اليه فمثلي من نزع وتاب . فاذا نزلتُ فليأتني اشرافكم فليروا فيّ

(١) ابن خلدون (٢) ابن الاثير

رأيهم فوالله لئن ردّني الحق عبدًا لأستنّ بسنّة العبد ولاذلنّ ذل العبد وما عن الله مذهب الاّ اليهِ · فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحّين مروان وذويهِ ولا احتجب عنكم »

ولم يتم كلامهُ حتى اختنق صوتهُ وترقرقت الدموع في عينيهِ وبكى كل من سمعهُ وكانت نائلة واسماء اكثرهم بكاء · ولكن نائلة حمدت الله على انفراج الازمة وتحولت هي واسماء عن النافذة

الفصل السابع عشر

اسماء ومروان وعثمان

وفيما هما تتحولان سمعتا وقع اقدام قادمة نحو الغرفة ثم رأتا عثمان داخلاً وقد امتقع لونهُ وهاجت عواطفهُ فلما رأتهُ اسماء همّت بالخروج حياء فدعتها نائلة للسلام عليهِ فتقدمت اليهِ وهي مطرقة اجلالاً لمقامهِ وهمّت بتقبيل يديهِ فحيّاها وهو ينظر الى جمالها وهيبتها ثم نظر الى نائلة نظر مستفهم

فقالت نائلة انها ضيفة عندي يا امير المؤْمنين واحمدُ الله ان قدومها كان خيرًا فقد حلّ المشكل · فتنهد وهو يبحث عن وسادة يجلس عليها فلما جلس دعاهما للجلوس فجلستا وهو لا يزال يتفرّس في اسماء وقد استغرب لباسها الاسود ثم قال ما لي اراها سوداء الثياب

قالت لانها فقدت والدها بالامس وهي قادمة من الشام فنزلت عند جيراننا بني حزم مع والدها

قال ومن هو والدها

قالت هو يزيد الذي جاءنا منذ ايام

فنظر اليها وابتسم ابتسامًا لم يغير شيئًا من مظاهر اضطرابهِ وقال « لقد جئت اهلاً ووطئت سهلاً عزّاك الله على مصابك »

فقالت اسماء ان من كان بجوار امير المؤْمنين لا يحتاج الى تعزية

فاعجبهُ حسن اسلوبها وقال وماذا يتعاطى والدك

قالت لا يتعاطى شيئًا يا مولاي

قال سننظر في ما ينفعهُ . ولم يتم عثمان كلامهُ حتى دخل مروان بغتة بلا استئذان ومعهُ جماعة من شبان بني امية فلما رأتهُ اسماء اجفلت وانقبضت نفسها و ودّت الخروج ولكنها استحيت من عثمان فانزوت في بعض جوانب الغرفة

اما مروان فانهُ دخل والسيف يجرُّ وراءهُ وقد ارخى رداءهُ تيهًا وعجبًا حتى اذا اقترب من الخليفة جلس الى جانبهِ وحياهُ تحية الخلافة ثم حياه رفاقهُ وجلسوا وهم سكوت وعثمان ساكت . فلاحت من مروان التفاتة الى جانب الغرفة فرأى اسماء جالسة هناك فسرَّ لتقربها من نائلة املاً بان تصغي لنصيحتها فترضى بهِ فاحبَّ ان يبين لها نفوذه لدى الخليفة لعلهُ ينال حظوة في عينيها فنظر الى عثمان وقال « يا امير المؤمنين اتكلمُ ام اسكت »

فابتدرتهُ نائلة قائلة « لا بل اصمت فانهم والله قاتلوهُ ومؤثموهُ انهُ قد قال مقالة لا ينبغي ان ينزع عنها »

فحملق مروان فيها وقال « ما انتِ وذاك فوالله قد مات ابوكِ وهو لا يحسن يتوضأ »

فقالت « مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء . تخبر عن ابي وهو غائب تكذب عليهِ وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسهِ . اما والله لولا انهُ عمهُ (عم الخليفة) وانهُ ينالهُ غمهُ لأخبرتك عنهُ ما لن اكذب عليهِ » (١)

وكانت اسماء تسمع كلامها وهي تكاد تميز من الغيظ ولكنها احترمت المقام وخافت ان تجيبها عثمان فصبّرت نفسها لتسمع ماذا يريد ان يقول

أما مروان فاعرض عن نائلة مخافة ان تزيدهُ تعنيفًا ونظر الى عثمان فقال « يا امير المؤمنين اتكلم ام اسكت »

قال تكلم

فقال « بأبي انت وامي والله لوددت ان مقالتك هذه التي قلتها اليوم على مسمع من المسلمين كانت وانت ممتنعٌ فكنتُ اول من رضي بها واعان عليها . ولكنك قلتَ ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين وبلغ السيل الزبى وحين اعطى الخطة الذليلة الذليل

(١) ابن الاثير

والله لاقامةٌ على خطيئة ويُستغفر منها اجملُ من توبة يخوَّف عليها . وانتَ ان شئتَ تقربت بالتوبة ولم تقربت بالخطيئة وقد اجتمع بالباب امثال الجبال من الناس [1] يريدون ان ينزعوا ملكنا من ايدينا »

وكان عثمان يسمع مقالة مروان وهو مطرقٌ يفكر واسماء تراقب حركاته وهي تخاف ان يصغي لقول مروان فآنست فيه اصغاء وشعرت ان الامر سيعود الى اعظم ما كان فلم تعد تمالك عن الكلام فوقفت بقامة تخجل البان وقد زادها العبوس هيبة وخاطبت الخليفة قائلة « ايأذن امير المؤمنين لأمته بكلمة »

قال « قولي يا بنيَّة »

وكان مروان لما رآها حوَّل نظرهُ نحوها وهو يعجب لشجاعتها وتحوَّلت انظار جميع الحضور اليها ينتظرون ما تقوله

فلما أُذن لها بالكلام قالت « لا أنكر ان وقوفي بين يدي امير المؤمنين والتداخل في شؤُون امارته يعدُّ جسارة او تطفلاً ولكنني التمس لنفسي عذرًا انني انما وقفت لاقول كلمة في مصلحة مولاي الخليفة ولو أدَّى بي ذلك الى احتمال غضبه وتوبيخه . اني يا أمير المؤمنين ارى في الاصغاء لقول ابن عمك هذا ايقاظًا للفتنة بعد ان نامت ومدعاة للقتال وإثارة للحرب . فان تنازل امير المؤمنين لحسم الخلاف وحجب الدماء لا يحط من قدره . واما العمل بمشورة مروان فقد يأول الى شرّ عظيم »

فلما سمع مروان مقالها قهقه استخفافًا ولم يجبها ولكنه حول وجهه الى الخليفة وقال « كأن هذه الفتاة تريد ان يسمع امير المؤمنين لمشورة النساء وقد قيل انهن ناقصات العقول » . قال ذلك وأغرب في الضحك

فحمي غضب اسماء وثارت الحمية في رأسها وقالت « ان النساء مهما قيل في نقص عقولهنَّ فهنَّ اكمل عقلاً ممن يرى العبرة ولا يعتبر . لقد كفاك تغريرًا بامير المؤمنين واعلم ان الذين اشاروا عليه بما عمله انما هم نخبة المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول (صلعم) وليسوا ناقصي العقول »

وكانت نائلة تسمع كلام اسماء وقلبها يرقص طربًا ولكنها خافت من طيش مروان وتوقعت ان يغضب . فاذا به قد عاد الى الضحك وقال « لا تقول انهم ناقصو العقل

(1) ابن الاثير

ولكنهم مناظرونا على الحكم بريدون اذلالنا ومع ذلك فليس من شأنك المشورة على امير المؤمنين »

قالت « لم اقف في حضرتهِ الاَّ باذنهِ وليس لك ان ترد امرًا امر بهِ هو »

فحمي غضب مروان فوقف ويدهُ على قبضة حسامهِ وقال « والله اني ضاربك بحد هذا السيف فقاطعك نصفين »

فتبسمت اسماء باستخفاف ورفعت يدها وقد انحسر بعض كمها حتى بان ذلك المعصم المندمج وقالت وهي تشير اليهِ بسبابتها تهديدًا « لا تظنني اخاف حسامك اذا جردتهُ ولولا حرمة امير المؤمنين لقتلتك بسيفك فاحترم الخليفة واردد يدك عن قبضتهِ فما انا ممن يخاف السيوف . ولا يغرَّنك اني فتاة واذا اردتَ ان تعرف من انا فعليك بالنزال في ساحة الوغى »

فعجب الحضور لهذه الحماسة وبهتوا جميعًا لما سمعوهُ مما لم يكونوا يتوقعونهُ من صاحبة تلك الطلعة وذلك القد

أما مروان فخجل من توبيخها وكظم غيظهُ وتظاهر بالاستخفاف وعاد الى مجلسهِ ضاحكًا وهو يقول « لولا حرمة امير المؤمنين لعلمتك معنى النزال »

قالت « كان يجب عليك ان تحترم مجلس الامير قبل ان تقبض على الحسام وما رجوعك عن وقاحتك الاَّ جبن وخزي »

فهمَّ مروان بالوقوف ثانية وقد امتقع لونهُ وارتعشت انامله فامسكهُ عثمان بكمهِ واجلسهُ وهو يعجب لجرأة اسماء وقد اعجب بها كل السامعين . اما عثمان فجعل يدهُ على كتف مروان وقال لهُ « لم اكن اتوقع منك اطالة الجدال على هذه الصورة وكأَني بك اذا تركتك وشأنك جرَّدت السيف امامي !!! »

فخجل مروان وسكت وفي نفسهِ حزازت ونقمة

واشار عثمان الى نائلة فنهضت وامسكت اسماء وتحولت بها من الغرفة فخرجتا والناس يتبعون اسماء بابصارهم ويعجبون بما سمعوهُ وينظرون من ورائها الى لين قامتها واسترسال شعرها وثبات قدمها

فلما خلتا في غرفة اخرى همت بها نائلة وقبلتها والدموع ملء عينيها وقالت « بورك فيكِ يا اسماء والله انك قد شفيت غليلي من هذا الغلام ولكنني اعلمُ انهُ سيقنع الخليفة

ويحمله على الرجوع »

قالت فلنقف هنا لعلّنا نسمع ما يدور بينهما . فوقفنا فسمعنا مروان يقول له « مالنا ولاقوال النساء انالامر جلل ولا ادري اذا كنتَ قد قلتَ ما قلته عن اجبار»

قال عثمان « ومن هو الذي اجبرني عليه »

قال مروان « الا ترى في ذلك حطة لقدر بني امية كيف نستغفرهم على امر نرى لنا فيه الحق الواضح . الا تعلم يا امير المؤمنين ان بني امية تفاخر سائر قريش بل سائر العرب بخلافتك فكيف تقول ما قلته على مسمع من الالوف على اختلاف قبائلهم وبطونهم . فقد أذللتنا واشمتّ بنا الناس . ومن هم هؤلاء الذين اعتذرت لهم جهارًا ألم يخلعوا طاعتك لانك لم تؤثرهم على ذوي قرابتك ولانك لم تعزل اخاك عبد الله بن سعد عن مصر وتولي مكانه رجلاً يختارونه . هل كان لهؤلاء الواقفين على بابك الآن ان يقفوا موقفهم هذا بين يدي ابي بكر او عمر»

فتنفّس عثمان الصعداء تنفسًا سمعنا زفيرهُ فعلمنا انه قد ضاق ذرعًا مما تراكم عليه من الهواجس ثم قال « وما العمل اذًا »

قال مروان « العمل ان نبين لهم اننا لسنا بخائفين من كثرتهم »

قال عثمان « اما انا فلا اكلمهم لاني استحيي ان اقول ثم ارجع »

قال انا اخرج اليهم . قال ذلك وخرج

ولم يتم عثمان كلامهُ حتى سمعنا وقع اقدام مروان في الدار فتحولنا الى النافذة فرأيناه قد وقف حتى اشرف على الناس من فوق سور الدار وقال « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب شاهت الوجوه الى من اريد . جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا اخرجوا عنا والله لئن رمتمونا ليمرّنّ عليكم منا امر لا يسرُّكم ولا تحمدوا غب رأيكم ارجعوا الى منازلكم فانّا والله ما نحن بمغلوبين على ما في ايدينا » (1) فضج الناس حتى ملأ ضجيجهم الفضاء

فقالت اسماء في سرّها تبًا لك يا مروان وصاحت نائلة قبحك الله من غلام . انه والله سيقودنا الى شرّ ما نتوقعهُ . قالت ذلك ونحت عن النافذة واسماء تتبعها فاذا بجارية تناديها الى الخليفة فاعتذرت من اسماء ودخلت عليه

(1) ابن الاثير

فسارت اسماء توًّا الى غرفتها وهي تتوقع ان يأتيها مروان متهددًا او متقاً فدخلت الغرفة وهي لا تزال ترتعش من الغضب وعوّلت اذا جاءها مروان متهددًا ان تشدد النكير عليهِ واذا تطاول فتكت بهِ . واستحضرت خنجرًا كانت تتقلدهُ تحت اثوابها في الاسفار. ولم يكن والدها هناك

الفصل الثامن عشر

اسماء ومحمد ومروان

فأغلقت اسماء الباب وجلست على السرير وهي تتأمل في ما مرَّ بها في ذينك اليومين من انواع الغرائب . فتصوَّرت والدتها وحنوَّها وتذكرت كيف كانت تشكو اليها همّها في مثل تلك الحال فغلب الحزن عليها حتى بكتْ . وفيما هي في ذلك سمعت مشيًا امام باب غرفتها فاجفلت وافتقدت الخنجر وتحفزت للوقوف وقد نسيت حزنها ولبثت هنيهة فلم تسمع صوتًا فظنت ما سمعتهُ وقع اقدام مارٍّ امام الباب . ثم سمعت نقرًا على الباب فوثبت اليهِ وفتحتهُ وقد تهيأَت للقاء مروان . فاذا في الباب محمد بن ابي بكر فبغتت وغلب عليها الحياء . واختلط حياؤها بامارات البغتة فزاد وجهها هيبةً وجلالاً

أما محمد فلما رآها على تلك الحال ابتدرها قائلاً ما بالك يا اسماء ما الذي اخافك فغالطتهُ وحيتهُ ولم تجبهُ على سؤالهِ

فردَّ عليها التحية ومد يدهُ فسلم عليها وشعر عند لمس يدها ببرد اناملها وارتعاشها فقال ما بالكِ ترتعشين وانت وحدك . قال ذلك وهو ينظر الى جوانب الغرفة لعلهُ يرى احدًا هناك فلم يجد فازداد تعجبًا

اما هي فتجلَّدت وقالت لا شيءَ يخيفني يا محمد وانا في حمى ابي الحسن

قال لقد صدقتِ ولكنني اراك في اضطراب وهياج كأَنك كنتِ تخاصمين احدًا ام انت ترتعدين لقدومي على غرة وانا انما فعلت ذلك طوعًا لامر علي فانهُ ارسلني لافتقدك لعلك تحتاجين الى امرٍ

قالت بورك فيهِ وفيك واشكر عنايتكما بي فاني بحمد الله في خيرٍ وعافية ادعو لسيدي ابي الحسن بطول البقاء . قالت ذلك وجلست الى السرير

أما هو فودَّ ان يمكث عندها ولكنهُ خاف ان تستهجن ذلك منهُ لخلو المكان من الناس فقال « وابن والدك »

فتنهدت وقالت لا ادري ابن هو الآن

فقال ما بالك تتنهدين يا اسماء اني اراك تكتمين امرًا هامًا

قالت لا اكتم شيئًا ولكنني .... وسكتتْ قال ولكنك ماذا . قولي

قالت لا أدري ماذا اقول وانا لا انظر اليك الاَّ وذكرتُ والدتي المسكينة التي ذكرتْ اسمك وهي على فراش الموت . قالت اسماء ذلك وترقرقت الدموع في عينيها

فلما رأى محمد دموعها انفطر قلبهُ لها وامسكها بيدهِ وجوارحهُ تختلج وقال « رحم الله تلك الوالدة فاني ما برحتُ منذ رأيتها وانا في شاغل لا يهدأ لي بال قلقًا عليك وقد كان يجب عليَّ انا افتقدك قبل الآن ولكن الشواغل الحاضرة حالت بيني وبين ما اريد فان امر هذا الخليفة قد حيَّرنا وشغل بالنا فلا نكاد نرتق فتقًا حتى ينفتق غيرهُ

وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق نصف انغلاق فلم يتم محمد كلامهُ حتى رأى مروان داخلاً وملامح الغضب تلوح على وجهه وقد حمل سيفهُ بيساره فلما رآه محمد على تلك الحال توسم الغدر في عينيهِ فنظر اليهِ شذرًا ولم يعبأ بهِ

اما مروان فقال وقد علاه الاصفرار والبغتة « ما الذي جاء بكَ الى هذا المكان يا ابن ابي بكر » . فقال محمد « ما شأْنك وهذا السؤَال وما انا في منزلك »

قال « بلى انك في دار الخليفة وقد دخلت على نسائنا بلا استئذان »

فاستغرب محمد قولهُ ونظر الى اسماء كأَنهُ يستفتيها بمغزى تلك العبارة فاذا هي تقول بقلب لايهاب الموت

« ان مروان يتكلم من عند نفسهِ في ما لا ينالهُ باعهُ ولو مهما تطاول »

فابتسم مروان ابتسام الاستخفاف وقد تعاظم غيظهُ وقال « سلي والدكِ اذا كان باعي ينالك ام لا »

قالت « دع الآباء وارجع من حيث اتيت والاَّ اسمعتكَ ما لا يرضيك »

فضحك مروان وتوكأَ بيدهِ على سيفهِ وقال وبيدهُ الاخرى على شاربيهِ « اراكِ تغررين بنفسك كأَنك نسيت ما نالك في حضرة الخليفة الا تعلمين انكِ اذا بقيتِ على غرورك ندمتِ حين لا ينفعك الندم »

فاستغرب محمد ذلك الجدال ولكنهُ ادرك ما في نفس مروان فاتقدت في قلبهِ نار الغيرة وعظمُ عليهِ ذلك التطاول وهمَّ بمروان يريد ضربهُ فاعترضت اسماء بينهما وقالت « دعهُ يا محمد لأرى ما هو فاعل » قالت ذلك وتقدمت الى مروان ويدها على خنجرها كأَنها تهمُّ باستلالهِ وقد اقطبت حاجبيها وحمي غضبها حتى كاد الشرر يتطاير من عينيها فاندهل محمد لتلك الشجاعة ولم يكن يعهد مثل ذلك في النساء فأَراد ان يقف بينها وبين مروان فلم تمكنهُ من ذلك

اما مروان فلما رأى ما كان من اسماء وادرك ان محمدًا منجدها خاف العاقبة وكان قد قبض على حسامهِ فرفع يدهُ عن قبضتهِ وتظاهر بالضحك ومدَّ يدهُ يريد ان يمسك يد اسماء ويخاطبها فجذبت يدها وقالت « اسلل حسامك وأَرني شجاعتك وهذا ابن ابي بكر شاهد على المغلوب منا »

فقال مروان انظنين اني اجرد حسامي على فتاة اما دواؤك يا اسماء فهو عندي . قال ذلك وخرج متظاهرًا بالغضب وهو انما خرج خائفًا كاظمًا وعوَّل على الفتك باسماء غيلة

أَما محمد فلما خرج مروان نظر الى اسماء فاذا هي قد علت وجهها مهابة اعاظم الابطال وذهب عنها ذل الحزن وضعف النساء فأَعجب بما خصها بهِ الخالق من الهيبة والانفة فأَمسكها بيدها وارجعها الى السرير قائلاً بورك بشهامتك يا اسماء ولكنني اراك قد اهتممت بهذا الشاب اكثر ما يستحق فاتركيهِ وشأْنهُ

قالت وهي تحاول تخفيف غضبها « اني لا ابالي بشقشقتهِ والله لو انهُ حمل عليَّ بمئة رجل مثلهُ ما حسبت لهم حسابًا »

قال مالكِ وللاقامة في هذا المكان اذًا تعالي نذهب معًا الى منزل علي فتقيمين ضيفة مكرمة

فقالت « أَتريد يا محمد ان افرَّ من هذا المكان كلاَّ وتربة والدتي لا ازال مقيمة هنا حتى ارى ما يكون من امر هذا الغلام الغر »

قال أَتحسبين ذلك فرارًا

قالت نعم فدعني اقيم هنا لأَرى ما يكون من امرهِ

قال وما يهمك منهُ دعيهِ وشأْنهُ

قالت يهمني طيشة الذي وسع الخرق واغضب المسلمين على الخليفة ولولا حماقته لانحلّ المشكل وخلص الناس من الفتنة

فتحير محمد كيف يخرج بها من ذلك المنزل وقد همه بقاؤها هناك غيرةً عليها فأحب ان يستطلع العلاقة بينها و بين مروان فقال وما الذي جعل له هذه الدالة عليك هل تعرفينه قبل اليوم

فتنهدت وقد تذكرت حديثها وقالت وهي تتذمر « انا عرفناه من الشام وقد رافقنا بسفرتنا المشومة الى قباء ثم دخل المدينة قبلنا وهو الذي كان السبب في موت والدتي قبل وصول علي »

فتعجب محمد وقال وكيف سبّب ذلك التأخير

قالت ان حديثنا يا محمد طويل يحتاج الى شرح ولكنني اقول بالاختصار ان هذا الشاب قد رافقنا من الشام لمطمع كان في نفسه يقصر عن ان يناله ولولا ضعف والدي وانحيازه له لما استطاع المسير معنا خطوة ولكن .....

فقال واي مطمع

فلم تجب كأن الضعف والحياء قد عادا اليها فأطرقت صامتة

ففهم محمد مرادها فازداد بغضاً لمروان وغيرة على اسماء ولم يعد يصبر على بقائها هناك وحدها ونظرًا لما يعلمه من نفوذ مروان لدى الخليفة خاف ان يوسطه في اقناعها او استرضائها فتقبل هي به ولو كرهًا ولما تصوّر محمد ذلك احسّ بنيران هبّت في بدنه وازداد رغبة في خلع عثمان او قتله . فصمت برهة يفكر ثم قال وهو يريد ان يزيدها كرهًا واحتقارًا لمروان « اني اعرف عن هذا الغلام ما لا يعرفه سواي فقد سمعت من اختي ام المؤمنين (عائشة زوج النبي) ان النبي (صلعم) لعنه وهو في صلب ابيه فقال لابيه الحكم بن العاص « و يل لامتي مما في صلب هذا » [1] فماذا ترجين منه بعد ذلك فاصغي لقولي وتعالي معي فتتخلص من وقاحته »

قالت اما الآن فلا اخرج من هنا لان في خروجي عارًا ولكنني ربما خرجت في فرصة اخرى

فبهت محمد وهو يودّ ان يبثها ما خالج قلبه من حبها و يستطلع ضميرها ولكن الحياء

(١) السيرة الحلبية

والهيبة منعاهُ عن ذلك فظلَّ برهة صامتًا وهو لا يزال واقفًا بازاء السرير وامامه جالسة مطرقة وقد خالج ضميرها مثل ما خالج ضميرهُ وهي اكثر حياء منهُ فظلت صامتة تنتظر ان يفتح هو الحديث

الفصل التاسع عشر

يزيد

فقال محمد اني لا ارى عارًا في خروجك من هذا المكان الى منزل علي وهو الذي كلفني بذلك ولا اخفي عنك ان الامر واقع على الخليفة فهو لن ينجو من الخلع او القتل وخصوصًا اذا ظل مصغيًا لمشورة مروان فهيَّا بنا

فهمّت في الجواب ولم تكد تفعل حتى سمعت سعال والدها ثم رأياهُ دخل بغتةً وقد عاد من سفر قريب فلما رآه محمد بغت ونفر من رؤيتهِ لانهُ لم يكن يحسن الظن فيهِ اما يزيد فحالما رأى محمدًا تقدم اليهِ وحيَّاهُ وتظاهر بالترحاب وسألهُ عن علي . فاجابهُ محمد بمثل سؤالهِ

فقال يزيد كيف مولانا ابو الحسن

قال هو في خير

قال ألا ينوي الخروج الى الحج فقد آن اوانهُ (١) وارى الناس يتأهبون لهُ

قال لا اظنهُ يستطيع ذلك هذا العام

فقالت أسماء ولماذا

قال لان خروجه من المدينة قد يوجب ارتباكًا لما تعلمين من اختلال الاحوال ولكنهُ دعاني ان احج ودعتني شقيقتي ام المؤمنين ان اخرج معها الى الحج ولا اظلني خارجًا (٢)

قالت ولماذا

فلم يجب ولكنهُ اشار بملامح وجههِ انهُ لا يرتاح بالهُ في الخروج من المدينة طالما كانت هي في ذلك المكان على تلك الحال

(١) ابن خلدون وغيره (٢) ابن الاثير

فادركت اسماء انهُ يحبها ويغار عليها ولكنها تجاهلت مخافة ان يدرك والدها شيئًا من ذلك

أما محمد فخاطب يزيدًا قائلاً . لقد جئتكم مندوبًا من مولاي ابي الحسن ادعوكما للنزول عنده اذا كنتما تريان في الاقامة هنا تعبًا لجواركم من بيت الخليفة والناس محيطون به كما ترون

فقال يزيد لا اظن علينا بأسًا هنا وقد فضّ الخلاف على ما سمعت

فابتدرته اسماء قائلة كيف ينفضّ الخلاف وصديقك مروان واقف بالمرصاد

قال وما الذي فعله

قالت بعد ان رضي الخليفة باسترضاء الثائرين واستعطافهم حرّضهُ مروان على الرجوع فعاد الامر كما كان عليهِ واظن محمدًا اعلم منا بما ينوون لانهُ قادم من بينهم

فهزّ محمد رأسهُ وقال نعم ان كلام مروان في صباح هذا اليوم قد وسع الخرق حتى استفحل الخطب ولم يعد تلافيهِ ممكنًا وهذا ما خوّفني عليكما لقربكما من الخطر

قال يزيد وما ذا ينوون

قال اذا لم ينل هؤلاء الناس ما يرجونهُ لا ادري ما تكون النتيجة كفانا الله شرَّ الفتنة

قال والخبث والرياء ظاهران على وجههِ اراهم تعصبوا عليهِ بغير حق وهم انما جاؤوه يلتمسون الدنيا وفيهم من حقد عليهِ لمغنمٍ فاتهُ بعدلهِ وآخرون لحديث سمعوه من واشٍ مبغض وغيرهم لغير ذلك ولكنهم جاؤوا يدّعون الغيرة على الاسلام

قال محمد (وقد أنف من جدالهِ) « كلٌّ يعرف ما نواه » وسكت برهة . ثم قال والآن ألا تخرجان معي الى منزل علي قال يزيد لا نرى ثمَّ حاجة الى ذلك الآن

فنهض محمد وودعهما وخرج وفي نفسهِ حزازات وحقدٌ على مروان وخاف من عثمان اذا بقي على منصة الخلافة ان يكون عونًا لمروان في استرضاء اسماء

اما هي فلم يكد يتوارى محمد حتى ندمت على بقائها هناك ولكن انفتها لم تكن تأذن لها بالخروج في تلك الحال

الفصل العشرون

الحيلة

اما يزيد فاستيقظ وسواسهُ لما رأى من اختلاء محمد بابنتهِ واصبح يخاف عليها منهُ اذا جاءها مرة اخرى ففكر في حيلة تنجيهِ من ذلك فاحبَّ ان يبغضهُ اليها فقال «اری محمدًا من جملة الناقمين على الخليفة ولكنني لا اظنك تعلمين سبب نقمتهِ»

قالت وما ذلك

قال قد علمت عن ثقة انهُ كان طامعًا في ولاية مصر وعليها عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخو الخليفة من الرضاعة فلما لم يؤثره الخليفة على اخيهِ نقم عليهِ . وقد بلغني انهُ كان قد ولاهُ مصر ووجَّههُ اليها ثم رجع عن عزمهِ وارجعهُ عن الطريق (١) فعاد ناقمًا وهكذا شأن اكثر هؤلاء الناقمين وقد رأيتني لمحت لهُ بذلك فلم يجب

.. فاستنكفت اسماء من الطعن بمحمد وهي تشعر بانعطاف نحوهِ وميل شديد اليهِ فسكتت . وفكر يزيد بعد ذلك في ما يأمن بهِ خروج اسماء الى عليٍّ فلم يرَ خيرًا من ان يدخلها منزل الخليفة تقيم فيهِ محجورة . فتركها في الغرفة وقصد نائلة وترامى على اقدامها وبكى

فقالت ما يبكيك يا ابا اسماء

قال يبكيني يا سيدتي حال ابنتي من الحزن والنوح على فقد والدها وهي وحيدتي فلا آمن اذا بقيت مقيمة وحدها ان تصاب بجنون وكثيرًا ما اراها تهمُّ بالخروج الى مدفن والدها في قباء للندب والبكاء فامنعها بالحسنى فلا تمتنع ولا يخفى على مولاتي عاقبة الاحزان وابنتي كما تعلمين فتاة صغيرة لا تعلم من احوال الدنيا شيئًا . قال ذلك وشرق بدموعهِ مكرًا وخداعًا .

فقالت نائلة وما ذا ترى ان نعمل بها

قال ارى ان تكون عندك وتحت جناحك

فسرَّت نائلة بذلك الرأي لانها استأنست باسماء .وارتاحت لحديثها واعجبت بشهامتها . فقالت لك عليَّ ذلك فأتِ بها الينا

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه

قال اخاف اذا انا حملتها على المجيء ان لا تطيعني لفرط حزنها ولانها اصبحت بعد هذه المصيبة التي داهمتنا نسيء الظن بي وقد تعترضني في كل عمل اعمله وانا ارفق بها واسايرها مراعاة لعواطفها فاذا رأيتِ ان تدعيها انت كانت اطوع لك

قالت اني فاعلة ذلك حبًّا وكرامة وهمّت بالنهوض والمسير اليها

فابتدرها يزيد قائلاً وانقدم اليك يا مولاتي اذا اقامت عندك ان لا تأذني لها بالذهاب من منزلك قط لانها قد تحتال في الخروج لغرض تدّعيه ولا يكون غرضها الاّ المسير الى قباء

قالت لن ترى سبيلاً الى الخروج . فودعها يزيد وخرج

اما اسماء فلما خلت بنفسها تذكرت مصائبها ومن اعظم تلك المصائب تسلط والدها القادر فحلا لها البكاء فاغلقت باب الغرفة واخذت تبكي وتندب سوء حظها . وفيما هي تبكي دخلت عليها نائلة فلما رأتها على تلك الحال تحققت قول والدها فهمّت بها وجعلت تقبلها وتعزيها وقالت لها ما بالك تبكين يا اسماء لقد بالغتِ في النحيب وقد عهدتك رابطة الجاش قوية الجنان وانت تعلمين ان لا فائدة من الحزن . فلم تزدد اسماء الاّ بكاء حتى هاجت اشجان نائلة لتذكرها حال زوجها والخطر المحدق به فبكت معها

فلما رأتها اسماء تبكي شكرت مشاركتها اياها بمصابها وشعرت بتعزية داخلية وقالت ما الذي يبكيك يا سيدتي وانت زوج الخليفة امير المؤمنين مالك رقاب المسلمين

فازدادت نائلة بكاء وقالت «كيف لا تعلمين سبب بكائي وقد شهدت بعينيك ما احاط بنا من البلاء بطيش ذلك الشاب الغر»

فانقبضت نفس اسماء عند الاشارة الى مروان وتنهدت تنهدًا عميقًا ولسان حالها يقول «ان ذلك الاحمق هو سبب بلائي انا ايضاً» ولكن الحياء منعها عن التكلم فظلت صامتة

اما نائلة فلما سكن روعها قالت الك يا اسماء واسطة تعزيني في هذه المشاق فاذا كنت تحبينني تعالي نقيم معًا في منزلنا

فأنسبت اسماء على ذلك التنازل وخيل لها ان حب نائلة قد يكون عونًا لها على

التخلص من مروان اذا وسط الخليفة في تنفيذ مأربه فقالت اني طوع ارادتك ياسيدتي لان الاقامة تحت جناحك شرف عظيم لمثلي

فوقفت نائلة واستنهضت اسماء فنهضت معها وسارتا الى بيت نائلة

الفصل الحادي والعشرون

التهديد

قضت اسماء بقية ذلك اليوم وهي تفكر تارة في مروان وطورًا في محمد وآونة في حالها مع والدها وقد ندمت في باطن سرها لانها لم تذهب مع محمد الى منزل عليّ على انها استأنست بنائلة وارتاحت الى مجالستها وكذلك نائلة فانها اتخذت اسماء تعزية لها في ضيقتها لما آنسته فيها من سداد الرأي وثبات الجاش وحسن الخلق وكانت قد ادركت نفورها من مروان وهي ليست اقل كرهًا له منها ولولا قرابته من الخليفة لقرعت له العصا واوقفته عند حده

ولما امسى المساء وتناولتا العشاء في غرفة المائدة والخدم والجواري وقوف بين ايديهما والاضطراب ظاهر على وجوههم على غير المعتاد

فلما فرغتا من الطعام وتحولتا الى حجرة الرقاد نادت نائلة قيّم الدار فسألته عمّا هنالك من الخبر فأنكر اولاً ثم قال ان مولانا الخليفة لم يذق طعامًا في هذا المساء وهو في اضطراب وارتباك شديدين

قالت وما الذي دعاه الى ذلك . قال التضييق ألم تنظري الى الناس حول الدار وعند الابواب فانهم قد حاصرونا ومنعوا الماء عنا

فبغتت نائلة وصاحت « وكيف يمنعوننا الماء قبحهم الله »

قال لقد منعوهُ يا سيدتي ونحن انما نستقي الآن ما بقي في الآنية من الامس ولا ندري اذا طال الحصار كيف نستقي . وهذا هو الامر الذي دعا مولاي امير المؤمنين الى القلق

فلطمت نائلة كفًا بكفٍ وصاحت ويلاه كيف يمنعون الماء عن امير المؤمنين ان عملهم هذا لا يشبه عمل المسلمين ولا الكافرين

فقالت اسماء لا يسوءكِ ذلك يا خالة اني ضامنة لك الاستقاء ولو منها بالـغ

هؤلاء في الحصار

قالت نائلة وكيف تستطيعين ذلك

قالت يسهل الامر بأن يُحمل الماء الى بيت جيرانكم آل حزم ونحن ننقلهُ سرًّا الى هذه الدار (١).

فارتاحت نائلة لهذا الرأي ولكنها ما زالت خائفة عاقبة الحصار فصرفت القيّم وجلست الى اسماء وهي تتنهّد وتتأوّه واسماء تهوّن عليها . ولم تكد تجلس حتى سمعت جلبة ووقع اقدام في الدار فنهضت مسرعة ولحمها يترجرج لسمنها ولم تكد تفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تزمّل بعباءته وتقلد سلاحهُ كأنهُ تأهب لسفر فلما رآها سلم عليها وتقدّم نحوها فاستعاذت بالله من رؤيته وقالت ما الذي جاء بك يا مروان

قال اني سائر في مهمة وقد جئت لوداعك . وهل تلك الفتاة الدمشقية عندكم

قالت هي عندي وما غرضك منها اذهب في مهمتك

قال بل اريد ان اراها قبل سفري . قال ذلك ودخل الغرفة فلما رأتهُ اسماء اجفلت ولكنها لبثت صامتة لا تحرّك فقال لها وهو يضحك « الا تزالين على قولك في منازلتي يا اسماء »

قالت وهي لا تزال جالسة لا تعبأُ بقوله « لو كنتَ رجلاً حرًّا لنازلتني لما دعوتك للنزال »

قال لو لم يطرأ عليّ السفر المستعجل لعلمتك كيف تؤكل الكتف وافهمتك ان ابن ابي بكر لا يغني عنك شيئًا

فلما سمعت احتقاره لمحمد ثارت فيها الحمية وقالت « لا تذكر رجلاً في غيبته فاذا حضر سكتَّ ورجعت »

فاغرب في الضحك وقال سوف ترين وتسمعين ما تندمين عليه ندمًا لا يفيدك ولسوف يذوق هو مرارة الحرمان من منصب طمحت انظاره اليهِ فنقم من اجلهِ على امير المؤمنين وهاج المسلمين وحرّض على الفتنة

فارادت اسماء ان تجيبهُ فاشارت اليها نائلة ان تكفّ وقالت لمروان سافر يا ولدي لعل في السفر راحة لنا ولك انما لم نرَ في اقامتك خيرًا

---

(١) ابن الاثير

فضحك مروان وقد حوّل مرادها الى المزاح وامسكها بيدها حتى توارى عن اسماء وهمس في اذنها قائلاً « احتفظي بها فاني عائد قريباً لكتابة الكتاب لانها والله جميلة واراني احبها واغار عليها بالرغم عني ولا ارى بين بنات قريش اجمل منها ولا اكمل ولكنها لا تزال صغيرة السن لا تعرف مقام الرجال »

فتركته نائلة وتحولت الى الغرفة وهي تعجب لطيشه وتهوّره

فلما خلت باسماء عادت الى هواجسها وفكرت في ما هم فيه من الحصار فلم ترَ وسيلة لملافاة الفتنة الاّ بتوسط عليّ ولكنها تذكرت مقالته يوم اجتماعهم بالامس وتحذيره زوجها من اغراء مروان فتحققت انه لن يقدم لنصرته فصبرت نفسها لترى ما يأتي به الغد

اما اسماء فانها سرّت لخروج مروان من المدينة لعلها تتمكن في أثناء غيابه من وسيلة تصلح بها ما افسده

الفصل الثاني والعشرون

التحريض على السلام

وقضت اسماء في دار عثمان بضعة اسابيع على تلك الحال كانت في اثنائها تعزيةً كبرى لنائلة والدار محاطة بالرجال ليلاً ونهارًا وقد منعوا الماء عنها ولولا ما اشارت به اسماء من الاستقاء بواسطة آل حزم [1] لمات اهل الدار عطشًا

اما نائلة فلم تعد تستطيع صبرًا على تلك الحال فاصبحت ذات يوم وقد قضت ليلتها باكية لما تراكم عليها من الهواجس وما آنسته من اضطراب زوجها وقلقه وخوفه ففكرت في الامر طويلاً فلم ترَ خيرًا من استنجاد عليّ فشكت همّها سرًّا الى اسماء واستحثّت حميتها · فاستسهلت اسماء كل صعب في سبيل اخماد تلك الفتنة وانقاذ عثمان من عاقبتها · فقالت لنائلة اني عارضة عليك رأيًا ارجو ان توافقيني عليه

قالت وما هو

قالت ارى ان اسير انا الى عليّ ومروان غائبٌ واطلعه على جلية الواقع فلعله

(١) ابن خلدون

يسعى في اخماد الفتنة وهو رجل الخير و به صلاح هذه الامة

قالت لقد رأيتِ الصواب وإنك اذا فعلت ذلك تقلديني جميلاً لا انساهُ

قالت اني ذاهبة في مساء الليلة خفية والله وليُّ الامر

فلما كان الغروب تزمّلت بلباس الرجال وتقلدت الحسام تحت العباءة وغطت رأسها بالكوفية والعقال وخرجت من دار عثمان الى بيت بني حزم وخرجت منه تخترق الجموع وسارت تلتمس بيت علي

وكان عليٌّ جالسًا في بيتهِ بعد صلاة الغروب وعندهُ طلحة والزبير وامراء المسلمين القادمين من الامصار نقمةً على عثمان وكلهم يحرضون الناس على الانتقام ولكنها لم تجد محمد بن ابي بكر بينهم . وشاهدت في فناء البيت جماهير الناس من اهل مصر والكوفة والبصرة في ضجة وغوغاء . فوقفت في جملة الواقفين ولم ينتبه لها احد فسمعت الامراء يلغطون ويضجون وكلهم يقول بقتل عثمان اوخلعهِ وعليٌّ يخفف عنهم ويوبخهم على ما ارادوهُ من الشر وهو يقول « والله يا قوم لا ارى في مقتل هذا الخليفة الاَّ تعاظم الفتنة انكم والله ستخذلون على من يلي الخلافة بعدهُ فابقوهُ عليها خيرًا لكم »

فانشرح صدر اسماء لشهامة علي ودفاعهِ ولم تتمالك عن الدخول فدخلت وهي في ذلك اللباس ودنت من عليٍّ فنظر اليها وقد عجب لجرأتها وهو يحسبها من بعض الواقفين خارجًا . فنظر اليها مستفهماً والتفت الامراء اليها فكشفت عن وجهها فلما رآها عليٌّ عرفها فاستغرب دخولها وهاب منظرها وقد علاها الغضب وتجلَّت في وجهها المهابة . فقال اهلاً بفتاتنا ومرحبًا ما الذي جاء بك

فاستغرب الحضور كلامهُ لها وهم لا يعرفونها ولبثوا ينتظرون ما يبدو منها

اما هي فوقفت بين ايديهم بقلب لا يهاب الموت وقالت « اتسمحون لفتاة تقول كلمةً في مصلحة المسلمين وتكشف لكم القناع عن حقيقة الواقع بعد ان خبرت الامر بنفسها »

قال عليٌّ تكلمي يا بنيَّة

قالت اغلقوا هذا الباب وكفوا الناس عن السماع

فامر عليٌّ الجماهير ان يخرجوا من الدار واغلق الباب وامرها بالجلوس فاعتذرت بانها تفضل الوقوف بين يديهِ ثم قالت « يامعشر المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول انكم والله شاهدٌ اذا اردتم بامير المؤمنين شرًا لظالموهُ وهو بريءٌ لا يستوجب قتلاً او

خلعًا ولا اظنكم اذا قتلتموه او خلعتموه الاَّ نادمين ساعة لا ينفع الدم »

فاصغى الجميع وهم يعجبون لتلك الجسارة من فتاة حديثة السن بين يدي اعاظم الصحابة ولبثوا صامتين يسمعون ما تقول

فقالت « اما اذا شئتم اخماد الفتنة فاقتلعوا اصل الشر . اقتلوا مروان بن الحكم فانهُ سبب ذلك البلاء العظيم . ان الخليفة ايها الامراء بريءٌ مما يتقوَّلهُ الناس عنهُ وهو كما تعلمون من خيرة الصحابة شنوق رأُوف (١) وزد على ذلك انهُ اذعن واعتذر جهارًا على مسمع من المسلمين وكلكم سمعتموهُ . ولكن ابن عمهِ مروان ذلك الغلام الغرهو الذي يفعل ما يفعلهُ من عند نفسهِ فلا تقتلوا البريء بالمذنب . اقتلوا مروان بن الحكم فيستقيم الامر اما اذا اصاب الخليفة ضيمٌ فانتم المسئولون امام الديَّان العظيم . قد كفاكم انكم منعتم عنهُ الماء اربعين يومًا ولا يعلم ما يقاسيهِ من جراء ذلك الاَّ الذين يعاشرونهُ »

فبهت الجميع لفصاحة اسماء وثبات جاشها وجسارتها وجعلوا ينظرون بعضهم الى بعض وهم يعجبون

فالتفت عليٌّ اليهم وقال « هذا واللهِ ما اراهُ يا اصحاب رسول الله (صلعم) ان عثمان اذعن واستغفر ولولا ابن عمهِ لرقدت الفتنة وارى كلام هذه العذراء صوتًا من اصوات الملائكة »

فقال طلحة « ولكننا لم نال جهدًا في نصحهِ ليرجع عن مشورة ابن عمهِ وهو يصغي اليهِ ويعمل بقولهِ اما سمعت ما قالهُ مروان على مشهد من المسلمين »

فقال عليٌّ « وما ادراكم ان كلامهُ لم يكن من عند نفسهِ . يكفينا توبيخًا ونحن اصحاب الرسول (صلعم) ان تقف فينا البنات العذارى موقف الواعظين يحرضننا على العمل بسنة المسلمين . ومهما كان من صبركم ونصحكم فاني اكثركم صبرًا عليهِ ولقد نصحتهُ مرارًا وخرجت من مجلسهِ في آخر مرة وقد عاهدت نفسي ان لا اتوسط في امرهِ . ولكنني لما علمت بمنع الماء عنهُ ركبت مغلسًا الى محاصريهِ وهم وقوف على بابهِ ووبختهم وقلت لهم (يا أيها الناس ان هذا العمل لا يشبه امر المؤْمنين ولا الكافرين وإنما الاسير عند فارس والروم يطعم ويسقى) فلم القَ منهم مصغيًا » . ثم وجَّه كلامهُ الى اسماء وقال والحق يقال « ان كلاًّ من هؤُلاء الاصحاب قد دافع عنهُ وسعى في مصلحتهِ حتى ان

(١) الدميري

ام حبيبة زوج الرسول (صلعم) ركبت اليهِ بغلتها وحملت عليها وعاء فيهِ ماء وتظاهرت انها تريد ان تقابلهُ وتكلمهُ عن وصايا عندهُ لبني امية او تهلك اموال ايتامهم واراملهم فقالوا لا والله وضربوا بغلتها فنفرت وكادت تسقط عنها فذهب بها الناس الى بيتها [1] أما أنتِ فبورِكَ فيكِ يا بنية والله انك انما جئت لخير » ثم نظر الى من حولهُ ونادى الحسن والحسين ابنيهِ فجاءا فقال « اذهبا الى بيت امير المؤمنين ودافعا عنهُ بسلاحكما وارجعا الناس عن بابهِ وانت يا طلحة ارسل ابنك وانت يا زبير ارسل ابنك ايضاً » فنادى كل منهما ابنهُ . ثم قال عليٌّ « وابن محمد » . فقالوا واي محمد تعني

قال اعني « محمد بن ابي بكر ابن هو » فجعلوا يتساءلون عن مكانهِ فلم يعثر عليهِ احد فوقف عليٌّ وهز رأسهُ وقال « اني واللهِ خائف مما في نفس محمد على الخليفة » فعلمت اسماء ان محمداً حاقد على الخليفة انتقاماً من مروان فلبثت تنتظر ما يقال عنهُ لعلها تعرف مقرَّهُ . فلما لم يعثر عليهِ احد ثم قال علي لابنيهِ ولسائر ابناء الصحابة « سيروا بحراسة الله ولا تألوا جهداً في الدفاع عن حياة امير المؤمنين وردّ الناس عن بابهِ واذا رأيتم ابن ابي بكر انفذوهُ اليَّ اني والله خائف مما يضمرهُ »

فقال طلحة « اظنهُ حاقداً عليهِ منذ ارجعهُ عن ولاية مصر » [2] . فنظر عليٌّ الى طلحة ولم يجب . ففهم انهُ لا يريد ذكر ذلك . فسار ابناء الصحابة وقد هاج الناس وماجوا وكلهم يلتفت الى اسماء ليرى وجه التي تتكلم مثل ذلك الكلام . اما هي فتحولت من بين الجماهير وخرجت ولم يعد يراها احد

الفصل الثالث والعشرون

العقد المزوَّر

عادت اسماء وهي تفكر في محمد وخافت ان تكون غيرتهُ من مروان قد حملتهُ على الفتك بعثمان فعوَّلت على مراقبة ذلك وهي في دار عثمان فاذا تحققت ما ينويهِ

(١) ابن الاثير (٢) ابو الفداء

محمد وكان فيه اذًى لعثمان حوّلتهُ عن عزمهِ لانها اصبحت بعد سعيها في نجاة عثمان اكثر ضنًّا بجانبهِ من امرأتهِ نائلة

أما نائلة فمكثت في البيت بعد ذهاب اسماء وهي على مثل الجمر والليل قد سدل نقابهُ فجلست في غرفتها تنتظر عودتها وهي تضمر لها كل خير اذا جاءتها بالفرج وفيما هي تفكر في ذلك والغوغاء تتزايد حول الدار خطر لها ان تسير الى زوجها تستطلع حالهُ فخرجت الى الدار وتحولت الى غرفتهِ فرأت مروان خارجًا من عندهِ فاستعاذت بالله من روءيتهِ . اما هو فاعترضها قائلاً لا تدخلي على الخليفة انهُ في شاغل ارجعي الى غرفتك . قال ذلك وعلى وجههِ امارات الاضطراب . فلم تستطع نائلة معارضتهُ لانهُ كاتب الخليفة وحامل ختمهِ (١) فرجعت وهو يتبعها حتى وصلت غرفتها فدخل هو معها ونظر في جوانب الغرفة فلم يرَ اسماء فقال واين هي اسماء

قالت انها آتية قريبًا

قال ألعلها خرجت من هذه الدار

قالت لا ولكنها مشغولة في امر ولا تلبث ان تعود فاخبرني ما بال الخليفة وما الذي شغلهُ الآن

قال لم يشغلهُ شيء ولكنهُ يصلي منفردًا والقرآن بين يديهِ . فصدقتهُ نائلة وصمتت اما هو فكرّر السؤَال عن اسماء فقالت قلت لك انها قادمة قريبًا . فتركها ورجع

ولبثت هي تنتظر عود اسماء بفارغ الصبر مخافة ان يعلم مروان بخروجها فيحتال في ضررها . ولم تكد تجلس حتى سمعت ضجيجًا في صحن الدار فاطلّت من خلال الباب فرأت جمعًا داخلاً وفيهم الحسن والحسين وابناء الصحابة فخافت ان يكون في قدومهم شرٌّ ولكنها ما لبثت ان سمعت الحسن يخاطب اهل المنزل ويطيب خاطرهم وهو يقول لا تخافوا اننا جئنا للذب عن الخليفة . فادركت انهم انما جاؤُوا بمساعي اسماء . وبعد هنيهة رأت اسماء داخلة وهي لا تزال متنكرة فاستقبلتها باشةً واستطلعتها الخبر فطمأنتها ان الصحابة انما ارسلوا ابناءهم للدفاع عن الخليفة وارجاع الناس عن بابهِ (٢)

فسرّت نائلة وهدأ روعها وشعرت بفضل اسماء ورأت ان تسعى في انقاذها من مروان فاحتالت في الدخول على الخليفة فاذا هو جالس والقرآن بين يديهِ يقرأ

(١) ابو الفداء (٢) مروج الذهب

و يصلي صائمًا(١) ولا يلتفت يمينًا ولا شمالاً · فدنت منه بخفة فانتبه لها فقال ما الذي جاء بك يا نائلة · قالت انما جئت افتقد امير المؤمنين واطمئنة ان في الدار الحسن والحسين وسائر ابناء الصحابة وقد جاؤوا بعدّتهم وسلاحهم يدفعون الناس عن بابنا

فقال وهو لا يزال ينظر في صفحات القرآن « لا حاجة بي الى دفاع ولا اريد ان يهريق بسببي محجم من الدم » قال ذلك وعاد الى القراءة فعجبت نائلة ذلك وارادت ان تذكر اسماء لديه فلم ترَ سبيلاً الى ذكرها فعادت الى غرفتها وقضت تلك الليلة لم يغمض جفناها واسماء تعزيها وتشجعها ولولا ذلك لماتت قلقًا ورعبًا · وقد كانت تسمع الغوغاء حول الدار وعند بابها ولا تجرأ ان تطلّ

اما أسماء فلما علمت بعودة مروان من سفره تظاهرت بالذهاب الى الفراش لئلاّ تراه تلك الليلة وبات ابناء الصحابة في الدار سهارى تارة يتهددون الواقفين عند الباب وطورًا يتوعدونهم وكل اهل القصر في اضطراب وقلق الاّ عثمان فانه قضى ليلته يقرأ القرآن ويصلي

وفي الصباح التالي استيقظت اسماء على صوت مروان في غرفتها ونائلة جالسة الى جانبها فجلست في السرير واستعاذت بالله

فقال لها مروان « ما الذي خرج بك من هذه الدار »

فقالت « وما شأنك وخروجي او دخولي »

قال « كيف لا وانت امرأتي وقد كُتب كتابك عليّ »

فأجفلت اسماء ايما اجفال وصاحت « خسئتَ يا نذل الرجال اني لا اعرفك ولا اريد ان اعرفك دع عنك هذا الهذيان »

فمدّ مروان يده الى جيبه واستخرج رقًّا عليه كتابة وقال « أليس هذا كتاب العقد وعليه ختم الخليفة » فنظرت اسماء ونائلة اليه فرأتا الختم حقيقة فبهتتا

اما اسماء فتبسمت وهي لا تعبأ بتهديده وقالت « قد عرفناك قبل اليوم تزوّر الكتب على لسان امير المؤمنين ان الخليفة بريء من هذه الاعمال ولم يخطئ الاّ لانه جعلك كاتبه · اما كفاك ما سببته من الشرّ بتزوير الكتب حتى جئت تنتحل كتاب العقد ايضًا فترتكب التزوير في الدنيا والآخرة · ان هذا البلاء كله من تزويرك ذلك

(١) ابو الفداء

الكتاب على لسان الخليفة الى والي مصر [١] وكان الناس قد عادوا الى بلادهم فارجعتهم وايقظتَ الفتنة فارجع هذا الكتاب الى جيبك واخرج من هذه الغرفة قبل ان اذيقك الهوان » قالت ذلك وهمّت به وهي تستخرج خنجرها من بين اثوابها وكان لا يفارق جنبها قط . فارادت نائلة ان تُقعدها فأفلتت منها واغارت على مروان تريد قتله فاخلى من ضربتها وهمّ بتجريد حسامه والهجوم عليها فسمع ضجة عظيمة في صحن الدار وصوتًا ينادي مروان مروان فخرج مسرعًا والسيف في يده

الفصل الرابع والعشرون

﴿ مقتل عثمان ﴾

ولم يلبثوا ان رأوا الدخان يتصاعد من جهة باب الدار فظنوا الحريق قد لعب فيها فهاجوا وماجوا واشتغل كل بنفسه فصاحت نائلة ويلاه قد احرقونا وقتلونا وهرولت مسرعة الى غرفة زوجها

اما اسماء فاطلت من نافذة الغرفة الى باب الدار خارجًا فرأت الناس قد تجمهروا هناك وعددهم يزيد على الف نفس وجعلوا يرمون الدار بالنبال حتى اصيب بها كثيرون [٢] ورأت بعضهم فتحوا الخوخة وهموا يريدون الدخول منها وابناء الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدافعونهم . ورأت آخرين يرمون الامراس لينزلوا بها الى الدار وآخرين قد اوقدوا النار في السقيفة فوق الباب ليحرقوها ويحرقوا الباب معًا . وسمعت الجماهير يصيحون بصوت واحد « ادفعوا الينا مروان فنقتله وكفى » [٣] فاضطربت اسماء وتحولت عن النافذة وخنجرها لا يزال في يدها وسارت نحو غرفة عثمان لعلها تقنعه بتسليم مروان فينجو هو . فرأت الدار ملأى بالناس وقد دخل معظمهم من جهة دار بني حزم ورأت مروان في جملتهم وبيده السيف يريد ان يدفعهم فهجم عليه احدهم وضربه بالسيف على عنقه فدار دورة ووقع فصاحت اسماء « بورك فيك اذا قتلته فانه اصل الشرّ كله » ولكن الضربة لم تكن قاضية بل قطع احد علباويه فعاش مروان بعد ذلك اوقص [٤] ولكن اسماء ظنته

(١) ابن خلدون (٢) العقد الفريد (٣) مروج الذهب (٤) ابن الاثير

مات فتركتهُ وسارت بين الجماهير الى غرفة الخليفة فرأتهُ جالسًا والقرآن بين يديهِ وعندهُ نائلة واقفة والدموع ملء عينيها فتأثرت لمنظرها

ولم تكد تقف حتى دخل الحسن والحسين واولاد الصحابة وفي ايديهم السيوف مسلولة ورأت ثياب الحسَن مصبوغة بالدم (١) وكان عثمان لما سمع بدفاعهم عند باب داره خاف عليهم فبعث يستقدمهم اليهِ ليردعهم عن ذلك فقال لهم «اغمدوا السيوف وارجعوا فان الله قد عهد اليَّ عهدًا وانا صابر عليهِ . وقد علمت ان الناس قد احرقوا السقيفة فلم يحرقوها الاَّ وهم يطلبون ما هو اعظم» ثم وجهَ خطابهُ الى الحسن قائلاً «ارجع يا بني ان اباك الآن في شاغل عظيم من امرك فاقسمتُ عليك لما خرجت اليهِ» اما الحسن وسائر ابناء الصحابة فلم يصغوا لقولهِ فعادوا للمدافعة وظل هو جالسًا على مقعدهِ يقرأُ ولا يبالي بالغوغاء وليس عندهُ في الغرفة الا نائلة (٢)

وكانت اسماء واقفة هناك على حدة وقلبها يخفق خوفًا عليهِ فما لبثت ان رأت رجلاً من قريش دخل عليهِ وقال لهُ «اخلعها (اي الخلافة) وندعك» فقال عثمان «ويحك والله ما كشفتُ امرأة في جاهلية ولا اسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله (صلعم) ولست خالعًا قميصًا كسانيهِ الله تعالى حتى يكرم اهل السعادة ويهين اهل الشقاوة» فخرج الرجل . ثم رأت رجلاً عرفت بعد ذلك انهُ عبد الله بن سلام فوقف في الناس وقال «يا قوم لا تسلُّوا سيف الله فيكم فوالله ان سللتموهُ لا تغمدوهُ ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدرة (السوط) فان قتلتموهُ (أي الخليفة) لا يقوم الاَّ بالسيف . ويلكم ان مدينتكم محفوفة بالملائكة فان قتلتموهُ لتتركنها» (٣) فصاحوا فيهِ «ما انت وهذا يا ابن اليهودية» فسكت

كل ذلك واسماء واقفة مضطربة القلب لا تدري ماذا تعمل وكانت قد تطأمنت بما اصاب مروان لظنها انهُ قُتل ثم ما لبثت ان رأت محمد ابن ابي بكر دخل مسرعًا ووراءهُ جماعة ولم ينتبه لها وما زال حتى دنا من عثمان . فاوجست من قدومهِ خوفًا لعلمها بما في نفسهِ فقال لهُ عثمان «ويلك اعلى الله تغضب هل لي اليك جرم الاَّ حقهُ اخذتهُ منك» فامسكهُ محمد بلحيتهِ وقال «قد اخزاك الله يا نعثل» (وكان نعثل لقبًا يلقبون بهِ عثمان) فقال عثمان «لست بنعثل ولكنني عثمان وامير المؤمنين»

---

(١) ابو الفداء (٢) العقد الفريد (٣) ابن الاثير

قال محمد « ما اغنى عنك معاوية وفلان وفلان »
فقال عثمان « يا ابن اخي فما كان ابوك ليقبض عليها » اي على لحيتهِ
فقال محمد « لو رآك ابي تعمل هذه الاعمال انكرها عليك والذي اريد بك اشدُّ من قبضي عليها »
فقال « استنصر الله عليك واستعين بهِ »
فلما رأت اسماء ما دار بينهما خافت ان يفتك محمد بالخليفة فيكون ذلك نقطة سوداء في تاريخهِ . فدنت منهُ ووقفت بحيث يراها واشارت اليهِ ان يكفَّ عما هو فيهِ وان يتبعها حالاً . فلما رآها محمد ترك لحية عثمان وخرج يستفهم اسماء عما تريدهُ . فانفردت بهِ جانباً وقالت لهُ من اين دخلت الدار
قال دخلت من دار بني حزم [1]
فقالت وانت ايضاً على عثمان . واخبرتهُ انهُ بريءٌ ما ينسبونهُ اليهِ
ولم تكد تبيّن لهُ ذلك حتى سمعت صياح نائلة فاسرعت اليها فاذا هي قد حلت شعرها ونشرتهُ وعثمان يقول لها « خذي خمارك فلعمري لدخولهم عليَّ اعظم من حرمة شعرك [2] »
ثم رأت رجلاً ممن دخلوا مع محمد بن ابي بكر همَّ بعثمان وبيدهِ حديدة ضربهُ بها على رأسهِ فسال دمهُ على المصحف فتبعهُ آخر ليضربهُ بالسيف فاكبّت نائلة عليهِ والتقت السيف بيدها فقطع اصابعها [3] . فثارت الحمية برأس اسماء فهمّت بخنجرها تريد قتل ذلك الرجل فامسكها محمد عن ذلك ولم تمضِ لحظات قليلة حتى قتل عثمان وفرَّ قاتلوهُ
فلما رأتهُ نائلة مقتولاً حملت يدها والدم يسيل منها وخرجت من الغرفة وهي تبكي ونادت الحسن والحسين فدخلا فرأيا عثمان مذبوحاً يخبط بدماه [4] فصاحا قائلَين كيف يقتل عثمان ونحن في دارهِ ما الذي نقولهُ لوالدنا اذا سألنا عن ذلك
اما أسماء فلم تتمالك عن البكاء . ولكنها لنقمتها على القاتل جعلت تنظر يمنة ويسرة لعلها تراه فاذا هو قد فرَّ وتهافت الناس على بيت عثمان للنهب والسلب وعلت الغوغاء واشتغل كل بنفسهِ

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) الاغاني ج ١٥ (٣) ابن الاثير ج ٣ (٤) العقد الفريد ج ٢

الفصل الخامس والعشرون

﴿ محمد واسماء ﴾

أما محمد فهمّ باسماء وامسكها بيدها وقال اتبعيني فتبعتهُ حتى خرج بها من الدار وهي تود البقاء لترى ما يكون من حال نائلة ولكنها رافقت محمداً طوعا لميل قلبها . فلما رأت نفسها خارجاً ومحمد ممسك بها تذكرت ليلة خلت بهِ في قبر النبي ولم تكن تعرفهُ فهاجت اشجانها فوقفت بغتة فجذبها محمد فتبعتهُ حتى وصلا الى خلوة بازاء نخلة عظيمة فوقفت في ظلّها وجذبت يدها من يدهِ وقالت الى اين نحن ذاهبون يا محمد

قال هل تريبن لكِ مأرباً في دار عثمان بعدُ . لقد نصحت لك ان تخرجي منهُ منذ ايام فلم تقبلي حتى رأيت قتلهُ بعينيك وهذا ما كنت اخافهُ عليك

قالت انكم ظلمتموهُ يا محمد ولو استطعت انقاذه من ايديكم لنعلت .... تبًّا لمروان انهُ سبب هذا البلاء . قالت ذلك واغرورقت عيناها بالدموع

فقال محمد دعينا من الظلم والعدل فقد قتل عثمان ولا خيرة في الواقع ولم يعد بقاؤك في داره ممكناً والناس قد دخلوها وهمّوا بنهبها . فافصحي الآن عن رأيك ان الوقت ضيق والامر جلل ولا استطيع البقاء معك الاّ قليلاً

قالت وماذا تريد مني

فامسكها بيدها وضغط على اناملها وقال ألا تعلمين ما الذي اريدهُ

قالت نفسي تحدثني ..... وسكتت

قال ارجو ان يكون قلبك يحدثك لا نفسك . قولي حالاً

قالت يظهر لي ان مقتل عثمان لم يهمك . اني والله لا استطيع تذكر حالهِ وقد فارق ... ناهُ والدم يجري من عنقهِ

فتنهد محمد وقال أتظنيني لم آسف لموتهِ

قالت لا اظنك آسفاً وانت البادىء بالقتل . ووالله لو لم يسبق الى قلبي سابق ..... ما استطعت النظر اليك

" . تخبنني وما هذا وقت التوبيخ ولو شرحت لك سبب هذه الفتنة

فاني اراك ...

لطال بنا المقام ونحن في حال تدعو الى المبادرة ولكنني سوف ابسط لك حقيقة الواقع فتعذرينني · وأما الآن فاني مسرع الى منزل علي لاني اتوقع خلافًا عظيماً يقع بين الصحابة ولا بد لي من حضور مجلسهم · واما انت فلا أرى ان تبقي هنا والحال في اضطراب

قالت اني صابرة حتى اسمع عذرك في قتل خليفة الرسول فان لم ارَ ما تُعتذَر به على قتله · · · · · · وسكتت وهي تنظر الى الارض حياء ما كاد ينطق به لسانها

فاعجبته حرية ضميرها وصحة مبدإها وتبسّم وازداد ميلاً لها وقال « اني واثق باني سأُبرئ نفسي من تهمة القتل ظلمًا فاصبري حتى نجتمع على سكينة واذهبي الآن الى ما منٍ »

قالت الى ابن اذهب وامتعتي وجوادي لاتزال في دار عثمان

قال لك عليّ تخليصها أما ذهابك فلا اقول الى ابن قبل ان اعرف ضميرك فهل انت فاهمة مرادي · قالت وما مرادك

قال اقول لك بالاختصار اني احبُّك فهل انت تحبينني

فعلت وجهها حمرة الخجل وارخت النقاب على وجهها ولم تجب

قال انك لم تزيديني بهذا الخجل الاّ ثقة بحبك · فاعلمي يا اسماء اني عازم على ان اريحك من اتعابك واخلصك من والدك · · · · · او الذي يدعي انه والدك · وقد تركك منذ ايام ولا اظنك تعلمين مقرهُ · أما مروان فلا فضل لي في انقاذك منه وقد نال نصيبه · · · · ·

فلم يكد يذكر اسم مروان حتى تنهدت اسماء وقالت قبح الله مروان انه سبب هذا البلاء وقد كنت اود اني قتلته بيدي لاشفي غليلي منه

قال لا اظنه قتل فقد تركته في الدار يعصب عنقه على أثر جرح اصابه دعينا منه ومن امره · أما والدك الشيخ الفرُّ فلا اظنه يجرأُ على الظهور بعد مقتل عثمان وارجو ان لا تدعيه والدك بعد الآن فانه بعيد عن هذا اللقب بُعد الارض عن السماء · وها اني ذاهب الى بيت علي وهو الذي سيلي الخلافة لانه احقُّ بها من الجميع · ولكنني لا اظنه ينالها الاّ بعد خلاف عظيم فلا آمن اذا كنت في منزله من شرٍّ يصيبك فارى ان اذهب بك الى مأمن تبقين فيه حتى تهدأ الاحوال فنعيش معًا باذن الله

ألا ترين ذلك

فاطرقت اسماء وقد هاجت اشجانها وتذكرت والدها وهي لم تأسف لفراقهِ لكنها اسفت لفراقها نائلة في حال حزنها واضطرابها وزوجها ملقى على الارض قتيلاً . على انها شُغلت بما يخالج قلبها من حب محمد وهو الذي اول ما رأتهُ أحبتهُ بمجرد ذكر والدتها اسمهُ واصبحت بعد ما علمت من منزلتهِ عند علي وانهُ ابن اول الخلفاء شديدة الميل اليهِ فظلّت برهة صامتة تهمّ بالكلام ويمنعها الحياء وقد ذهبت منها تلك الجرأة وانطفأت تلك الحمية التي كانت تسحر بها اعاظم الرجال وشعرت للحال بخفقان قلبها وهياج عواطفها فابرقت اسرّتها وتلألأت عيناها وكأن لسان حالها يقول « ان الله قد يتّمني ولكنهُ نظر الى حزني فحبيبني الى خيرة ابناء الصحابة »

فأدرك محمد انها تكتم حبهُ فلم يشأ ان يضغط على عواطفها . فقال لها قد فهمت مرادك يا اسماء وفي نيتي الآن ان اذهب بك الى احدى ذوات قرابتي في بعض اطراف المدينة تقيمين عندها ريثما تنقضي الازمة التي نحن فيها وتمهد الخلافة الى عليّ فيرجع الامر الينا ويعود السلطان الى قبضتنا فنقيم في رغد وهناء باذن الله . قال ذلك ومشى فمشت وهي لا تتكلم حتى انتهى بها الى منزل في طرف المدينة فدخلهُ واذا فيهِ امرأة عجوز لم تكد ترى محمدًا حتى همّت بهِ وقبلتهُ ورحبت بهِ

فقال لها لقد جئتك باعز شيء عندي ارجو ان تحتفظي بها ثم حوّل وجههُ الى اسماء وقال امكثي هنا يا اسماء ريثما اعود ولا تضجري اذا طال غيابي

فقالت لا تنذرني بطول الغياب اذ ربما لا استطيع صبرًا على البقاء هنا

فقالت العجوز ألعلك خفتِ الاقامة عندنا يا ابنتي والله اني اكثر عناية بك من ولدي هذا — واشارت الى محمد ثم اخذتها بيدها ودخلت بها وودعها محمد وخرج

الفصل السادس والعشرون

﴿ مدفن عثمان ﴾

فلما خلت اسماء بالعجوز احسّت بالوحشة فالتمست غرفة دخلت اليها لتخلو بنفسها فلم تكد تنفرد حتى تصورت عثمان مطروحًا ونائلة واقفة فوق راسهِ وقد حلّت شعرها

واخذت تلطم خديها وتندب زوجها . فلما تصورت اسماء ذلك اقشعرّ بدنها وندمت على مجيئها ومغادرة نائلة في تلك الحال

فقضت بقية ذلك اليوم منفردة كئيبة ولما امسى المساء توسدت الفراش تلتمس النوم فلم يغمض جفناها ولا غابت صورة دار عثمان من امامها

فقضت ليلتها تتقلب على مثل الجمر تارة تفكر في محمد وطورًا في والدها وهي لا تعرف ابن هو وآونة في عثمان ونائلة حتى مضى هزيع من الليل فغلب عليها النعاس فنامت فاصبحت في اليوم التالي وضميرها يبكتها على هجرها صديقتها نائلة في ساعة الضيق وحدثتها نفسها ان تسير اليها ولكنها خافت ان يجيء محمد في اثناء غيابها فيغضب فمضى النهار ولم يأتِ محمد فانشغل بالها عليه على انها التمست الفراش باكرًا لعلها تنام فتعوض عن سهرها بالامس وتنسى هواجسها فلم تنم الاّ لحظات متقطعة

واغمضت جفنيها عند الفجر فرأت طيف نائلة في حالة يرثى لها من الكآبة والحزن وقد احمرّت عيناها وتقطع شعرها من البكاء والندب واللطم . فلما تخيلتها اسماء على تلك الحال غلب الخجل عليها وشعرت ان خيال نائلة يُوبِّخها على خروجها من عندها في ذلك الحين فأفاقت مذعورة باكية وقد بلل الدمع وسادتها فنظرت الى السماء فرأت الشمس قد طلعت فعوّلت على المسير الى دار عثمان تتفقد حال نائلة من بعدها ولكنها تذكرت ان محمدًا اوصى العجوز بالاحتفاظ بها فخافت اذا ارادت الخروج ان تمنعها فقضت ذلك النهار قلقة مضطربة وهي تتردد بين الذهاب والبقاء حتى امسى المساء وذهبت الى منامها فجعلت تتقلب على الفراش كأنها توسدت شوكًا فانقضى نصف الليل ولم تطبق جفنيها قلقًا على نائلة وحالها حتى اشتد بها القلق ولم تعد تستطيع صبرًا فنهضت ولبست ثيابها وتقلدت الخنجر كعادتها في مثل هذه الحال وانطلقت تطلب دار عثمان على عجل وهي لا تشعر ببرد لان الوقت كان صيفًا (١) وجعلت طريقها في اطراف المدينة لئلاّ يراها احد على انها لم تكن تخاف رقيبًا وقد سترت وجهها بالنقاب

ولم تكد تمشي هنيهة حتى رأت اشباحا تفرست فيهم فعرفتْ من قيافتهم انهم من

(١) لان عثمان قتل في ذي الحجة سنة ٣٥ للهجرة بلا خلاف وهو يوافق شهر يونيو (حزيران) سنة ٦٥٦ م (التقويم العام)

بني أُمية يهرعون بين راكب وماشٍ فرارًا من المدينة كأَن احدًا يطاردهم · فسارت محاذية لبعض الجدران حتى مرُّوا مخافة ان يكون مروان معهم فيعرفها وقد علمت ببقائهِ حيًّا بعد تلك الضربة · فطال بها المسير ولم تصل دار عثمان لانها كانت تجهل الطرق فارادت الرجوع الى منزل العجوز فلم تعد تعرف الطريق · وكان الفجر قد دنا وطلع الشفق فخيل لها انها اذا اشرفت على المدينة من مرتفع تمكنت من تعيين مكان الجامع فاذا عرفتهُ عرفت منزل عثمان · فتحولت نحو سور المدينة في مكان خارج البقيع وهناك ارض مهجورة قلَّ من يمرُّ فيها · ولم تكد تدرك المكان حتى رأت بضعة عشر رجلاً مهرولين عن بعد وفيهم اناس يحملون لوحًا عليهِ شيءٌ · فظنتهم من جملة الهاربين يحملون امتعة وانهم انما طلبوا ذلك الطريق البعيد خوفًا من العيون · فتنحَّت الى زقاق ضيق واستترت بنخلةٍ بحيث ترى المارة ولا يرونها · فلما دنوا منها عرفت منهم اناسًا في جملتهم مروان وعبدالله بن الزبير وكانت قد رأتهُ في جملة من جاء للدفاع عن عثمان [1] من ابناء الصحابة · فلما رأت مروان بالغت في الانزواء وتطلعت الى ما يحملونهُ فاذا هو جثة مطروحة على باب وجمجمتها عارية تقرع الباب لاسراعهم في المسير من شدة الخوف [2] ورأت تحت الجمجمة لحية كبيرة غضة مصفرة عرفت انها لحية عثمان · وتأملت الثياب فاذا هي ثيابهُ ولا يزال الدم عليها [3] فلم تشك ان الجثة جثتهُ · فخنق قلبها وارتعدت فرائصها لما لحق بهذا الخليفة من الاهانة بعد موتهِ · وادركت من وجودهم هناك في تلك الساعة انهم خرجوا بهِ ليلاً وتذكرت موت والديها فتأَسَّت لانها دفنت مكرمة · ولبثت مستترة وراء النخلة تنظر الى تلك الجنازة المحزنة فاذا بهم لما وصلوا الى حائطٍ هناك يقال لهُ حش كوكب [4] حفروا لهُ حفرة دفنوهُ فيها وهم ينظرون الى ما ورائهم خوفًا ورهبة

فصبرت ريثما تفرقوا وسارت حتى صعدت الى مرتفع اطلَّت منهُ على المدينة فاشرفت على جامعها فاذا هو بعيد عنها كثيرًا فجعلتهُ وجهتها ونزلت تخترق الاسواق فلم تجد فيها الاَّ نفرًا قليلاً فخافت ان يلاقيها محمد وهي في تلك الحال · وما زالت حتى وصلت منزل عثمان والشمس قد طلعت فرأتهُ موصدًا فالتمست باب بني حزم

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) العقد الفريد ج ٢ (٣) تاريخ الخميس ج ٢

(٤) ابن الاثير ج ٣

فرأتهُ مغلقاً فتنصتت فلم تسمع صوتاً فوقفت برهة ثم همّت بالباب فقرعتهُ فلم يجبها احد فأعادت القرع فأطلّ عليها رجل من كوة فوق الباب عرفت انهُ من خدم عثمان فلما رأتهُ اومأَت اليهِ ان يفتح · فلما عرفها فتح لها فدخلت وسأَلتهُ عن نائلة فأَومأ اليها ان لا تتكلم وسار امامها فتبعتهُ فدخل بها غرفة رأَت فيها نسوة احطن بنائلة وهي لا تزال محلولة الشعر كما رأتها في منامها بالامس

الفصل السابع والعشرون

قميص عثمان وأَصابع نائلة

فحالما وقع نظر نائلة عليها صاحت بها قائلة ما الذي جاء بك يا اسماء يا حبيبتي العلك أتيتِ لتري امير المؤْمنين · فقد فاتكِ ما لاقاهُ من اكرام المسلمين بعد موتهِ · قالت ذلك وأَوغلت في البكاء

اما اسماء فأَلقت نفسها على نائلة ولم تتمالك عن البكاء والشهيق وهي تقول ان خسارتك يا خالتي خسارة المسلمين كافة لقد فسد امرهم بعد عثمان لانهم سفكوا دماً بريئاً بجوار قبر الرسول (صلعم)

فلطمت نائلة خدَّيها بكفَّيها واذا باحدى يديها معصوبة فتذكرت اسماء انها اليد التي اصيبت بالسيف فقطعت اناملها · وقالت نائلة يا ضيعة تعلك يا اسماء ويا خيبة ما املناهُ من سعيك لقد غشُّونا والله وغدروا بنا فارسلوا اولادهم للدفاع عنهُ وبعثوا يقتلونهُ مع آخرين · الم تري ابن ابي بكر قبض على لحيتهِ رحمهُ الله

فلما سمعت اسم محمد تأَسفت لانهُ فعل ذلك ولم تجد ما تدافع بهِ عنهُ فسكتت وهي تفكر في عبارة تعزيها بها فلم يفتح عليها · ولكنها قالت اصبري يا خالة ان الله مع الصابرين وقد كنتِ بالامس تعزينني وتصبرينني فأَنت اولى مني بالتماس بالصبر

فصاحت نائلة آه اوَّاه يا اسماء كيف اصبر وقد قتلوا عثمان قتلاً لم نسمع بمثلهِ اين منهُ موت والدتك رحمها الله فقد ماتت وصلوا عليها ودفنوها مكرمة اما هو فقد طعنوهُ في صدرهِ ثلاث طعنات وضربوهُ على مقدم الجبين ضربة اسرعت في العظم ووالله اني لا ازال اسمع صوتهُ يرن في اذني وهو يقرأ القرآن لا يبالي بما يفعلون

واظنك رأيتني وقد سقطتُ عليهِ وهم يهمون بهِ وفيهِ بقية والهفي عليهِ يريدون قطع رأسهِ لا ادري ما ذا يريدون بهِ حتى أنت هذه الفتاة بنت شيبة (قالت ذلك وأشارت الى فتاة بجانبها) فالقت نفسها معي عليهِ وكنتِ قد خرجت فتوطأنا وطئًا شديدًا وعُرّينا من ثيابنا وحرمة امير المؤمنين اعظم فقتلوهُ رحمة الله عليهِ في بيتهِ وعلى فراشهِ (١) »

ثم تنهدت تنهدًا شديدًا وقالت « ولو اكتفوا بذلك لكان خيرًا ولكنهم منعوا الناس ان يصلوا عليهِ وقالوا لا يدفن في مدافن المسلمين (٢) كأنهُ كفر او كان من المشركين . جزاهم الله بما فعلوا . فظل في بيتنا ثلاثة ايام وجثتهُ ملقاة بين أيدينا ونحن نبكيهِ ونبكي الاسلام من بعده ولو لم نلقَ اخوانًا من اهل الغيرة يحملونهُ بعد منتصف الليل خلسة لظلّ غير مدفون . وكم ساءني ما اصاب الذين قتلوا معهُ فقد جرّوهم بارجلهم ولعلهم القوهم على التلال لتأكلهم الكلاب واما والدك المسكين فلا ادري اذا كان قد اصابهُ مثل مصابهم

فلما سمعت اسماء ذكر والدها اقشعرّ بدنها وامتقع لونها وصاحت وماذا اصاب والدي

قالت أما علمت بما اصابهُ وقد كنتِ في الدار معنا . قالت لا . ما ذا اصابهُ

قالت سمعت انهُ قتل مع الخليفة في بعض جوانب الدار

فلطمت اسماء وجهها وصاحت ويلاه وا أبتاه . واوغلت في البكاء . ونهضت مذعورة وقالت اين هو الآن . اروني والدي اين هو

ولم تكن نائلة تتوقع من اسماء حزنًا شديدًا على والدها لما تعلمهُ من حديثها عنهُ أما اسماء فأخذت في البكاء والنوح والنساء هناك يخففن عنها فقالت لها نائلة تصبري يا ابنتي ان لهُ اسوة بأمير المؤمنين وسوف يلقيان ربهما معًا ولكن الله سينتقم من القوم الظالمين . ان للخليفة قومًا يأخذون بثأرهِ وثأر بني امية جميعًا نعم انهم لم يدركوهُ حيًا ويدفعوا عنهُ القتل (٣) ولكنهم سوف يطالبون بثأرهِ اذ رأوا قميصهُ الملوث بالدم واصابعي المقطوعة فقد ارسلت القميص والاصابع الى معاوية في الشام (٤) واصبح الامر لبني امية وهم سواد قريش . وقد ظن بنو هاشم انهم اذا قتلوا عثمان يضعف شأن بني امية و والله انهم اكثر رجالاً واوفر عدة واصعب مراسًا وسوف يلقى بنو هاشم عاقبة ما جنتهُ ايديهم ان شاء الله

---

(١) الاغاني ج ١٥ (٢) العقد الفريد ج ٢ (٣) ابن الاثير ج ٣ (٤) ابن خلدون وغيره

فلما سمعت تهديد نائلة وحكاية قميص عثمان واناملها وما ذكرتهُ من تفضيل بني امية على بني هاشم علمت انها انما ارسلت الاصابع والقميص استحثاثاً لبني امية على المطالبة بدم عثمان وتحققت انها تضمر السوء لعلي فلم تصبر على الدفاع عنهُ فقالت « ولكنك تعلمين ان بني هاشم كانوا اكثر الناس دفاعاً عنهُ فان عليًّا ارسل ابنيهِ الحسن والحسين لرد الناس عن بابهِ ولو اذن لهما امير المؤمنين رحمهُ الله بالقتال لجاهدا في الدفاع عنهُ الى آخر نسمة من حياتهما . أَمثل هؤلاء يطالبون بدم عثمان ام يقال انهم دافعوا جهدهم »

قالت « واي دفاع تريدين . فوالله لو ارادوا دفاعاً ما مات عثمان لقد اخذوا الامر بالاهمال والصبر حين لا ينفع الصبر بل هو عجز وسوء نية . ولا يغررك ارسال اولادهم » . قالت ذلك وحرقت اسنانها وسكتت

فعذرتها اسماء لهياج عواطفها على مقتل زوجها ولم تجبها . ولكنها عادت الى السؤال عن والدها . فقالت لها احدى الحضور لا تتعبي نفسك يا اسماء ان والدك قد قتل في جملة الذين قتلوا مع عثمان وهم اثنان هو ثالثهم . وقد حملوا جثتهم خلسة الى حيث لا يعلم احدٌ . فتعزي بمقتل امير المؤمنين خليفة رسول الله (صلعم) بعد ان سمعتِ ما جرى له

وظلت اسماء هناك برهة تبكي مع الباكين حتى هدأ روعها فتذكرت ان وفاة والدها خير لها في مستقبل حياتها فنظرت الى نائلة وقالت « ما الذي عزمت عليهِ يا خالة الآن »

قالت « لقد عزمت على المسير من هذا المكان الى حيث لا أرى هاشميًّا ولا اسمع بهاشمي ولكنني لا استطيع الخروج الأ خلسة وما مقامنا هنا الأ خفية . ولو عرف هؤلاء الظالمون مقامي لادركوني وقتلوني . ولكن بني حزم اهل جوار فقد خبأوني جزاهم الله خيرًا »

ثم تذكرت اسماء انها تركت بيت العجوز على غرة فخافت اذا افتقدتها ولم ترها قلقت عليها وخصوصاً اذا عاد محمد ولم يجدها وزد على ذلك انها خافت مجيء مروان وهي لا تريد ان ترى وجههُ بعد ما جرى بينها وبينهُ . فنهضت للحال واعتذرت انها تريد المسير الى بعض ذوي قرابتها في اطراف المدينة

فقالت لها نائلة « اذهبي حيثما شئت يا ولدي ولو كان لي بيت لدعوتك اليهِ ولكنني اصبحت غريبة بين اهلي اتوقع الخطر على حياتي . فاذهبي حرسك الله ووقاك واذا منَّ الله علينا بالاجتماع ارجو ان اكافئك على صنيعك الجميل وحميتك التي لم ارَ مثلها . سيري

يا ابنتي بحراسة الله » قالت ذلك وضمتها الى صدرها وودعتها وهي تبكي وبكت اسماء ايضًا وقد انفطر قلبها لما سمعتهُ من كلام نائلة وشق عليها ان تراها في هذه الحال وقد كانت بالامس زوج امير المؤمنين ولها الامر والنهي

الفصل الثامن والعشرون

﴾ بيت علي ﴿

ثم ودعت اسماء نائلة ومن حضر من النساء وخرجت تلتمس بيت العجوز وهي تحسب انها تعرفهُ لكنها تاهت هذه المرة ايضًا لا سيما وان البيت صغير لا يُرى عن بعد . على انها وصلته في آخر النهار وقد مالت الشمس الى المغيب فوجدت الباب مغلقًا ولا نور هناك ولا حركة فقرعت الباب مرارًا فلم يجبها مجيبٌ

فوقفت برهة تفكر في ما تفعلهُ فلم ترَ خيرًا من الذهاب الى منزل علي تتفقد محمدًا فاذا لم تجدهُ باتت تلك الليلة هناك فقد طالما دعاها للاقامة في منزلهِ . ولكنها خافت اذا سارت بلباس النساء ان تكون موضع التفات الناس في الطريق او في فناء الدار لان بيت علي لا يخلو من القادمين والغادين . فتنكرت وكانت ممنطقة بكوفية حلتها ولفت بها رأسها كما يفعل الرجال بأسمارهم وتزملت بعباءة كانت قد خرجت بها بالامس وسارت تلتمس بيت عليٍّ فلم تصلهُ الا نحو العشاء . فرأت بعض الناس في فناء الدار وكانت تتوقع ان ترى ازدحامًا . ثم علمت ان اهل البصرة والكوفة والمصر بين الذين كانت تزدحم بهم المدينة قبل مقتل عثمان تحولوا الى مضاربهم خارج المدينة للمبيت . فسألت عن علي فقيل لها انهُ في خلوة مع بعض الامراء لا يدخل عليهِ احدٌ فوقفت تنظر في الامر فحدثتها نفسها ان تدخل المنزل فتبيت عند بعض نساء عليٍّ ولكنها هابت الدخول عليهنَّ وهي لا تعرفهنَّ قبلاً

وفيما هي في ذلك رأت محمد بن ابي بكر خارجًا من الدار فتبعتهُ فلما رأى عباءتها ومشيتها عرفها فدنا منها وتفرس فيها فقالت « محمد » قال « اسماء » . قالت نعم ابن انت

قال « لقد شغلتِ بالي لغيابك اين كنتِ »

قالت خرجت في حاجة سأقصها عليك الآن وأين هي عجوزك

قال اتتني في صباح اليوم وهي قلقة لغيابك وقد قضينا طول هذا النهار في البحث عنك فشغلتِنا عما نحن فيهِ من الامور العظام تعالي معي ادخلكِ الى والدتي

قالت وهل تقيم والدتك هنا في منزل علي

قال نعم وهي زوجتهُ[1] بعد والدي رحمهُ الله واسمها مثل اسمك بورك في هذا الاسم

فسرَّت اسماء لمعرفة والدتهِ ورأت بابًا للفرج بالاقامة عندها واحبت زيادة التفصيل فقالت « وهل تزوجها عليٌّ من زمان طويل »

قال« تزوَّجها بعد موت والدي وكنت انا طفلاً فربيت في حجرهِ[2] فانا أُعدُّهُ بمنزلة والدي وهو يحبني كأحد اولادهِ »

قالت « لقد آنست فيهِ ذلك رحم الله والدًا ولدك وعاش والد ربّاك ». قالت ذلك وقد ابرقت اسرتها اعجابًا بهِ لكنها ما زالت تظهر الفتور بعد حديثها فشعر هو بذلك فقال « اراكِ قد تغيرتِ يا اسماء بعد خروجك اليوم »

قالت بل انا باقية على ما تعلم ولكنك سألتني عن سبب خروجي

قال نعم والى اين كان خروجك

قالت خرجت الى تلك المسكينة التي قتلتم زوجها وتركتموها حزينة كئيبة فلم يسعني مغادرتها على تلك الحال وقد كانت تعزيتي الوحيدة في حال حزني واضطرابي

قال لعلك سرتِ الى نائلة

قالت « نعم سرت اليها ورأيت مدفن قتيلكم رحمهُ الله . فقد حملوهُ على باب وساروا بهِ خلسة ليدفنوهُ خارج المدينة وسمعتُ طعنًا بك ساءني ان اسمعهُ وساءني فوق ذلك اني لا استطيع الدفاع عنك لاني شهدت دخولك وتعمدك قتل الخليفة » قالت ذلك وفي نغمة كلامها ما لا يصدر الاَّ عن سلطة الدالة وسلطان الدلال

فأدرك محمد ان اعتقادها هذا سيكون نقطة سوداء على صفحة حبها فساءهُ ذلك لكنهُ اعجب بانفتها وصدق ادبها فمال كل الميل الى تبرئة نفسهِ عندها فقال وهو يبتسم تأكيدًا لبراءة ساحتهِ « لقد قلتُ لك يا اسماء ان الرجل لم يُقتل خالاً وهي اني قتلته بيدي فما انا نادم على ذلك وسأُطلعك على جلية الواقع في فرصة اخرى . اما الآن فادخلي بنا لاعرّفك بوالدتي وهي تعرّفك بأهل علي » قال ذلك وهم بالدخول

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) الدميري

الفصل التاسع والعشرون

الحسن بن علي

ولم يكد يدنو من الباب حتى سمع وقع اقدام في الدار ثم رأى شاباً خارجاً حالما رآه علم انه الحسن بن علي فالقى حسن السلام . فقال محمد وعليك السلام يا ابن امير المؤمنين

فقال الحسن اراك تبشرني بخلافة انا خائف منها

قال لا تخف يا ابن بنت الرسول وابن ابن عم النبي انكم اولى الناس بها

وكان الحسن يخاطب محمداً و ينظر الى اسماء وقد انكرها لتلثمها . فابتدره محمد قائلاً ان رفيقي امويٌّ جاء للمبيت عندكم فهل تقبلونه

قال اهلاً بهِ ايًا كان فليدخل . قال ذلك ودخل فدخلا في أثرهِ واسماء لا تزال ملثمة والحسن ينظر اليها ويتوقع حسر اللثام . فلما حسرتهُ ووقع نظرهُ عليها تذكر انه رآها في منزل عثمان وقد كانت حاضرة ساعة مقتلهِ . فوقعت من نفسهِ موقعاً حسناً واعجبتهُ هيبتها وجمالها . فقال « اهلاً بك يا اخيَّة فقد نزلت اهلا ووطئت سهلاً »

اما اسماء فغلب عليها التهيُّب لوقوفها بين يدي ابن عليٍ ونظرت اليهِ بطرف خفيٍّ فاذا هو ابيض اللون مشرب بالحمرة ادعج العينين سهل الخدين كثُّ اللحية ربع القامة جعد الشعر لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمرهِ وكان اشبه الناس بالنبي[1] فلم تتمالك اسماء ان نظرت اليهِ حتى غلب عليها الحياء فاطرقت وقالت « بورك في بيت شرفهُ الله »

فقال محمد للحسن « وازيدك تعريفاً بها انها اسماء بنت يزيد التي جاءت منذ بضعة اسابيع تستدعي مولاي ابي الحسن لمشاهدة والدتها وهي على فراش الموت لسرٍّ كانت عازمة على اطلاعهِ عليهِ فقضت رحمها الله قبل وصولهِ وذهب ذلك السرّ معها الى القبر »

قال الحسن وهو ينظر الى اسماء « ان والدي ما زال يذكر ذلك ويأسف لضياع السرّ ويعجب بما آنسهُ في هذه الفتاة من الشهامة والانفة » قال ذلك وسار

(١) تاريخ الخميس ج ٢

امامها فمشيا في اثرها وقد شعر محمد من ذلك الحين بغيرة من الحسن وندم على مجيئهِ بها الى ذلك المكان ولكنهُ تجاهل وقال « الى اين نحن ذاهبون »

قال الحسن « الى خالتي امامة اعرفها باسماء فتبيت عندها الليلة وهي تعرفها بالاسم قبل اليوم ولا ريب انها ستسرّ بلقياها كثيرًا »

فلم يستطع محمد معارضتهُ لئلاَّ تنكشف غيرتهُ فاجابهُ وهو غير راضٍ بذلك التعريف لان الحجاب يمنعهُ من الدخول معهما الى امامة فبقي خارجا على مثل الجمر ودخل الحسن الى غرفة امامة بلا استئذان . وكانت منفردة وقد لبست ثوبًا بسيطًا وفي عنقها قلادة من جزع كانت كثيرة الاحتفاظ بها . فلما رأت الحسن داخلاً همَّت ان تسألهُ عن امر الناس والخلافة فاذا هي باسماء تتبعهُ فلما رأتها اعجبها حسن طلعتها فدنت اسماء منها تهمُّ بتقبيل يدها فمنعتها وقبلتها فابتدرها الحسن قائلاً « اقدم لك يا خالة اسماء واظنك تذكرين حديث والدي عن والدتها التي ماتت في قباء ومات ذلك السرُّ معها فهذه هي ابنتها وكثيرًا ما سمعت والدي يذكرها ويحب بها »

ثم التفت الى اسماء وقال « واعلمي يا أُخية انك بين يدي امامة زوج والدي وهي بنت زينب بنت الرسول وكان جدّي (صلعم) يحبها كثيرًا وانظري الى هذه القلادة التي ترينها في عنقها فقد اهداها اليها رسول الله يوم ولادتها وكانت احب اهلهِ لهُ (١)

فازدادت اسماء اجلالاً لامامة وظلت واقفة حتى دعتها الى الجلوس فجلست على وسادة بالقرب منها . فقال الحسن « لا حاجة بي ان اوصيك بضيفتك وانت اولى من اكرم الضيف مع علمك بمنزلتها عند والدي » قال ذلك وخرج وكان محمد في انتظاره وهو على مثل الجمر وقد لام نفسهُ على مجيئهِ بها

فلما التقيا قال الحسن كيف عرفت هذه الفتاة يا محمد

قال عرفتها يوم جاءت لاستدعاء مولاي ابي الحسن الى والدتها وقد صحبتها الى قباء وهي متنكرة بزي الرجال ثم شاهدتها مرة في منزل عثمان ورأيتها الآن جاءت تطلب منزلكم لانها غريبة وكان والدك قد دعاها للاقامة عندكم تعزية لها على حزنها ويتمها فقال الحسن انها والله ذات جمال ووقار واظنها ستبقى عندنا واني شاكر لهذه الصدفة

---

(١) اسد الغابة ج ٥

الفصل الثلاثون

﴿ خلافة علي ﴾

فادرك محمد ما في نفس الحسن فاتقدت نار الغيرة في صدره ولكنها غيرة لم يشبها بغض لاحترامه الحسن ووالده . على انه احبَّ تغيير الحديث فقال « واين مولاي ابو الحسن الآن »

قال تركته في غرفته وقد اجتمع الامراء حوله يريدون مبايعته وهو يقول لهم « لا حاجة لي في امركم فمن اخترتموه رضيت به » وهم يلحون عليه في القبول ويقولون له « لا نعلم احدًا احق به منك لا أقدم سابقة ولا اقرب قرابة من رسول الله (صلعم) »[1]

فقال محمد الم يقبل

قال كلاَّ وقد تركته وهو يقول لهم « لا تفعلوا فاني اكون وزيرًا خيرًا من ان اكون اميرًا » وهم يقولون « ما نحن فاعلين حتى نبايعك »

فقال محمد اني لأعجب من رفضه امرًا هو اولى به من سواه انها والله لا يجب ان يليها غيره

فقال الحسن واني اكثر تعجبًا منك

قال محمد وما رأيك بطلحة والزبير فاني اخالهما غير راضيين به لان كلاًّ منهما طامع بالخلافة لنفسه

فتبسم الحسن وقال « لا يهمك امرهما فانهما سيبايعان كارهين ان شاء الله على اني اراهما يتظاهران بالقبول وسنرى ما يكون منهما في الغد فقد سار اليهما بعض الناس يدعونهما الى المبايعة

وافترقا بعد هنيهة فسار محمد الى فراشه وقد همه أمر اسماء اكثر مما همه امر الخلافة لعلمه ان الحسن اذا وسط والده في تزويجها به نالها لا محالة . فلم يبق لديه الاَّ ابعادها عن ذلك المنزل وتمكينها من محبته . وقضى ليلته يبحث في وسيلة تساعده على الخروج باسماء من هناك حتى يخلو بها فيقنعها اولاً ببراءته من الظلم في مقتل

(1) ابن الاثير ج ٣

عثمان ثم يكتب كتابهُ عليها قبل ان يصرّح الحسن بطلبها فيكون لهُ عذرٌ في ذلك اما اذا اسبق الحسن الى طلبها صريحًا فلا يتجرأُ هو على التعرض لها

وفي الصباح التالي بكَّر إلى غرفة الحسن فلم يجدهُ هناك فسأَل الخدم عنهُ فقالوا لهُ خرج الى غرفة امامة باكرًا . فعلم انهُ علق ذهنهُ باسماء فأَسرع في ارسال من يستقدمهُ فجاء الحسن وقد اشرق وجههُ ودلائل المحبة ظاهرة عليهِ فانقبضت نفس محمد وكادت الغيرة تظهر على وجههِ ولكنهُ تجلد وحياه وقال كيف اصبحتْ فتاتنا اليوم

فقال الحسن لقد اصبحت في خيرٍ ولكنني اراها منقبضة النفس

فسرَّ محمد لانقباضها لعلمهِ ان ذلك يدلُّ على عدم ارتياحها الى محبّها الجديد فقال « اظنها منقبضة لحزنها على والدها لأَنهُ قتل في منزل عثمان وارى ان نخرج بها لتحضر مجلس والدك وحديث القوم في أمر المبايعة لعلها تشتغل بما تراه هناك عن احزانها »

قال وكيف تجلس مع الرجال

قال لتذهب متنكرة كما اتتنا اليوم

وكان الحسن اكثر ميلاً من محمد الى اصطحابها وهو غافل عما يخالج قلب محمد فقال « لقد رأيتَ صوابًا وتحوَّل لاستقدامها وما عتم ان عاد واسماء معهُ وقد تنكرت فلما رآها محمدٌ حيَّاها وهو ينظر الى وجهها نظرة لا يفقهها الاَّ من عانى الحب والغيرة ولبث ينظر الى ما يبدو منها فاذا هي حالما وقع نظرها عليهِ ابرقت اسرتها فارتاح بالهُ وتظاهر بعدم الاكتراث وقال لها « اظنك تودين حضور مجلس مولاي ابي الحسن »

قالت «كيف لا وانت تعلم ضميري » فادرك محمد انها تشير الى حبها لهُ فتحقق انها باقية على عهده فقال « فاذا فرغنا من ذلك المجلس سلمت اليك جوادك وامتعتك التي تركتها في منزل عثمان وقد وعدتك ان احتفظ بها فاستخرجتها من سائر المسلوبات »

فأَثنت عليهِ واشارت بعينها اشارة خفية فهم محمد بها مرادها والحسن لم يشعر

ثم قال الحسن هلمَّ بنا ندخل على والدي قبل مجيء الناس فدخل هو اولاً حتى تحقق انهُ نهض ولبس ثيابهُ ثم عاد واستقدمها

الفصل الحادي والثلاثون

﴿ الصحابة وعلي والخلافة ﴾

فدخل محمد واسماء وهي في لباس الرجال ولكنها حالما دخلت حسرت اللثام وهمّت بتقبيل يد علي وكان عليٌّ جالسًا على وسادة وعليهِ ازار ووطاق وعمامة خز [١] وهو في هيبتهِ المعهودة وقد ارسل عمامتهُ الى الوراء حتى ماست صلعتهُ [٢] لما قام في نفسهِ من الامر الذي دعوهُ اليهِ فجلس وهو يمشط لحيتهُ باصابعهِ وعيناهُ الدعجاوان تتلألآن في وجههِ والذكاء ينبعث منهما · فلما رأى اسماء مقبلة ابتسم لها وحياها وسألها عن حالها

فقالت اني بفضل مولاي في خير وعافية

قال ان كلامك يا بنية لا يزال يرنّ في اذني مذ جئتنا قبل مقتل ذلك الرجل رحمهُ الله وقد قلتِ وقولك هو الصواب « ان في مقتل الخليفة ايقاظًا للفتنة » فلا اظنها الاّ استيقظت

قالت ان الفتنة لتستحيي من ابن عم رسول الله فتعود الى الرقاد اذا قبض هو على ازمة الخلافة

فأعجبهُ حسن اسلوبها وحدة ذهنها وكان الحسن اكثر اعجابًا من الجميع

ثم دعاها عليٌّ الى الجلوس وهو يقول « اراك قد خلعت زي النساء ولبست زي الرجال يا اسماء »

قالت لقد تردَّيت باللباس الذي يليق ان الاقي بهِ رجل هذه الامَّة

فقال عليٌّ « بل هو يشير الى ما اودعهُ فيك الخالق من اخلاق الرجال ولكنهُ سبحانهُ وتعالى قد جمع فيك حسنات الجنسين »

ولم تكد اسماء تجلس حتى جاء بعض الخدم يستأذن عليًّا في دخول بعض الصحابة فاذن لهم فدخل جماعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير وكانت اسماء تعرفهما من ذي قبل · فجلسوا جميعًا حتى غصت القاعة بهم وجلس طلحة والزبير في صدر القوم

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٢

وعلى وجهيهما آثار الانقباض كأَنهما يخفيان امرًا هامًّا فادركت اسماء انهما انما جاءا مكرهين

فلما استوى القوم نهض واحدٌ من اهل المدينة وخاطب عليًّا قائلاً « لقد جئنا مولانا ابن ابي طالب نطلب اليهِ امرًا نرجو ان لا يردنا عنهُ خائبين كما فعل بالامس وما قبلهُ »

فقال عليٌّ « قولوا ما تريدون »

قالوا « جئنا نبايعك بالخلافة لأَننا لم نرَ احدًا احق بها منك »

قال (وهو ينظر اليهم جملةً) « قلت لكم دعوني من هذا الامر فاني اراهُ طريقًا وعرًا

فقال قائل « من ترى اقدم منك سابقة واقرب قرابة من رسول الله (صلعم) وقد قال فيك الرسول « لا يحبُّك الاَّ مؤْمنٌ ولا يبغضك الاَّ منافق »

قال « كفكم كفُّ والذي تبايعونهُ اقبل بهِ »

قالوا لا نرى غيرك احق بها وقد قال الرسول (صلعم) « ان عليًّا مني وانا من علي وهو وليُّ كل مؤْمن بعدي » (١)

قال « قلت لكم دعوني والتمسوا غيري فانَّا مستقبلون امرًا لهُ وجوه ولهُ الوان لا تقوم بهِ القلوب ولا تثبت عليهِ العقول »

فوقفوا وقد نفد صبرهم وقالوا « ننشدك الله ألا ترى ما نحن فيهِ . الا ترى الاسلام . الا ترى الفتنة . الا تخاف الله . . . »

فلما سمع عليٌّ تأ نيبهم سكت وقد ضاق ذرعًا وعظم عليهِ الامر فاشتغل بتمشيط لحيتهِ باصابعهِ وهو مطرق يتململ . ثم نظر اليهم فاذا هم سكوت ينتظرون جوابهُ . فقال لهم « قد اجبتكم »

ولم يكد ينطق بلفظ الاجابة حتى ضجَّ الناس بالاستحسان وتهللت وجوههم فرحًا الاَّ طلحة والزبير فانهما ظلاَّ صامتين

فلما رأى عليٌّ استحسانهم وضجيجهم مع ما آنسهُ من سكوت طلحة والزبير نهض فنهض الناس وهم ينظرون اليهِ ليروا ما يبدو منهُ فاذا هو قد علاهُ اضطرابٌ كأَنهُ تنبأَ من ساعتهِ بما يتوقعهُ من الامور العظام فاشار اليهم بيدهِ يلتمس اصغاءهم وقال « واعلموا

(١) اسد الغابة ج ٤

اني اذا اجبتكم ركبتُ بكم ما اعلم فانما انا كاحدكم الاَّ اني اسمعكم واطوعكم لمن وليتموهُ »

فقالوا كلنا اطوع لك من بنانك ومن لا يطيع ابن عم الرسول واخاهُ ووصيّهُ ونصيرهُ وربيبهُ وحبيبهُ وخليفتهُ والذي قال فيهِ (صلعم) « من كنت مولاهُ فعليٌّ مولاهُ اللهم والِ من والاهُ وعادِ من عاداهُ » وقال (صلعم) انك مني بمنزلة هرون من موسى فكيف نبايع سواك

فقال اذا كنتم لا ترون بدًّا من المبايعة فلتكن في المسجد وليس في هذا المنزل

قالوا هلمّ بنا الى المسجد

الفصل الثاني والثلاثون

المبايعة

فنهضوا ونهض عليٌّ ونعلاهُ في يدهِ ومشى وهو يتكفّأُ [١] وبيدهِ قوس يتوكأُ عليها [٢] حتى اقبل على المسجد والناس بين يديهِ وكان محمد وحسن واسماء سائرين بالقرب منهُ واسماء تنظر الى ما سيكون فلما دخلوا المسجد قرأ عليٌّ الفاتحة وصلى ثم وقف ووقف الناس فنظرت اسماء الى الجمع وقد هاجوا وماجوا فرأت طلحة تقدّم نحوهُ قبل الجميع ومدَّ يدهُ فمدّ علي يدهُ فصافحهُ طلحة وقال « أنا نبايع سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الانام علي ابن ابي طالب على كتاب الله وسنة نبيهِ واجتهاد امير المؤمنين [٣] ونسلّم لهُ النظر في امورنا وامور المسلمين لا ننازعهُ في شيء ونطيعهُ في ما يكلفنا بهِ من الامر على المنشط والمكره [٤] وان لا خليفة سواهُ » وادركت اسماء من هيأة طلحة وغنة صوتهِ ومجمل حالهِ انهُ انما بايع مكرهًا . ثم سمعت رجلاً من الوقوف خلفها يقول لجارهِ همسًا « أنّا لله وانا اليهِ راجعون ان اول يدٍ بايعت يدٌ شلاء لا يتمّ هذا الامر » . فالتفتت اسماء الى محمد كأنها تستفهمهُ عن مغزى ما يقولهُ الرجل . فدنا منها وقال لها « ان في يد طلحة شللاً خفيفًا من نوبة احد [٥] والذي سمعتهِ

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٣ (٣) السيوطي
(٤) مقدمة ابن خلدون (٥) ابن الشحنة

يتكلم رجل من اهل العيافة تشاءم بتلك المبايعة »

قالت ارجو ان لا تصدق عيافته . وبعد ان بايع طلحة تنحى وتقدم الزبير فبايع ثم بايع غيره من الامراء افرادًا واجمالاً

فاصبح عليٌّ من تلك الساعة امير المؤمنين فصعد المنبر فلما رآهُ الناس صاعدًا علموا انهُ يريد ان يتكلم وهم طالما سمعوا خطابهُ وسحروا ببلاغتهِ فانصتوا الى ما سيقولهُ . وظلت اسماء في موقفها ومحمد الى جانبها وعيناهُ تسارقان الحسن النظر ليرى ما في نفسهِ من اسماء فرأى انهُ على هول الموقف ورهبة المقام لم يشغل عنها لحظة

أما هي فظلت ثابتة ثبوت الجبال لا تلتفت لفتة الاّ لامر هام . فلما وقف الامام عليٌّ أصغت واصغى الجميع . فمسح عليٌّ لحيتهُ بيمينهِ واجال نظرهُ في الناس والعمامة الخز على رأسهِ وعليهِ الازار وبطنهُ يتقدمهُ لانهُ كان ذا بطن [١] فلبث هنيهة لا يتكلم حتى سكت الجميع وتطاولوا باعناقهم لسماع كلامهِ في ذلك الموقف وهو اول كلام لهُ بعد الخلافة . فحمد الله واثنى ثم قال بصوت يسمعهُ من في المسجد جميعًا :

« ان الله تعالى أنزل كتابًا هاديًا بيّن فيهِ الخير والشر فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سمت الشر تقصدوا . الفرائض الفرائض أدوها الى الله تودكم الى الجنة . ان الله حرّم حرامًا غير مجهول واحل حلالاً غير مدخول وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانهِ ويدهِ الاّ بالحق . ولا يحلُّ أذى المسلم الاّ بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس امامكم وان الساعة تحدوكم من خلفكم . تخففوا تلحقوا فانما ينتظر بأولكم آخركم . اتقوا الله في عبادهِ وبلادهِ فانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . واطيعوا الله ولا تعصوهُ . واذا رأيتم الخير فخذوا بهِ واذا رأيتم الشر فاعرضوا عنهُ واذكروا انكم قليلون مستضعفون في الارض » [١]

ولم يكد يتم كلامهُ حتى تصبب العرق عن جبينهِ وانحدر منثورًا كاللؤلؤ على لحيتهِ وكانت بيضاء طويلة لانهُ قلما تعاطى الخضاب [٢] ثم نزل وسار الى منزلهِ فتفرّق الناس واكثرهم فرحون بخلافتهِ وخصوصًا اهل المدينة

---

(١) اسد الغابة (٢) نهج البلاغة

الفصل الثالث والثلاثون

الفرار من المدينة

أما محمد فكان يخامره سرور وقلق لما قام في ذهنه من أمر الحسن واسماء فلما انتهى الخطاب اغتنم الفرصة بانشغال الحسن في المسير مع والده وتجمع الناس حوله لتهنئته وأشار الى اسماء فتبعته وقد ادركت مايجاج ذهنه . وكانت قد لحظت ما في نفس الحسن وقد احبته واستلطفته ولكنها ما زالت على ولاء محمد وهو اول من طرق قلبها . فلما دعاها ان تتبعه سارت في أثره وهي تتجاهل مراده حتى وصلا الى بيت العجوز وكانت قد عادت الى منزلها بالامس بايعاز من محمد . فلما خلا باسماء هناك نظر اليها نظرة لم يخف مغزاها عليها فابتدرته قائلة « ارى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بخليفتهم فلم يعد يحلو المقام فيها »

فلما سمع محمد كلامها عجب لحسن فراستها ورقة احساسها فازداد هيامًا بها ولكنه خاف ان تكون مضمرة غير ما تظهر فقال لها وما الذي بغض اليك الاقامة في المدينة

قالت « بغضها اليَّ ما حبب محمدًا اليَّ »

قال وكيف تتركين عليًا واهله

قالت مالي ولاهله

قال الا تظنين امامة تفتقدك

قالت اظنها تفتقدني وقد يفتقدني غيرها ولكنني لا ابالي باحد

فادرك انها لحظت ما رابه فقال لها لقد تمت المبايعة لعليّ فهو اليوم امير المؤمنين وقد استقام الامر لنا بذلك . ولكننا ننتظر ما سيكون من تبديل عماله على الامصار وتدبر ذلك في حينه . اما الآن فأرى ان تقيمي عند اختي عائشة ام المؤمنين

وكانت اسماء قد علمت منه انها سارت الى مكة لقضاء مناسك الحج وعثمان محصور[1] ولم تسمع انها عادت فقالت « هل عادت ام المؤمنين من مكة »

قال لم تعد بعد وقد قُتل عثمان وتولى علي وهي غائبة وربما تقيم هناك مدة اخرى

---

(1) ابن خلدون ج ٢

(قال ذلك وهو يعلم ان مجيئها قريب ولكنه خاف اذا اعترف بذلك ألاّ تعود ثمت حاجة الى خروج اسماء من المدينة فتضطر للاقامة في بيت علي وغيرته لا تسمح له بذلك)

فقالت اسماء هل اذهب اليها

قال ارى ان تذهبي فتقيمي هناك وتشاهدي بيت الله الحرام وتتفرجي بمشاهد مكة فاذا عادت اختي سريعًا عدتِ معها واذا اقامت طويلاً ذهبتُ انا لاستقدامك ونكون قد عرفنا مصيرنا بعد هذه الخلافة

قالت ان في ذهابي اليها شرفًا عظيماً لا ارى مانعًا فيه ولكن كيف اسير وحدي

قال ارى ان تصحبك هذه الخالة (واشار الى العجوز) فان لها معرفة ودالة عظيمتين على اختي وذهابها معك يغنيني عن كتاب التوصية او نحوه وارسل معكما من يوصلكما اليها . ولكني ارجو ان يكون ذهابك بناء على التماسك رغبةً منك في البعد عن القلاقل . قال ذلك ونظر اليها وهو يبتسم

فهمت اسماء مراده وادركت انه يخاف ان يعلم عليٌّ او الحسن انه هو الذي حملها على المسير . فقالت بل انا الراغبة في المسير الى هناك لاكون بجوار ام المؤمنين . أين جوادي وامتعتي

قال هي هنا عند هذه الخالة فامكثي عندها الى الغد فآتي اليك بمن يسير بك الى مكة قال ذلك وهمّ بالخروج

فقالت له اسماء ولا يبرح من ذهنك اني لا ازال اتوقع ان اسمع الخبر عن مقتل عثمان وتفصيل ما تبرئ نفسك به

قال غدا تلاقين ام المؤمنين فاسأليها عن عثمان وهل هو يستوجب القتل وهي تجيبك بما يغنيك عن سؤالي . الا تقبلين قولها

قالت بلى

قال انها من اول القائلين بقتله ومن قولها « اقتلوا نعثلاً (لقب عثمان) فقد كفر » [1]

فقالت اني صابرة على ذلك فاذا كانت هي القائلة فقولها يكفي

(١) ابن الاثير ج ٣

وتركها محمد ومضى فباتت في هناك تلك الليلة . فجاء محمد في الصباح التالي وقد اعدَّ هجنًا وهودجًا . فلما رأت اسماء الجمال قالت وما ذلك

قال هي جمال ولا يصلح لركوب الصحراء غيرها فان بيننا وبين مكة بضع مراحل والطريق وعر لايصلح للسفر فيه غير الجمال

قالت اعلمُ ذلك ولكنني افضل ركوب الافراس وكذلك فعلتُ في قدومي من الشام وقد خوفوني ركوب الافراس في الصحراء. فأبيتُ الآها

قال لا يحسن ركوبك الفرس ورفيقتك هذه لا تستطيع ركوبه فاركبي الهجن انها اصلح لهذا الطريق واتركي الفرس هنا لاخوف عليه . وقد علمتُ ان رجلاً من اخوال ام المؤمنين من بني الليث واسمهُ عبيد بن ابي سلمة مسافرٌ اليوم الى مكة فعهدت اليه في ان تسيرا برفقته فيوصلكما الى منزل اختي

فتعجبت اسماء لقوله ان الرجل من اخوال اخته ولم يقل من اخواله فسألته عن ذلك . فقال ان عائشة من ام غيرامي التي ذكرتها لك ولم تسمح لك الفرصة ان تريها امس فعسى ان تريها في فرصة اخرى

قال ذلك وامر العجوز فاخذت في اعداد ما يلزم للسفر وجعلت تجمع صررها صرة فيها المشط وصرة فيها السواك وصرة للنعال ونحو ذلك . ولم تمض ساعتان حتى تهيأ كل شيء وجاء عبيد بن ابي سلمة فاوصاهُ بالعجوز والفتاة خيرًا و ودعها

فقالت له اسماء وهي تشدُّ منطقتها حول خصرها وتتهيأُ للدخول في الهودج « متى اراك »

قال ارجو ان اراكِ قريبًا في مكة او ان ابعث اليك فتقدمي الينا متى استقام الامر وهدأت الاحوال وتوسي خاطر اخي الحسن : . قال ذلك بصوت منخفض وضحكَ فضحكت هي وودعته وسارت على ناقتها وقد تلثمت لثام السفر



الفصل الرابع والثلاثون

عائشة ام المؤمنين

ولم تكد اسماء تخرج من المدينة حتى اشرفت على قباء فهاجت اشجانها وتذكرت والدتها فترجلت عند المسجد فلقيها خادمة الشيخ فدعا قريبتهٔ فرحبت باسماء ومن معها · فطلبت اسماء ان تزور قبر والدتها فزارته وبكت عليه بكاء مرًّا حتى كاد يغشى عليها لو لم ينهضها عنه الرفاق · ولما رآها ابن ابي سلمة في تلك الحال اسرع في الترحال فشدُّوا الاحمال وركبوا قاصدين مكة · وتأثر عبيد لما رآهُ من حزن اسماء فاحب تعزيتها فلما اشرف على جبل أُحد وهو على اربعة اميال من المدينة لجهة الغرب (١) احبَّ ان يشغلها بالحديث فقال لها انظري الى هذا الجبل فانهُ جبل أُحد الذي حدثت عندهُ الواقعة الهائلة بين المسلمين ومشركي قريش على عهد النبي · وقصَّ عليها حديث تلك الغزوة

وقضوا في سفرهم هذه ثلاثة ايام فاشرفوا في ظهر اليوم الثالث على جبال مكة في قرية يقال لها سرف على ستة اميال من مكة (٢) فرأوا ركبًا قد وصل حديثًا وفيه ناقة عرف عبيد انها ناقة عائشة وتأكد ذلك لما رأى هودجها وعليه رداء احمر يجللهُ كلهُ · فترجل وترجلت اسماء والعجوز واشتغل العبيد في تدبير النوق وعقلها

اما اسماء فسرَّت برجوع عائشة عاجلاً لعلها ترجع معها الى المدينة فتلتقي بمحمد قريبًا · فقالت للعجوز واين هي ام المؤمنين يظهر انما اسرعت في الرجوع من مناسكها · فالتفتت العجوز يمنة ويسرة حتى وقف بصرها على فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر عند بابه بدويان واقفان · فقالت هذا هو فسطاطها وقد وقف الخدم عند بابه

فقالت وهل نذهب اليها الآن

قالت تمهلي لنرى ما يكون من ابن ابي سلمة ثم سارت العجوز اليه وكان مشتغلاً بعقل ناقته واصلاح حاله وثيابه قبل الدخول الى الفسطاط · فازدادت اسماء تهيبًا من الدخول على ام المؤمنين وقالت للعجوز وهل هي تنوي الاقامة في هذا المكان

قالت يظهر انها على سفر · ثم دنت من قائد جملها فسألتهُ عن سفر ام المؤمنين

(١) صفوة الاعتبار ج ٤ (٢) مراصد الاطلاع ج ٢

فقال انها شاخصة الى المدينة

فقالت اسماء وما العمل الآن هل نرجع معها ام نظلّ في طريقنا الى مكة

قالت سنرى في ذلك متى التقينا بها وهي ترشدنا فاذا امرتنا بالرجوع معها رجعنا او ارادت ان ندخل مكة دخلنا

قالت هل ننتظر رفيقنا لندخل معهُ ام نسبقهُ اليها

قالت أرى ان تدخل قبلهُ مخافة ان تكون هي مسرعة في القيام فلا يمكن من مخاطبتها

قالت وهل تعرفينها قبلا

قالت اعرفها جيدا وقد عشتُ في منزل والدها رحمهُ الله وكثيرًا ما حملتها على عاتقي وهي طفلة فاني احنُّ اليها حنو الوالدة

قالت فلندخل عليها

قالت هلم بنا ومشت امامها

فتبعتها اسماء حتى دنتا من الفسطاط فاستأذنتا في الدخول فأُذن لها . فدخلتا وكلاهما هائبة الوقوف بين يدي زوج النبي

اما اسماء فكانت على شجاعتها وثبات جاشها قد شعرت عند دخولها الفسطاط بخفقان قلبها وزاد خفقانهُ حتى احمرَّت وجنتاها ثم امتقع لونها رهبةً من لقاء ام المؤمنين

وكانت عائشة جالسة الارتباء على وسادة من الخز في صدر الخيمة . فنظرت اسماء اليها فاذا هي ربعة ممتلئة الجسم عيناها تتلألآن صحة وذكاء فوقهما حاجبان متقاربان يشيران الى ما اودعهُ الخالق فيها من الانفة والهيبة . وقد تجلببت بجلباب من الحرير يغطي كل اثوابها فوقهُ نقابٌ يكسو رأسها فيزيدهُ جلالا وعظمة

فاستأنست اسماء بنظرها لمشابهتها محمدا اخاها حتى لايشك الناظر اليها انها اختهُ . وكانت قد علمت قبل دخولها عليها انها في نحو الثالثة والاربعين من عمرها فلما رأتها خيل لها انها في ما دون الثلاثين لما في وجهها من نور الصحة والجمال

فلما دخلتا الخيمة حيتاها وهمّت العجوز بتقبيل يدها فمنعتها عائشة وقالت اهلاً بك يا خالة اهلا بك وامرتها بالجلوس فجلست وتقدمت اسماء بوقار وحشمة وقبّلت يدها ووقفت متأدبة حتى اذنت لها بالجلوس فجلست مطرقة لاتتكلم وقد ذهبت عنها جسارتها لهول ذلك اللقاء

فنظرت عائشة الى العجوز وابتسمت ابتساماً يكاد يكون اغتصابياً كأن في نفسها امرًا تخوفه او كانها مشتغلة الخاطر بامر هام . ثم قالت « مرحباً بك يا خالة ما الذي جاء بك الى هذا المكان كيف فارقت محمداً »

قالت فارقته في خير وعافية وقد بعثني اليك بهذه الفتاة لتقيم عندك وديعة له ريثما يأتي . قالت ذلك وتبسمت

فنظرت عائشة الى اسماء فاعجبها ما فيها من الجمال والهيبة وادركت ما علا وجهها من اظلال الحياء عند ذكر محمد انها تحبه فتبسمت ونظرت الى العجوز فاشارت العجوز بعينيها اشارة اكدت ظنها

فقالت لاسماء اهلاً بالضيفة العزيزة وديعة اخي فانت اذاً اختي

فبالغت اسماء بالاطراق خجلاً وتوردت وجنتاها ولم تجب

فقالت عائشة اظنكما جئتما لتقيما عندي في مكة

قالت العجوز نعم يا مولاتي

قالت ولكنني شاخصة الآن الى المدينة على ان ذلك لا يمنع مسيركما الى منزلي بمكة ريثما اعود او اذا شئتما سرتما معي الى المدينة . ثم التفتت الى اسماء وقالت مابالك لا تتكلمين يا اسماء

فرفعت اسماء راسها وقالت « لي عذر بتلعثم لساني لمثولي بين يدي ام المؤمنين زوج الرسول (صلعم) »

فابتدرتها عائشة قائلة ولكنك ستكونين من ذوي قربانا باذن الله فلا يجب ان تتهيبي . اهلاً بك ومرحباً

فقالت العجوز وهي تريد ان تعبث باسماء « واخبر مولاتي ان اسماء بنت يزيد الاموي من بني امية لم تأتِ المدينة الا منذ بضعة اشهر وكانت مقيمة في الشام فهي لا تعرف عادة اهل الحجاز »

فقالت عائشة مهما يكن من اصلها فهي لا تلبث ان تصير حجازية



الفصل الخامس والثلاثون

انقلاب سريع

وسكتت عائشة هنيهة وهي مقطبة الوجه ثم استأنفت الحديث قائلة وهل جئتما في رفاق ام مع قافلة

قالت انما جئنا مع عبيد بن ابي سلمة احد اخوالك

فلما سمعت عائشة اسمهُ اجفلت بغتة وقالت واين هو

قالت هو آتٍ قريبًا

فلم تصبر عائشة على انتظاره فنادت بعض الذين في بابها وامرتهُ ان يأتي بهِ وأرخت النقاب ولبثت صامتة وهما صامتتان هائبتان حتى دخل عبيد . فلما دخل همَّ بتقبيل يد عائشة فمنعتهُ وقالت اهلاً بالخال قل ما وراءك كيف فارقت المدينة

قال فارقتها وقد قُتل عثمان وبقوا ثمانيًا

فلما سمعت ذلك اقطبت حاجبيها وظهر الغضب على وجهها فتفرست في عبيد والشرر يكاد يتطاير من حدقيتها واسماء تراقب ذلك فيها من خلال النقاب وقد ذهلت لما بدا منها

اما عائشة فلم تصبر على اتمام حديثهِ . فقالت وهي كأنها تحفز للنهوض « ثم صنعوا ما ذا »

فلم يستغرب عبيد ما بدا منها ولعلهُ كان يتوقعهُ فقال « اجتمعوا على بيعة علي »

فهبَّت عائشة من مجلسها ثم وقفت برهة واطرقت وقد امسكت طرف نقابها وشدتهُ كأنها تصلحهُ ثم رفعت رأسها بغتة واشارت بيدها الى السماء ثم الى الارض وقالت « ليت هذه انطبقت على هذه ان تمَّ الامر لصاحبك » قالت ذلك وخرجت مسرعة وهي تقول « ردوني ردوني الى مكة . قُتل والله عثمان مظلومًا والله لاطلبنَّ بدمهِ » فبغتت اسماء لما رأت من اهتمام عائشة في الامر الى هذا الحد وساءها ما سمعتهُ من التعريض بعلي ولكن التهيب منعها عن الكلام

اما عبيد فما زال ثابت الجاش والظاهر انهُ كان على بينة مما سيبدو من ام المؤمنين فاعدَّ لكل خطاب جوابًا فاستوقفها وقال لها « ولمَ والله ان اول من امال

حرفهُ لا متِ[١] ولقد كنتِ تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر »[١] ألم تخرجي قميص رسول الله (صلعم) وشعرهُ لما علمتِ باعمال عثمان وتقولين « هذا قميصهُ وشعره لم يبلَ وقد بلي دينهُ »[٢]

فلما سمعت عائشة ذلك حولت وجهها نحوهُ وقالت « انهم استتابوهُ ثم قتلوهُ وقد قلت وقالوا وقولي الاخير خير من قولي الاول » قالت ذلك وامرت رجالها ان يهيئوا الاحمال للرجوع الى مكة . فنظر اليها عبيد وهي خارجة وانشد

فمنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وانتِ أمرتِ بقتل الامام * وقلت لنا انهُ قد كفر
فهبنا اطعناك في قتلهِ * وقاتلهُ عندنا من امر
ولم يسقط السقف من فوقنا * ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا * يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب اثوابها * وما من وفى مثل من قد غدر

فلم تعبأ عائشة بقولهِ فتركها وانصرف

اما اسماء فلبثت هي والعجوز وكأن على رأسيهما الطير لا تبديان خطاباً . وكانت اسماء قد همت بجواب عائشة ولكنها خافت غضبها فرأت من الحكمة والتعقل ان تؤجل ذلك الى فرصة اخرى

فلما تهيأت الاحمال بعثت عائشة الى العجوز واسماء فركبتا معها وسار الجميع قاصدين البيت الحرام واسماء صامتة وقد ادهشها ما رأتهُ من تغير عائشة بغتة لامر لم تكن تتوقعهُ . على انها مالت كل الميل لسماع الادلة على صحة قولها في مقتل عثمان وهو الامر الذي ما زال يشغل بالها ولكنها كانت من الجهة الثانية تخاف ان يثبت قتلهُ ظلماً فيحدث ما يدعوها الى التباعد عن محمد وقلبها لا يطاوعها على ذلك . فقضت مسافة الطريق غارقة في هذه الهواجس ولم تنتبه الا وقد اطلت على مكة فاشرفت على الكعبة وهي في وسطها كأنها ملكٌ وسائر الابنية حولها اجنادٌ . ولم يمضِ قليل حتى وصل ركبهم الى مسجد الكعبة فترجلت عائشة من هودجها وترجل الجميع وسارت هي توًّا الى الحجر[٣] فاستترت فيهِ . وهو مصطبة محوطة بحائط الى دون الصدر منهُ

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابو الفداء ج ١ (٣) ابن الاثير ج ٣

ما تركت قريش من الكعبة واقتصرت في بنيان الكعبة عنهُ [١] ويقال ان فيهِ قبر سارة . فلما رأتها اسماء دخلت الحجر دخلت هي في اثرها والعجوز معها ولكنها لم تكلماها لعظم ما هالها من غضبها

الفصل السادس والثلاثون

﴿ الطلب بدم عثمان ﴾

وما كادت عائشة تدخل الحجر حتى اجتمع الناس حولها وفي مقدمتهم عبدالله ابن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة . وشاهدت اسماء بينهم جماعة من بني امية ممن غادر المدينة بعد مقتل عثمان لكن مروان لم يكن معهم . أما عائشة فلم تصبر على ما همُّوا بهِ من التحية والاجلال فوقفت فيهم وقالت وهم سكوت يصغون لمقالها وكانت جهورية الصوت [٢] « ايها الناس ان الغوغاء من اهل الامصار واهل المياه وعبيد اهل المدينة . اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلمًا ونقموا عليهِ باستعمال من حدثت سنهُ وقد استعمل امثالهم من كان قبلهُ ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذرًا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام واخذوا المال الحرام . والله لاصبع عثمان خير من طباق الارض امثالهم ولو ان الذي اعتدوا بهِ عليهِ كان ذنبًا لخلص منهُ كما يخلص الذهب من خبثهِ او الثوب من درنهِ » [٣]

فما اتمت كلامها حتى هاج الناس وماجوا . ثم تصدّى عبدالله بن عامر الحضرمي وقال والناس يسمعون « ها انا اول طالب » وكان هو اول من اجاب الدعوة الى الطلب بدم عثمان

وكانت اسماء لاتزداد من ذلك الاَّ تعجبًا ولم تفقه لهذا الامر سببًا معقولا . فالتفتت الى العجوز بجانبها فرأتها صامتة مطرقة وقد امتقع لونها وارتجفت شفتاها فلما رأت اسماء تنظر اليها عضت على شفتها تلتمس سكوتها فأدركت اسماء ان في الامر سرًّا لا تستطيع ان تبوح بهِ

(١) مراصد الاطلاع (٢) ابن الاثير ج ٣ (٣) ابن خلدون ج ٢

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فاشارت عائشة الى الناس ان ينصرفوا فتفرقوا وخرجت هي تلتمس منزلها وسارت اسماء في أثرها وقد نفد صبرها لاندهاشها مما رأته في ذلك اليوم من الغرائب وقد عوّلت ان تغتنم اول فرصة للاستفهام عن سبب ذلك

فوصل الجميع الى منزل عائشة في العشاء فمدت لهم الاطعمة فتناولوا العشاء ولم تجرأ العجوز ولا اسماء على مجالستها في تلك الليلة فباتتا في بعض حجر المنزل واسماء تنتظر الغد لتقابل عائشة وتستطلعها الحقيقة

فلما اصبح الصباح نهضت اسماء والعجوز . فلما جلستا قالت اسماء لقد ادهشني امرٌ لم يبق لي صبرٌ على السكوت عنه وليس لي من يفرج كربتي سواك

قالت قولي ما تريدين

قالت لقد سمعت من ام المؤمنين كلاماً يؤخذ منه المجاهرة بعداوة امير المؤمنين علي بن ابي طالب والذي اعلمه ان علياً ابن عم الرسول (صلعم) وعائشة زوجة الرسول وقد كنت اتوقع وفاقاً بينهما على صلاح الامة فرأيت بالعكس ولم افهم السبب

فتنحنحت العجوز واجالت بعينيها وانهضت كتفيها كأنها تقول « لا يعنيني » او « لا يهمني البحث في ذلك » . اما ملامح وجهها فكانت تدلّ على انها تعرف سبباً تحاول كتمانه فتوسلت اليها اسماء ان تفصح لها عنه

فلما الحّت عليها قالت ان في الامر سرّاً قلّ من يعرفه سواي ولكنني اخاف ان ابوح به

فاشتاقت اسماء لسماع السبب وجرّت نفسها على البساط حتى التصقت بها وقالت بالله ألا فرّجت كربتي بكلمة واني اعدك بالكتمان

فالتفتت العجوز يمنة ويسرة وهي تحاذر ان يسمعها احدٌ وادنت شفتيها من اذن اسماء وهمّت بالكلام ثم اجفلت بغتةً ورجعت عنها واصغت فاذا هي تسمع صوتاً خارج الغرفة فاصغتا فسمعتا وقع اقدام خفيفة فابتعدت العجوز اخفاءً لما كانت تهمّ به ثم سمعتا قارعاً يقرع الباب وجارية تناديها فنهضت وفتحت الباب فدخلت الجارية واذا هي حبشية فحيتها ثم قالت ان مولاتي ام المؤمنين تدعوكما الى غرفتها

الفصل السابع والثلاثون

الامام علي ومقتل عثمان

فسرّت اسماء لهذه الدعوة على امل ان نتمكن من استطلاع شيء فنهضنا ودخلنا عليها فاذا هي جالسة على طنفسة من السجاد الثمين وقد خلعت الجلباب فبانت اثوابها الزاهية فزادتها رونقاً وبهاء وبان معصماها وعنقها وعليها الدمالج والاساور والعقود ما يذهل البصر ويزيدها جمالاً . على انها كانت لا تزال مقطبة الوجه وقد علتها الهيبة فلما دخلنا قبلنا يديها وجلسنا على وسائد من الدمقس الملوّن بالقرب منها . فلبثت برهة لا تتكلم ثم قالت وهي توجه خطابها الى العجوز « كيف قتلوا عثمان يا خالة »

قالت قتلوهُ في دارهِ بعد ان احرقوا الباب والسقيفة ودخلوا عليهِ عنوة

قالت ومن قتلهُ وكيف

فسكتت العجوز برهة ثم قالت لا اظنني قادرة على وصف تلك الواقعة كما تصفها اسماء وقد شهدتْ القتل بنفسها لانها كانت في دارهِ ساعة مقتلهِ

فحوّلت عائشة نظرها الى اسماء باهتمام وقالت « هل كنت في الدار ساعة القتل »

قالت نعم يامولاتي

قالت وكيف كان ذلك

فشقَّ على اسماء ان تقصّ الواقعة كما جرت لانها تمسُّ محمدًا ولكنها لم ترَ بدّا من الجواب فقالت ان الحديث لو اردتُ بسطهُ لطال بنا المقام ولكنني اقول بالاختصار انهم استتابوهُ كما قلتِ فتاب ثم رجع ولقد نصح لهُ عليٌّ ان يصمَّ اذنيهِ عن سماع مشورات كاتبهِ وابن عمهِ مروان فلم يصغِ فعاد الى ما كان عليهِ وعلم الثائرون ذلك فطلبوا اليهِ ان يسلمهم مروان ويعودوا فأبى فهمُّوا بمنزلهِ ودخلوهُ عنوة وقتلوهُ

قالت ومن قتلهُ

قالت اثنان لا اعرفهما ولكنهما من صعاليك العرب ليس احد منهما من الصحابة او اولادهم

فتأوهت عائشة وحرقت اسنانها وقالت وكيف يقوى الصعاليك على قتل الخليفة

وكبار الصحابة ينظرون ولا يحركون ساكنًا ولا يدافعون عنه بسيف او لسان

فلم ترَ اسماء بدًّا من الدفاع فقالت انهم يا مولاتي قد دافعوا عنه جهدهم واعلمُ ان عليًّا ارسل ابنيهِ الحسن والحسين الى دار الخليفة وكذلك فعل سائر الصحابة ولقد رأيتهم هناك يدفعون الناس عن بابهِ حتى تلطخ وجه الحسن بالدم · ولكن الخليفة رحمهُ الله منعهم عن الدفاع واستحلفهم ان لا يفعلوا

فتبسَّمت عائشة ابتسامًا ينفثُ عن استخفاف بحديث اسماء وقد استغربت اعتقادها دفاع الصحابة عن عثمان وقالت أتصدقين ان عليًّا لو اراد ان يدفع الناس عن عثمان لم يستطع دفعهم · ولكنهُ فعل ما فعلهُ · · · · وسكتت كأنها ضاقت ذرعًا عن الخوض في تفاصيل الموضوع ولم تكد تهمُّ باتمام الحديث حتى ابتدرتها اسماء قائلة اسمحي لي يا مولاتي ان اؤدي شهادة لا استحي ان اصرح بها امام الديَّان العظيم · ان عليًّا بريءٌ من دم عثمان بل هو اول ناقم على هذه الفتنة لاعتقادهِ انها ستكون سببًا في تشتت شمل الاسلام ويظهر ان اعتقاده كاد يتحقق لا سمح الله

قالت اراكِ يا بنيَّة تنظرين الى ظواهر الامور دون بواطنها أيُعقل ان عليًّا بما لهُ من النفوذ في اهل المدينة اذا اراد الدفاع عن عثمان لا يستطيعهُ

قالت عرفتُ يقينًا انهُ اول غاضب على القائمين بهذه الثورة ولقد سمعتهُ ذات ليلة يناجي رسول الله (صلعم) على قبرهِ يشكو اليهِ ما اصاب امتهُ من التشتت بعدهُ وكان وجودي هناك صدفةً فسمعت كلامًا يتفتت لهُ الصخر يتخللهُ شهيق البكاء اسفًا على حال الاسلام · ان عليًا يامولاتي مخلصٌ في قولهِ وفعلهِ ولا لوم عليهِ ولعلك اذا وجَّهت اللوم على القاتلين او المحرضين على القتل ان تجدي وجهًا للوم · قالت ذلك وهي لا تزال هائبة موقفها بين يدي ام المؤمنين فما اتمت كلامها حتى تصبب العرق من جبينها

فهبَّت عائشة من مجلسها وقالت وقد اخذ منها الغضب مأخذًا عظيماً · ان اولئك القتلة قد ارتكبوا اثمًا عظيماً لا مشاحة فيهِ ولكن معظمهم لا يدركون عاقبة ما يعملون وانما حرضهم على هذا المنكر شيوخهم ورؤَساؤهم فانك تجهلين امورًا اعلمها ولا اجهل شيئًا تعلمينهُ · · · وسكتت برهة واسماء مطرقة وقد حارت في الجواب · فاستأنفت عائشة الحديث فقالت « ولقد بلغني ان اخي محمدًا كان في جملة المغرورين » ثم خفضت صوتها وقالت وهي تلقي يدها على الوسادة لتتكي عليها « ولكنهُ لايلام لانهُ ربيب علي »

فلما سمعت اسماء ذلك ثارت في قلبها نار الغيرة وارادت الدفاع عن محمد فخافت ان ترتكب الكذب فلبثت صامتة ونظرت الى العجوز فرأتها قد تغيرت سحنتها خوفًا ورهبة وظلّ الجميع سكوتًا برهة لاتتفوه احداهن بكلمة حتى عادت عائشة الى الكلام فنظرت الى اسماء وقالت وهي تحاول اخفاء غضبها وتسكين عواطفها « لا أنكر ان عثمان اخطأ في بعض احوال تصرفهِ في خلافتهِ ولكنهُ خطأ لايستوجب عليهِ غير اللوم والنصيحة لا القتل »

فاحبّت اسماء ان تسمع رأي عائشة في ما ارتكبهُ عثمان من الخطأ فقالت « وهذا ما سمعتهُ من اخيك محمد ولكنهُ يعتقد ان خطأهُ اعظم من ذلك كثيرًا »

قالت وقد عادت الى الغضب ان محمدًا لا يعرف ما اعرفهُ ولو حضر الآن لجادلتهُ في الامر و بينت لهُ خطأهُ بالبرهان» . ولم تكد تتم كلامها حتى دخلت بعض الجواري وهي تقول ان بعض الامراء في الباب . فلما سمعت اسماء ذلك نظرت الى عائشة فرأتها توقفت عن رد الجارية فادركت انها راغبة في مقابلة القادمين فنهضت واستأذنت في الانصراف الى حجرتها فأذنت لها وخرجت العجوز في اثرها وكلاهما صامتان تفكران فيما سمعتاهُ

الفصل الثامن والثلاثون

﴿ البرداء ﴾

واحسّت اسماء حال خروجها بقشعريرة شديدة ولم تكد تصل حجرتها حتى اصابتها البرداء فالتمست الفراش والبرداء تتزايد في اعضائها فلحقتها العجوز واجلستها في الفراش وجلست هي الى جانبها وجست يدها فاذا هي باردة كالثلج فغطتها بالاحرمة والالحفة وهي لاتزداد الاَّ انتفاضًا فانشغل بال العجوز وسألتها عما تشعر بهِ فقالت انها تحسُّ بارتخاء في اعضائها وارتعاش في كل جوارحها . قالت ذلك واسنانها تتصادم لشدة الارتعاش . فارادت العجوز ان تخفف عنها فقالت لها لا بأس عليك يا بنية اظنك اصبتِ بذلك على اثر التعب الذي قاسيناهُ في اثناء الطريق

فلم تجبها اسماء وغلب عليها السكوت فلبثت صامتة والعجوز الى جانبها تفكر في حيلة تخفف بها عنها ولم يمض قليل حتى خفّت عنها الرداء واحمرّ وجهها احمراراً شديداً . فجستها العجوز فاذا هي شديدة الحرارة فخففت الاغطية عنها وخرجت تستشير اهل الدار في علاج تصفه لها . فاشارت عليها بعض النساء بعسل تشربه ممزوجاً بالماء فجاءتها بقدح من مزيجه فلم ترض ان تتناول منه شيئاً . فتقدمت اليها وقبلتها في جبينها وتوسلت اليها ان تشرب ذلك العسل فلم تجبها ثم ما لبثت ان رأت الدموع تتناثر من عينيها وهي تحاول امساكها . فتجاهلت العجوز والحت عليها ان تشرب فلم تزدد اسماء الا بكاء ولم تعد تتمالك عن الشهيق وقد احمرّت عيناها وذبلت اجفانها واشتدت عليها الحمى اشتداداً عظيماً

فحارت العجوز في امرها وودّت ان تخبر ام المؤمنين بذلك ولكنها تذكرت اشتغالها بمن قدم عليها من الامراء فلبثت بجانب الفراش تنظر الى اسماء وبكائها ولا تتكلم

ثم سكنت اسماء واغمضت جفنيها كأن النعاس قد غلب عليها ففرحت العجوز بمنامها فتركتها وخرجت لعلها تلقى من تستشيره في معالجتها ولم تكد تخرج حتى سمعت اسماء تتكلم فظنتها تدعوها فأسرعت اليها فاذا هي تهذي وقد كشفت الغطاء عنها وانحسر درعها وقميصها عن صدرها وتكمشت اكمامها لفرط تقلبها وهي غارقة في النوم فارادت العجوز ان تغطيها وتصلح اثوابها فخافت ان تستيقظ ولكنها دنت من الفراش لترفع الغطاء الى صدرها فرأت الحجاب في عنقها ورسم الصليب على معصمها . فبغتت وتأملت وجهها فانتبهت الى شيء فيه غير ملامح العرب المحضة واعادت النظر الى الرسم على معصمها فاذا هو رسم الصليب وتحققت ان الحجاب من احجبة النصارى فاستغربت الامر ثم تذكرت ان اسماء قلّما كانت تبالي بالتحجب في مخاطبتها محمداً او غيره فقالت في نفسها هل هي نصرانية ام ربيت بين النصارى في الشام

وكانت اسماء في اثناء ذلك ساكتة مستغرقة في النوم وقد أُطبق جفناها وتوردت وجنتاها واسرع تنفسها من شدة الحمى حتى كانت تتنفس لهثاً وفمها مفتوح فازاحت الغطاء الى صدرها خوفاً عليها من البرد فسمعتها تهذي فاصغت لهذيانها لعلها تستطلع شيئاً من سرّها فاذا هي تقول « أمّاه يا اماه يا مريم . . . آه يا عليّ يا ابا

الحسن كيف ضاع ذلك السرّ .... تعال يا حبيبي يا محمد ... لا لا اذا كنتَ قتلتَ عثمان فانت بعيدٌ عني .... لا لابل تعال يا منيتي ورجائي ان اسمك آخر لفظ خرج من بين شفتي امي قبل وفاتها .. آه يا اماه .. من هو ابي اخبرني. قولي لي هل هو حيٌّ بعد ام سبقك الى العالم الآخر ... » ثم خنفت صوتها وتجلج لسانها فلم تعد تفهم العجوز شيئًا من كلامها واخيرًا سكنت سكونًا تامًّا واستغرقت في النوم. فجلست العجوز بالقرب من الفراش وهي تودُّ ان تجسها لتتحقق حال الحمى ولكنها خافت ان تزعجها فلبثت صامتة تفكر بما سمعتهُ منها وتعجب لجهلها والدها

الفصل التاسع والثلاثون

﴾ أُم الفضل ﴿

وفيما هي في ذلك اذ جاءت بعض الجواري مسرعة وهي تقول « ان ام الفضل قادمة لتراك »

فلما سمعت اسم ام الفضل تحفزت لملاقاتها وقد سرَّت بقدومها. وبعد هنيهة اقبلت ام الفضل تمشي الهوينا لا يُسمع لمشيها صوت . وكانت في نحو الستين من عمرها فهمَّت العجوز وحيتها وقبلتها ودخلت بها الى الغرفة ودعتها للجلوس على البساط

فقالت ام الفضل وهي لم تنظر الى فراش اسماء بعد « اني اشمُّ في هذه الحجرة رائحة الحمَّى والتفتت الى الفراش وقالت من هو المريض عندك »

قالت لقد جئتِني في ساعة ضيق فعساكِ ان تفرجي عني

قالت انما جئت لأسألك عن مقتل الخليفة رحمة الله وما آل اليهِ الامر بعدهُ فقد همني امرهُ كثيرًا وسمعت بقدومك فاسرعتُ اليك . فاخبريني اولاً من هو المريض معك

قالت هي فتاة جئت بها من المدينة بايعاز من ابن اخيك محمد بن ابي بكر لتقيم بضعة ايام عند اخته ام المؤمنين ريثما نرى ما يكون

قالت وما علاقة ابن اخي بها

فالتفتت العجوز الى فراش اسماء وهي تخاف ان تستيقظ فتسمع كلامها ودنت من ام الفضل وهمست في اذنها انهُ ينوي ان يكتب كتابةً عليها

وارادت ام الفضل ان تستفهم العجوز عن تفصيل مقتل عثمان فاذا باسماء تتأوه ثمَّ ادارت رأسها نحوها وفتحت عينيها . فنهضت العجوز اليها وجسَّت يدها فاذا هي مبللة بالعرق وقد خفَّت الحمى قليلاً فقالت لها كيف ترين نفسك يا بنية

فاشارت برأسها وعينيها انها في راحة ثم رأت ام الفضل فاستحيت منها وارادت الجلوس فنهضت ام الفضل اليها وهي تقول لا تزعجي نفسك يا ابنتي . قالت ذلك ودنت منها

فتوسطت العجوز بينهما وقالت اظنك تستأنسين بلقاء ام الفضل وهي لبابة خالة محمد بن ابي بكر اخت امهِ وازيدك تعريفًا بانها اول من اسلم بعد خديجة وهي ايضًا زوج العباس عم النبي واخت ميمونة زوج النبي (صلعم) ومن اولادها عبد الله ابن عباس من خاصة امير المؤمنين علي بن ابي طالب بل هو ابن عمهِ وابن عم الرسول (صلعم) واظنك شاهدتهِ غير مرة في مجلس علي او لعلك رأيتهِ في دار عثمان فقد تردد اليهِ وهو محصور حتى انتدبهُ ان يحج بالناس [1]

فلما سمعت اسماء انها خالة محمد استأنست بها ولما علمت انها زوج عم النبي وام عبد الله ابن عباس زاد احترامها لها فجلست وهي تمسح العرق عن جبينها ورحبت بها فاسرعت ام الفضل وقبلتها وقالت اهلاً بك كيف فارقت محمدًا

فعجبت اسماء لسؤالها عن محمد وهي تحسبها لا تعرف علاقتها بهِ . فلما رأت العجوز استغرابها ضحكت وقالت لا تستغربي يا اسماء ما تسألك عنهُ لانها عالمة بكل شيء وهل يخفى القمر

فاطرقت اسماء خجلاً ولم تجب

فجلست ام الفضل الى جانب العجوز على البساط بالقرب من الفراش وقالت لها بصوت منخفض كأنها تحاذر ان يسمعها احد « هل قابلت ام المؤمنين وكيف لقيتها »

قالت لقيتها ناقمة على قتلة عثمان ولا ادري ما تنوبهِ

قالت علمتُ انها في يوم وصولها مكة دعت الناس للطلب بدم عثمان وكان اول

(١) ابن خلدون

من اجابها منهم عامل هذه المدينة

قالت نعم انها فعلت ذلك وقد شهدتُ كلامها وكلامهُ ومعي اسماء ولكنني لا اظنها تنوي اخراج ذلك من القوة الى الفعل

فابتسمت ام الفضل ابتساماً يمازجه استغرابٌ وقالت « وما الذي حملك على هذا الظن » والتفتت الى اسماء فرأتها مشتغلة بالالتحاف وقد أحست بقشعريرة على اثر نهوضها وجسمها مبلل بالعرق . فادنت ام الفضل فمها من اذن العجوز وخفضت صوتها وقالت « ألعلك تجهلين ما في نفسها على امير المؤمنين »

فعضت العجوز على شفتها واشارت بعينيها انها لا تريد الخوض في هذا الشأن امام اسماء مع انها ارادت ان تطلعها عليهِ مرةً ولكنها ندمت وبدلت الموضوع وقالت « اذن تظنين انها تنوي اخراج ذلك الى حيز الفعل »

فتطاولت ام الفضل بعنقها نحو الباب حتى أطلت على الدار مخافة ان يكون احدٌ قريبًا فيسمع كلامها وقالت « لا بد لها من ذلك فان اهل مكة يدٌ واحدة في هذا الامر وفيهم بنو امية الذين هربوا من المدينة وعلمت ان الزبير وطلحة قادمان الى هنا وكل منهم طامع في الخلافة لنفسهِ وقد سار قومٌ لاستحثاث اهل البصرة وآخرون للكوفة وغيرهم لتحريض اهل اليمن وآخرون الى الشام »

فابتدرتها العجوز قائلة اما اهل الشام فلا يحتاجون الى تحريض وفيهم معاوية ابن عم عثمان رحمهُ الله وقد حملوا اليهِ قميص عثمان الملطخ بالدم واصابع نائلة ليهيجوا اهل الشام على القاتلين

فتنهدت ام الفضل وتأوهت وقد عظم عليها ما تخوفهُ من عظم الفتنة حتى تناثر الدمع من عينيها وظلت صامتة

الفصل الاربعون

﴾ دعوى الناس على عثمان ﴿

واما اسماء فكانت في اثناء ذلك مضطربة الحواس تسمع الحديث ولا تقوى على جواب فلما رأت ام الفضل تبكي تذكرت بكاء عليٍّ عند قبر النبي في تلك الليلة التي رأت

فيها محمدًا لاول مرة . فانتقل ذهنها الى محمد وما يعترض آمالها فيهِ من امر التبرءُ من مقتل عثمان . وكانت لما سمعت كلام عائشة قد اقبلت على محمد وكادت تحقق ما سمعتهُ لو لم يقم في قلبها ما يبرئهُ وهو الحب ... على انها ما زالت تودُّ سماع دفاعهِ او دفاع من يقول بقولهِ ويرى مقتل عثمان . فلما رأت سعة علم ام الفضل في تاريخ الاسلام وقد رافقت كل حوادثهِ وتتبعت اسبابها ونتائجها كلمتها بصوت مختنق من تأثير الضعف والحمّى فانتبهت ام الفضل واصغت لمقالها . فقالت اسماء ان في نفسي شيئًا لا صبر لي عليهِ

قالت وما هو

قالت لقد شهدتُ مقتل الخليفة عثمان رحمهُ الله وسمعت دعوى الناس عليهِ ولكنني تحققت من حوادث كثيرة انهم ظلموهُ وان الذنب ليس لهُ وانما هو لمروان ابن عمهِ فقد كان كاتبهُ يتصرّف في شؤونهِ كيف شاء . ولكن ابن اختك (تريد محمدًا ولم تذكر اسمهُ حياء) يزعم انهُ يستوجب القتل ولقد جادلتهُ في الامر فوعدني بتأييد رأيهِ في فرصة اخرى

فلما سمعت ام الفضل كلامها تنهّدت ثم قالت لقد وقعتِ على خبير فاني اعرف عثمان قبل اسلامهِ واعرف ترجمة حالهِ ما استترمنها وما ظهر وهي لا تخلو مما يهيج الاحزاب عليهِ وينشئُ الضغائن واظنهُ لو مُني بوزير او مشير عاقل او كاتب غير مروان لما بلغ الامر الى ما بلغ اليهِ . واليك ما ارتكبهُ عثمان مما هاج غضب الصحابة عليهِ

(١) ان الصحابة كما تعلمين هم الذين قاموا بنصرة الاسلام وتأييد دعوتهِ منذ اول ظهورهِ فهم اولى من سواهم بولاية الامصار وتولي الاعمال وكانوا كذلك على عهد صهري رحمهُ الله وعهد الامام عمر بعدهُ فلما تولى عثمان عزل اولئك الصحابة وولّى آخرين من ذوي قرابتهِ كما فعل بعمرو بن العاص في ولاية مصر وهو الذي فتحها وغرس الاسلام فيها فعزلهُ وولّى مكانهُ اخاهُ عبد الله بن ابي سرح (اخا عثمان من الرضاعة) وعبدالله هذا كان في جملة الذين ارتدوا بعد اسلامهم ولحق بالمشركين فاهدر النبي دمهُ وعثمان أخذ لهُ الامان بعد فتح مكة

(٢) ان عثمان أسرف اسرافًا شديدًا ببيت المال وكان يعطي منهُ اناسًا من

قرابته طردهم النبي (صلعم) ولا يغرنك ما يقال عن تقشفه وزهده في طعامه

(٣) انه اساء جماعة من اعلام الصحابة وذوي المقامات السامية في الاسلام منهم عبدالله بن مسعود وابو ذر الغفاري ونفاهم عن اوطانهم وانتهك حرمة كعب بن عبدة البهزي وحرمة الاشتر النخعي في امور يطول شرحها

(٤) انه زاد كثيرًا من الضرائب على الاسواق وحمى سوق المدينة في بعض ما يباع ويشترى فقال لا يشتري منه احد النوى حتى يشتري وكيله ويفرغ من شراء ما يحتاج اليه عثمان . وحمى البحر من ان تجري فيه سفينة الاّ في تجارته

(٥) انه اقطع اصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الاسلام مما لم يكن له فعله[١]

وهناك امور اخرى نسوها اليه كمخالفة الجماعة في اتمام الصلاة بمنى وانفراده باقوال شاذة ونحو ذلك

ولكن لاصحابه حججًا يدافعون بها عنه وهي طويلة لو اوردت ذكرها لطال بنا الكلام[٢]

وكانت ام الفضل تتكلم بصوت منخفض واسماء تتطاول نحوها وكلها آذان لسماع حديثها فاطمأَن بالها لانها رأت لمحمد عذرًا في عمله وهي ميالة من بادىء الرأي لتبرئته فأَحسَّت عند سماع كلام ام الفضل كأَنها القت عن ظهرها حملاً ثقيلاً . ولكنها تعبت من الاصغاء واحست بدوار وغثيان فاستلقت على ظهرها وقد امتقع لونها ولم تفه بكلمة فلما رأَت العجوز اصفرارها علمت انها أُصيبت بدوار من شدة الجوع لانها لم تذق طعامًا في ذلك اليوم . فنادتها فأَجابت ولم تفتح عينيها لشدة الدوار . فقالت لها العجوز ألا تشربين قليلاً من العسل فانه دواءٌ شافٍ لك

فأَشارت اسماء بحاجبيها ان « لا » ولم تتكلم فحارت العجوز في امرها واستشارت ام الفضل في ماذا تفعل

فقالت دعيها تنام الآن

فصبرت حتى تحققت انها نامت فتركتها في الغرفة وخرجت وام الفضل معها ولم يبق لها صبر على تفصيل حادثة عثمان . فنزلتا من الدار وعائشة لا تزال في غرفتها وعندها

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) في تاريخ الخميس بعد ذكر مقتل عثمان كلام طويل في ما ادعوهُ عليهِ والدفاع عنهُ فلتراجع هناك

الامراء فتحولنا الى بستان فيهِ نخلات متقاربة تحتها ظلٌّ كثيف فشاهدنا هناك خيولاً وجمالاً ومعها الخدم وقد شدوها الى جذوع النخل فتحولنا الى نخلات منفردة في طرف البستان جلسنا اليها واخذت العجوز تقص ما تعرفهُ عن مقتل عثمان وكلاهما تحاذران ان تعلم ام المؤمنين بما يدور بينهما

فلما فرغت العجوز من حديثها قالت ام الفضل رحم الله عثمان وأيّد علياً فاني لا ارى خيرًا منهُ لولاية امر المسلمين لقرابتهِ وعلمهِ وفضلهِ وشجاعتهِ وسبقهِ الى الاسلام ولكن ابني عبد الله (عبدالله بن عباس) يعتقد انهُ ضعيف الرأي [1] ولكنهُ مع ذلك يفضّلهُ على كل من يليها سواه وقد خاطبتهُ في ذلك قبل عودتهِ الى المدينة امس فرأيتهُ فرحًا بخلافة الامام علي

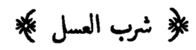
قالت وهل كان لا يزال هنا منذ جاء للحج

قالت نعم ان عثمان وهو محصور امرهُ ان يحجَّ بالناس كما تعلمين [2] فجاء وقُتل عثمان وهو غائب ولما بلغهُ قتلهُ وولاية علي مع ما يتوقعهُ من الخلاف بسبب ذلك اسرع ليكون بين يديهِ لعلهُ ينفعهُ في شيء

وتذكرت العجوز حال اسماء فقالت وماذا تريدين ان افعل باسماء ومرضها

قالت اظنها تشفى غدًا ولا بد من شربها العسل

فقالت سأحمل ام المؤمنين على ان تسقيها اياه



الفصل الحادي والاربعون

﴿ شرب العسل ﴾

وفيما هما في الحديث رأتا الغلمان في حركة وهم يسرجون الخيول والجمال يهيئونها للركوب فعلمتا ان الامراء اوشكوا الخروج من عند ام المؤمنين فنهضت ام الفضل وودعت العجوز وانصرفت على بغلة كان خادمها ينتظرها بها بالقرب من البستان

---

(١) ابن الاثير (٢) ابن خلدون

أما العجوز فتظاهرت انها انما نزلت الى البستان لتستقي من النثر . وفيما هي بالقرب من باب الدار سمعت جلبة ثم رأت جمهورًا خارجين من الدار معظمهم من بني امية وعلى وجوههم سمات الظفر ولم تجد بينهم احدًا تعرفهُ فتنحّت ريثما خرجوا وانصرفوا ودخلت تطلب حجرة اسماء وهي في قلق لئلاّ تكون قد افاقت في اثناء غيابها فوجدت الحجرة مفتوحة وعند بابها خفٌّ عرفت انهُ خف ام المؤمنين فايقنت انها جاءَت تتفقد اسماء . فاسرعت حتى دخلت الحجرة فاذا هي واقفة عند رأس اسماء ولما رأتها ام المؤمنين داخلة وعلى وجهها امارات البغتة اشارت اليها بأناملها وشفتيها ان تمشي الهوينا وان لا تخاف . فأبطأَت في خطاها حتى دنت من اسماء فرأَتها نائمة وقد كلل العرق جبينها فالتفتت عائشة الى العجوز وسألتها عن حالها فقالت انها شعرت بالبرداء منذ خرجنا من عندك ثم اصابتها الحمى كما ترين

قالت اسقيها العسل

قالت جئت اليها بقدح منهُ (واشارت الى القدح) فلم تشرب

قالت هاتهِ انا اسقيها اياه فانهُ خير دواء والتفتت الى اسماء فرأَتها تتحرك وهي تمسح العرق عن وجهها بكفيها فدنت من فراشها ففتحت اسماء عينيها ولما رأَت ام المؤمنين اجفلت ونهضت للحال وقد توردت وجنتاها . فقالت لها عائشة لا ترعجي نفسك يا بنية وجسَّت يدها فاذا هي لا تزال حارَّة وقد ذبلت عيناها واحمرتا من شدة الحمى

فقالت لها عائشة الم تشربي العسل يا اسماء

قالت لا اشتهي طعامًا يا مولاتي ولا حلواء

قالت انما هو دواءٌ فهو شفاءٌ الناس وقد سمعتُ رسول الله (صلعم) يقول « الشفاء في ثلاث شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وانهى امتي عن الكي » (١) وزد على ذلك انهُ (صلعم) كان يحبهُ الحلواء والعسل . قالت ذلك وتناولت القدح ودفعتهُ الى اسماء . فتناولتهُ ولم يعد في امكانها الاَّ شربهُ فشربتهُ ولم يمض قليل حتى احسَّت برطوبة حلقها . واوصتها عائشة ان تتناول شيئًا من لبن الابل فأطاعت وبعد شرب اللبن انتعشت فجلست في الفراش . ورغبت الى ام المؤمنين ان تمكث عندها

(١) البخاري ج ٤

لانها استبشرت بها واستدأت منذ رأتها ان تشعر بتحسن في صحتها

فقالت عائشة بل ارى ان ننزل الى البستان نستظلّ بالعريش لاني تعبت من الخباء وتزاحم الناس عليّ في هذا اليوم · واظن نزولك الى هناك يفيدك

قالت اني اتشرف بمرافقة ام المؤمنين واستأنس بمرآها · فنهضن ولما وقفت اسماء أحست بضعف قلّل شيئاً من حركتها وظهر عليها الذبول ولكنهُ زادها هيبة وجمالاً

ومشت عائشة امامها وهي صامتة والجلال والوقار يغشيانها وسارتا في اثرها وقد هالهما سكوتها حتى وصلن البستان وهو محاط بسور من سعف النخل في وسطهِ عريش مصنوع من الجريد يُستظَل بهِ وقد نصبوا فيهِ مقاعد من الجريد والخشب · فدخلنهُ وجلسنَ فيهِ وام المؤمنين لا تزال صامتة ثم دعتهما للجلوس فجلستا متأدبتين وفي نفس كل منهما شيءٌ تفكر فيهِ والكل يتشاغلن بما يسمعنهُ من حفيف سعف النخل لاشتداد الريح في ذلك اليوم

الفصل الثاني والاربعون

﴿ طلحة والزبير ﴾

ولم يكد يستتب بهن الجلوس حتى سمعن جعيرًا وصهيلاً وجلبة فاقطبت عائشة حاجبيها تطلعًا لما يأتيها من اخبار القادمين وما عتم ان دخل بعض الخدم وعليهِ امارات الدهشة

فقالت ما وراءك يا غلام

قال ان ركبًا قادمين من المدينة وفيهم طلحة والزبير يلتمسون المثول بين يديك · فلما سمعت اسماء ذلك بغتت وظهرت البغتة على وجهها وتحفزت للنهوض والعود الى البيت لتخلو ام المؤمنين بالقادمين

فقالت لها عائشة (وقد تغير وجهها) « لا أرى حاجة الى دخولك البيت الآن واذا رأيت ان لا تحضرا مجلسنا فاجلسا وراء هذا العريش

فنهضنا وتحولتا الى مقعد وراء العريش جلستا عليهِ وقد سرّت اسماء ببقائها هناك لعلمها ان طلحة والزبير قدما من المدينة بعدها ولا بدّ من خبر جديد جاءا بهِ او انهما

جاءا في امر يهمها الاطلاع عليهِ لعلاقتهِ بالامام علي وهي تعلم انهما بايعا عليًّا مكرهين. فلبثت مستترة بجدار العريش واصاخت بسمعها وهي تنظر من خلال الجريد الى من يدخل العريش

فامرت عائشة بدخول طلحة والزبير وارخت نقابها وبعد هنيهة قدما وهما لا يزالان بثياب السفر وقد علاهما الغبار ومعهما رجال آخرون

فدخل اولاً طلحة بصدره العريض ولحيتهِ البيضاء الكثيفة مع قصرهِ وقد ازداد وجههُ حمرة من وعثاء السفر ومال الى السمرة من اثر الشمس. وكانت اسماء قد شاهدتهُ غير مرة في المدينة فلم تستغربهُ. وكذلك الزبير وهو يمتاز عن طلحة بخفة عضلهِ وقلة شعر لحيتهِ[1]

فدخلا ودخل في اثرهما ابناهما. فقالوا السلام عليكِ يا ام المؤمنين

قالت «وعليكم السلام يا اصحاب الرسول ونخبة المهاجرين وحماة الاسلام» وامرتهم بالجلوس فجلسوا على مقعد وهم مطرقون لا ينظرون اليها اجلالاً لحرمتها. فبعد ان استراحوا خاطبت طلحة والزبير قائلة

من اين اتيتما

فاجابها طلحة جئنا من المدينة

قالت كيف فارقتماها

قال «انا تحملنا هرابًا من غوغاء واعراب وفارقنا قومًا حيارى لا يعرفون حقًّا ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون انفسهم»[2] قال ذلك وعلائم الغضب تبدو من خلال حديثهِ والزبير يهمُّ بالكلام كانهُ لم يكتف بما قالهُ طلحة

فقالت كيف يُقتل عثمان وانتم تنظرون

قال الزبير والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد دافعنا عنهُ باولادنا وانفسنا ولكن الغوغاء غلبت علينا فلم نمنع قدرًا واقعًا

قالت ثم بايعتم وانتم راضون

قالا بصوت واحد لم نبايع الاّ والسيف على اعناقنا وما نحن راضون بهذه المبايعة

---

(١) اسد الغابة (٢) ابن خلدون ج ٢ (تنبيه) كل ما ورد من الاشارات الى ابن الاثير في ذيول الصفحات الماضية من هذه الرواية انما هي من جزئهِ الثالث وان ورد سهوًا في بعضها انهُ الجزء الثاني

قالت انهضوا اذًا الى هذه الغوغاء وطالبوا بدم ذلك الرجل المقتول

قالا انما جئنا لذلك

فقالت وقد جاءنا ايضًا عبد الله بن عامر ابن خال عثمان وعاملهُ على البصرة ولما سمع بمقتلهِ حمل ما في بيت المال وجاء الينا وكذلك يعلي بن منية جاء من اليمن ومعهُ ستماية بعير وستماية الف درهم وقد اناخ في الابطح [1] وقد كانوا عندي اليوم

ولم تتم كلامها حتى جاءها غلام ينبئها بقدوم ابن عامر وابن منية فقالت ليدخلا . فدخل اولاً ابن عامر وهو شاب في الثلاثين من عمره وعليهِ جبة حمراء [2] ثم دخل يعلي بن منية وهو يمشي عرجًا وقد كسر فخذه في طريقهِ من اليمن وكان قد سمع بمقتل عثمان فاقبل لينصره فسقط عن بعيره في الطريق فانكسرت فخذه [3] فجاء برجالهِ ومالهِ . فلما دخل ابن عامر وابن منية سلما على طلحة والزبير فقال طلحة لابن منية مالي اراك تمشي عرجًا

قال كسرت رجلي وانا قادم لنصرة عثمان ولكن معي المال والرجال قوموا بنا للاخذ بالثار

فقال الزبير هلم بنا الى الشام

فاعترضهُ ابن عامر قائلاً ما لنا وللشام وفيها معاوية وهو يكفيكموها ولكنني ارى ان تأتوا البصرة فان لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى وهم ميالون لمبايعتهِ [4] فقالوا قبحك الله انك تريد الفتنة ولكن دعنا من ذلك ولنسر الى البصرة . فتمَّ الرأي على ان يسيروا الى البصرة يدعون مَن بها للطلب بدم عثمان وينهضونهم كما انهضوا اهل مكة

وكانت اسماء تسمع حديثهم من وراء العريش فلما علمت بما تمَّ اجماعهم عليهِ عظم عليها الامر وتحققت ان الفتنة واقعة لا ريب فيها فاثر ذلك في نفسها فاضطربت وخفق قلبها وثارت الحمية في رأسها حتى كادت تهمُّ بالنهوض والدخول على الجمع . فادركت العجوز اضطرابها فامسكت يدها فاذا هي ترتعش من عظم الاضطراب فهمست في اذنها ان لا تضطرب لئلاَّ تضر بصحتها

---

(١) يؤْخذ من التاريخ انهم جاؤوا بعد ذلك ببضعة اسابيع ولكن الرواية اقتضت ذكرهم هنا

(٢) اسد الغابة (٣) اسد الغابة (٤) ابن الاثير ج ٣

فقالت لا صبر لي على ما اسمع وهم انما يريدون الانتقاض على الامام علي بعد ان بايعوه ورأيتهم بعيني وقد بايعوا واقسموا على الطاعة

فجعلت تخفف عنها وهي تحفز للقيام

الفصل الثالث والاربعون

﴿ الاجماع على الطلب ﴾

وفيما هي تهمّ بذلك سمعت صوتًا ارتعدت له كل جوارحها فاصغت واذا هو صوت مروان وقد دخل العريش وقبل ان يلقي التحية خاطب طلحة والزبير قائلا وهو يضحك « على ايكما اسلّم بالامارة واؤذن بالصلاة » (اي ايكما سيكون امير المؤمنين)

فأجابه عبد الله بن الزبير « على ابي » (يعني اباه الزبير) فاعترضه محمد بن طلحة وقال « بل على ابي » (يعني اباه طلحة)[1] فضحك مروان وقال بل اجعلوا الخلافة في ولد عثمان لانكم انما خرجتم تطلبون بدمه . فقال طلحة كيف تدع شيوخ المهاجرين ونجعلها لابنائهم . فقال وهو يتمتم « لا اراني اسعى الا لاخراجها من بني عبد مناف »[2] قال ذلك ولم يسمعه احد ولكنهم تبينوا ما في ضميره

فابتدرته ام المؤمنين قائلة « أتريد أن تفرق امرنا يامروان ليصلِّ بالناس ابن اختي » (تعني عبد الله بن الزبير)

فلما سمعت اسماء كلام مروان لم تعد تستطيع صبرًا وخصوصًا لما رأت عائشة تنتهره . فنهضت واسرعت الى العريش واخترقت الجمع وهي ترتجف وقد امتقع لونها فلما رآها الناس بغتوا لجسارتها وكان طلحة والزبير يعرفانها فبهتوا جميعًا ولم يتكلموا

اما هي فوقفت بقلب لايهاب الموت ونظرت الى مروان وقالت « اما كفاك يا مروان ما القيته من الفتنة في المدينة اما كفاك انك سببت مقتل الخليفة حتى جئت تلقي الشقاق بين بقية الصحابة ووالله لولا حرمة ام المؤمنين لهدرت دمك بين يديها الا ترجع عن عملك حتى تهلك المسلمين بالفتنة ويقتل بعضهم بعضًا » قالت ذلك

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن خلدون ج ٢

وصوتها يرتجف ولما فرغت من كلامها حولت وجهها الى أُم المؤمنين لترى ما يبدو منها

فلما سمع القوم كلامها لبثوا جميعًا صامتين وهي ترتعد وتتجلد فاجابها مروان وهو يضحك وقال « تقولين اني قتلت الخليفة ولم يقتله الاَّ صاحبك محمد ربيب علي وسوف يلقى كل منهما جزاء ما جنته يداه »

فقالت « لا تذكر ابن ابي بكر شقيق ام المؤمنين ولا تتلفظ باسم ابن ابي طالب امير المؤمنين وواللهِ لو انهُ بيننا الآن لتلعثم لسانك ولا اقول قتلك لانهُ لا يلوث حسامهُ بدمك »

فأَراد مروان ان يجيبها فاسكتتهُ ام المؤمنين قائلة « اتذكر اخي محمدًا يا مروان اسكت . وانتِ يا اسماء خففي عنكِ انكِ مريضة لا تهيجي دمك اذهبي الى فراشك »

وكانت العجوز واقفة بجانبها فامسكتها بيدها وخرجت بها من العريش وهي تكاد تقع لفرط ارتعاشها . فلما خرجتا من البستان صاحت اسماء بالعجوز قائلة اخرجي بي من هذه المدينة اني لا استطيع البقاء فيها

قالت والى اين نذهب يا ابنتي

قالت سيري بي الى يثرب

قالت كيف نذهب وماذا نفعل بام المؤمنين اذا افتقدتك ولم تجدك

قالت لا ادري ماذا نفعل ولكنني لا استطيع البقاء هنا ولا بد لي من الذهاب الى المدينة

قالت لا نستطيع الذهاب اليها الآن

قالت اذهبي بي الى منزل آخر غير هذا المنزل

قالت اتذهبين الى ام الفضل

قالت هيَّا بنا اليها . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها لشدة غيظها

وكانت العجوز قد عرفت منزل ام الفضل فسارت بها اليهِ

فلما اقبلتا عليهِ استقبلتهما ام الفضل باشَّة وقد استغربت مجيئهما مع ما في وجه اسماء من اثر الضعف وظواهر الاضطراب

اما اسماء فلم تكد تصل المنزل حتى عاودتها الحمى واصابها الدوار فالتمست الاستلقاء على مصطبة امام البيت فدعتها ام الفضل الى الغرفة فأَبت فأَتتها بوسادة

وغطاء فلم تشأ الرقاد وقالت وقد تورّدت وجنتاها من شدة الحمى « انقلوني الى المدينة احملوني الى الامام علي لاخبرهُ بما تآمر به الناس عليه ... انهم تواطأوا على الطلب بدم عثمان . ولو انهم التمسوا ذلك من قاتله لعذرناهم ولكنهم يلتمسونه من الامام علي وانا اعلم الناس ببراءة ساحته » قالت ذلك وهي لا تتمالك عن البكاء

اما ام الفضل فاستغربت قولها وشقّ عليها عظم تأثرها وخافت عليها عاقبة ذلك وتاقت لسماع الخبر فقالت ما الذي حدث بعد خروجي من عندكم

فقصّت العجوز عليها ما جرى في العريش

فأجفلت ام الفضل وصاحت و يلاه لقد عظمت الفتنة ليت عبدالله (ابنها عبدالله ابن العباس) لم يذهب بعد لاكلفه حمل هذا الخبر الى عليّ

فصاحت اسماء دعوني امضي بهذا الخبر بنفسي دعوني اسير للجهاد دفاعًا عن المتهم زورًا ان عليًا يا قوم بريء من دم عثمان فكيف يطالبونه به

فقالت ام الفضل دعي هذا اليّ فاني مرسلة رسولاً الى علي بكل ما وقع . قالت ذلك ودعت بعض الخدم فجاءها برجل من جهينة يدعى ظفر استأجرته ان يحمل كتابها الى علي بالخبر (١) فركب هجينة وسار واسماء تشيعه بنظرها وهي تود ان تكون على رحله وارادت ان تحمله كلامًا الى محمد فمنعها الحياء على انها عوّلت على اللحاق به حالما تفارقها الحمّى

فلنتركها في حالها ولنرجع الى المدينة لنرى ماذا تم لمحمد بعدها

الفصل الرابع والاربعون

﴿ تفريق العمال على الامصار ﴾

تركنا محمدًا وقد ودّع اسماء عند ركوبها الى مكة وعاد وفي نفسه شيء اقلق راحته لا يدري ما هو وقد فاته انه سهم الفراق . واما هو فقد كان يحسب قلقه مما يخافه من مناظره على اسماء ولو كان مناظرهُ غير الحسن بن علي لهان عليه

(١) ابن الاثير ج ٣

التخلص منه . ولم يكن يخاف حسنًا لانه ابن امير المؤمنين ولكنه كان يحبه كثيرًا وقد ربيا معًا في حجر الامام علي . فقضى مسافة الطريق وهو غارق في لجج الهواجس . ومما زاده قلقًا ارسالة اسماء على هذه الصورة وقد شغلته الغيرة قبل سفرها عن تقدير الامر حق قدره . فوقع في حيرة لا يدري ما يجيب به الحسن اذا سأله عن اسماء ولا كيف يعتذر او ينتحل سببًا لسفرها وشعر لساعته بثقل الحب وشدة سلطانه فحوّل نظرهُ الى الطريق الذي سارت فيه اسماء فاذا هي قد توارت عن النظر فحدثته نفسه ان يعرج الى مكان يقضي فيه نهاره قبل الذهاب الى منزل علي مخافة ان يظهر حالة عند ملاقاته الحسن وهو لايزال مضطربًا . ولكنه لم يجد عذرًا لتخلفه يومئذٍ والناس يتألبون جماعات ووحدانًا من كل صوب يأمون منزل الامام علي وهم بين آمل وخائف وناصرٍ وناقم . وقد علم محمد ان عليًا بايعهُ الناس وفيهم من يضمر السوء

فقضى برهة تتقاذفه الهواجس وهو يمشي فلم يشعر الا وهو بباب الامام علي فرأى الناس قد تكاثفوا حوله والخيول في بستانه والجمال معقولة الى جذوع النخل والخدم والعبيد وقوف بينها . فتذكر هول ما يشغل عليًا وبنيه في ذلك الحين من مهام الخلافة فهان عليه مشاغلة الحسن في تلك الشؤون ريثما يرى ما ينتهي اليه الامر .

فدخل الدار وهو يلتمس والدته وقد عوّل على مكاشفتها بما في نفسه لعلها تعينه على ما يخوفه . فدخل حجرتها فاذا هي جالسة وحدها ولوائح الاهتمام تلوح على وجهها ولكنها حالما رأته هشّت له فحياها فرأت في وجهه انقباضًا فابتدرته قائلة ما لي اراك منقبض النفس يا محمد

قال وهو يغالطها ما في نفسي شيء غير ما نحن فيه

قالت وماذا جرى هل انت خائف من مصير هذه الخلافة

قال لا اقول اني خائف ولكنني ارى المركب خشنًا فان طلحة والزبير لم يبايعا الا كرهًا والكوفيون والبصريون على رأيهما فأخشى ان يدعوا الناس الى نقض المبايعة

قالت لاتخف من ذلك فقد تمّ الامر لابي الحسن وحوله نخبة من الصحابة يشدّون ازرهُ فاذا احسنوا الرأي في مشورته استقام له الامر باذن الله

قال لا يغرنكِ كثرة العدد وفيهم من يضمر غير ما يظهر . . . آه ليت ابن خالتي عبدالله هنا (عبدالله بن عباس) فان له رأيًا سديدًا وهو ابن عم امير المؤمنين

قالت العلهُ لا يزال غائبًا في مكة منذ سار اليها

قال نعم

قالت ولكن لنا بالمغيرة بن شعبة خير مشير وقد بلغني انهُ دخل على امير المؤمنين اليوم ولا يزالان في خلوة منذ الصباح لا ندري ما دار بينهما

فقال ان المغيرة يا اماه من خيرة الصحابة اصحاب الرأي والدهاء ولا يخفى عليك انهُ احد دهاة العرب الاربعة

قالت ومن هم الثلاثة الآخرون

قال هم معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص وزياد ابن ابيه [1]

الفصل الخامس والاربعون

﴿ المغيرة بن شعبة ﴾

ولم يتم كلامهُ حتى سمع وقع اقدام خارج الحجرة عرف انها خطوات الحسن فبغت ولكنهُ تظاهر بالاهتمام وقال هذا اخي الحسن فلندعهُ لعلهُ يخبرنا بما دار بين الامام علي والمغيرة

قالت ادعهُ فخرج محمد ليدعوهُ فاذا هو داخل فابتدرهُ محمد بالسلام . فحياه الحسن ولم يزد على السلام شيئًا . فانشغل خاطر محمد مخافة ان يكون في نفسهِ شيء فقال لهُ اهلاً باخي ابن امير المؤمنين لقد كنا في حديث هذه الخلافة ونحن في شوق لاستطلاع ما دار بين مولاي ابي الحسن والمغيرة

فجلس الحسن على وسادة بالقرب من الباب وتشاغل باصلاح عمامتهِ ولمّ ذيل قفطانهِ وهزّ رأسهُ ولم يجب

فازداد انشغال خاطر محمد وظهر الاضطراب على وجههِ فتقدم نحوهُ وهو يتجاهل وألحّ عليهِ أن يطلعهُ على جلية الخبر وهو يخاف ان يسمع منهُ لومًا او عتابًا بشأن اسماء فاذا هو قد زفر زفرة شديدة وقال تسألني عن حديث المغيرة وهو حديث ذو شجون

قال محمد وما ذا عسى ان يكون

(١) اسد الغابة ج ٤

قال « ان المغيرة صاحب رأي وحزم ولكن والدي لم يصغ اليهِ فقد سمعت كلامهُ واعجبني رأيهُ وكان امير المؤمنين لحريّة مكة وقولهِ يقدمهُ على ما اراد وان يكن رأيهُ الصواب وهو من اعظم دهاة هذه الامة »

فقال محمد وقد ارتاح باله من قبيل اسماء وما هو الرأي الذي رآهُ

قال انت تعلم يا اخي ان بعض الناس بايعوا على دخل (يريد طلحة والزبير) ولا يخفى عليك ان حولنا ليس من اهل المدينة ولا من اهل مكة وانما نحن خائفون من عمّال الامصار في مصر والشام والكوفة والبصرة واشد هؤلاء بطشاً واكثرهم عداوة لنا معاوية بن ابي سفيان في الشام وهو كما تعلم ابن عم عثمان وكان من اكبر اعداء وكذلك ابن عامر في البصرة وهو ابن خال عثمان

قال محمد نعم

قال فاشار المغيرة على والدي ان يبقي عمّال عثمان هؤلاء على اعمالهم لنرى ما يكون بعد ان يستقيم لنا الامر فابى والدي عليهِ ذلك وقال كلاّ ولما رآهُ مصرًّا على رأيهِ قال لهُ « اعزل من شئت واترك معاوية فان فيهِ جرأة وهو في اهل الشام ولهُ حجة في اتباعهِ وكان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام قبل عثمان » (١) فاقسم والدي انهُ لا يستعمل معاوية يومين فخرج المغيرة ولم يرد حرفاً

فقال محمد اتظن المغيرة مصيباً

قال نعم انهُ رأى الرأي الصواب لان سكوتنا عن معاوية ورفاقه يسكتهم ربما نرى ما تأول اليه الحال

فقالت اسماء أم محمد تمهل ريثما يأتي ابن اختي عبد الله بن عباس فانهُ لا يلبث ان يعود من مكة والامام يصغي لكلامهِ

قال الحسن لا اظنهُ مصغياً لاني آنست منهُ اصرارًا شديدًا فلنصبر لعل ابن عباس يتغلب عليهِ . قال ذلك وسكت هنيهة يفكر ثم انبسطت اسرّتهُ بغتة كأنهُ تذكر امرًا سرّهُ وقال وهو يبتسم ان الخلافة ومشاكلها شغلتني عن امر آخر ذكرتهُ لك تلميحاً وكنت عازماً على مخاطبة والدي بهِ اليوم فامسكني عن ذلك اشتغالهُ بالمغيرة وحديثهِ

(١) ابن الاثير ج ٣

فادرك محمد انهُ يريد خطبة اسما. فكادت البغتة تظهر على وجهه ولكنهُ تجاهل وقال وماذا عسى ان يكون ذلك الامر يا اخي

قال لا اظنك تجهل ما في نفسي عن اسماء تلك الفتاة الاموية التي نزلت عندنا . (وحوّل وجهه الى ام محمد . . . وقال) انها يا خالتي بارعة في الجمال وفي وجهها مهابة يندر ان ترى مثلها في النساء

فارتبك محمد في امره لا يدري بماذا يجيب ولكنهُ تجلد وقال وهو يتظاهر بعدم الاكتراث لماذا لم تقل لي ذلك قبل سفرها

فبغت الحسن وقال الى اين سافرت

قال سافرت الى مكة في صباح هذا اليوم

قال وكيف وما الذي حملها على السفر ومن سافر بها وهي وحيدة

قال انها سافرت مع عجوز من ذوات قرابتي ورجل من بني الليث من اخوال اختي ام المؤمنين

فقطب الحسن وجههُ وقد استغرب ذلك وقال وما الذي حملها على السفر

قال سمعتها تقول انها تفضل البعد عن المدينة في اثناء هذا الاضطراب وطالما كانت تود التعرف بام المؤمنين فاظنها سارت لتقضي عندها بضعة ايام ثم تعود

فاطرق الحسن مدة يفكر ثم قال لا بأس من ذهابها الآن وسأغتنم اول فرصة يخلو بها والدي فاعرض عليهِ خطبتها لي فاذا لم تكن قد جاءت بعث في استقدامها . قال ذلك وخرج

وظل محمد جالسًا وقد علته البغتة وامتقع لونهُ فلاحظت والدتهُ فيهِ ذلك فقالت يظهر انك اهتممت بحديث الحسن

فتنهد ولم يجب

فقالت مالك لا تجيب

فتردد بين ان يكشف لها سره او يظل على كتمانه ولكنهُ لم يعد يستطيع صبرًا على الكتمان فقال لقد همني الامر اكثر مما تظنين

قالت ولماذا

قال ان الفتاة التي ذكرها اخي الحسن مخطوبة

قالت ولمن

قال لي

قالت ما تقول ...

قال هذا هو الواقع

قالت وكيف يطلبها هو لنفسه

قال لانهُ لا يدري ذلك

قالت ولماذا لم تخبرني بخطبتها قبل الآن

قال عزمت على ذلك وجئت بها اليك فلم احدك

قالت وما العمل الآن

قال لا ادري وساصبر قال ذلك وحرق اسنانهُ

قالت اتكدّر اخاك الحسن من اجلها

قال معاذ الله ان أكدره وانت تعلمين حبي لهُ ولكني سأرى ما يأتي بهِ القدر ثم خرج وقد اخذ القلق منهُ مأخذًا عظيماً

الفصل السادس والاربعون

عبد الله بن عباس

ومضت ايامٌ والحسن يترقب فرصة يخاطب بها والدهُ بشأن اسماء فلم يرَ الى ذلك سبيلاً لاشتغالهم جميعًا في تفريق العمال وتقلب الاحوال . وان الامام عليًّا ما برح منذ ولي الخلافة لا يهدأ لهُ بال وعمال الامصار اكثرهم ناقمون عليهِ ولعنهُ لو اطاع المغيرة لخفف شيئًا من نقمتهم ولكنهُ اصرَّ على استبدالهم بعمال ممن يثق بهم وبامانتهم من رجالهِ

وكان الحسن فوق ذلك الاشتغال هائبًا مفاتحة والدهِ بامر الخطبة وهم في تلك الشواغل لئلا يخيل لهُ انهُ انشغل بالحب عن الخلافة فلاح لهُ ان ينتظر مجيء عبد الله ابن عباس فيوسطهُ في الامر لما يعلم من دالتهِ على والدهِ وذكر ذلك لمحمد بن ابي بكر فلم يجبهُ ولكنهُ قلق وزادت غيرتهُ . فلما سمع محمد بمجيء عبد الله بن عباس اراد ان يشغلهُ بحديث الخلافة عن المفاوضة بامر الخطبة فاسرع اليهِ قبل ان يعلم الحسن بمجيئهِ

واساءهُ مما كان من حدث المغيرة بن شعبة وما اشار به على الامام عليّ الى ان قال وقد كنا في انتظار مجيئك لعلك تثني الامام عن عزمه فقد اصرَّ على خلع عمال عثمان وهم كما ترى غير راضين ولهم احزاب وخصوصاً معاوية

فقال عبد الله ان المغيرة وإنه مصيب ونعمَّ الرأي رأيهُ

فقال محمد وهذا الذي اراه حميما في العمل

قال اني ذاهب الى عليّ الساعة . قال ذلك ونهض وقد همَّهُ الامر كثيراً لانهُ كان شديد الغيرة على الامام مع قرابتهِ من الرسول والامام

وكان في حدود الاربعين من العمر جميل الوجه ابيض تعلوه صفرة مشرباً حسيباً وسيماً صبيح الوجه فصيح اللسان [1] وكان اعلم الناس بالحديث والشعر والعربية سديد الرأي عالماً بتفسير القرآن وبكثير غيرها من علوم تمدن الاسلام لم يدرك احد من اهل زمانه ما ادركهُ من كل ذلك . فلما سمع كلام محمد نهض الى عمامته وجبته وسار يهرع الى منزل الامام علي ومحمد يتبعهُ وهو يكاد يتبع اسراعه في الذهاب الى عليّ بهذا المقدار

فوصلا الى الدار ورأيا المغيرة بن شعبة خارجاً من حجرة الامام عليّ وكان في خلوة معهُ . فقال عبد الله لمحمد اراهُ جاءهُ ثانية ام هذه هي خلوته التي ذكرتها لي

قال بل هذه غيرها ولا ندري ما جاء به

وبينا هم في ذلك جاء الحسن وكان ذاهباً في شأن ولما رأى عبد الله بغت ووقف وسلم عليه ودعاهُ للجلوس في حجرته وهو يظن انه جاء لامر ذكر له امراً حطة فرآه في شاغل آخر وقد اسرع الى حجرة الامام علي ودخل هو ومحمد في اثره

فلما اقبل عبد الله على الامام عليّ حيّاهُ حين ابصره قائلاً السلام عليك يا امير المؤمنين وكانت هذه اول مرة يراه فيها بعد احرازه . . . فرد عليّ التحية عليهِ ورحب بهِ وقال وعليك السلام يا ابن عم الرسول صلعم . وقال ذلك والانشراح ظاهر على وجهه كأنهُ كان في حال عتب فمشى عبد الله حتى جلس الى جانبه وجلس الحسن ومحمد في بعض جوانب الغرفة والحسن يرى في حضور ابن عباس شيئاً وكان يود ان يخلو به قبل دخوله على والده

---

(١) ابن خلكان ج ١

الفصل السابع والاربعون

﴿ علي وابن عباس ﴾

وبعد ان حاسوا هنيهة وكلٌّ يفكر في امر يهمهُ قال ابن عباس رأيت المغيرة خارجًا من عندك فهل جاءك برأي جديد واني اعتقد دهاءهُ وسداد رأيهِ

قال عليٌّ وقد كنت اعتقد ذلك فيهِ حتى جاءني منذ ايام يشير عليَّ ان اقرَّ معاوية وسائر عمَّال عثمان على اعمالهم . وانت تعلم انهم كانوا من اعظم المقاومين لنا والفتنة انما قامت والخليفة عثمان رحمهُ الله انما قتل بسببهم فكيف ابقيهم . فأبيتُ الاَّ عزلهم فتقدم اليَّ ان ابقي معاوية فقط على الشام واقسمت اني لا استعملهُ يومين فخرج من عندي يومئذ وانا اعرف فيهِ انهُ يود اني مخطئ . ثم عاد اليَّ الآن فقال لي « اني اشرت عليك اول مرة بالذي اشرت وخالفتني فيهِ ثم رأيتُ بعد ذلك ان تصنع الذي رأيتَ فتعزلهم وتستعين بمن تثق بهِ فقد كفى الله وهم اهون شوكة مما كان » فاعجبني رجوعهُ الى رأيي

ولما سمع ابن عباس كلام الامام تبسم وقال أتظن يا ابن عمي ان المغيرة قال في هذه المرة ما يعتقدهُ

قال علي وماذا اذن

قال « اعلم يا امير المؤمنين انهُ في المرة الاولى نصحك وفي هذه المرة غشك لان معاوية واصحابهُ اهل دنيا فمتى تثبتهم لا يبالون من ولي هذا الامر ومتى تعزلهم يقولون اخذ هذا الامر بغير شورى وهو قتل صاحبنا (عثمان) ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام واهل العراق مع اني لا آمن طلحة والزبير ان يكرَّا عليك . وانا اشير عليك ايضًا ان تثبت معاوية فاذا بايع لك فعليَّ ان اقلعهُ من منزله (١) » وكان ابن عبَّاس يتكلم وعليٌّ مطرق وهو مقطب الوجه وقد اقلقهُ ذلك الامر كثيرًا . واما الحسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس وقلباهما يرقصان فرحًا على امل ان يقتنع الامام عليٌّ باقرار معاوية خوفًا من الحرب . فلما فرغ ابن عباس من كلامهِ لبثا ينتظران ما يقولهُ عليٌّ فاذا هو لا يزال مطرقًا تامًّا والسكوت سائد في تلك الحجرة لا يبدأ احدٌ

(١) ص . ثير ج ٣

بكلام حتى لقد يحاذر احدهم اذا فاجاءهُ السعال ان يتنحنح . وبعد هنيهة رفع الامام علي رأسهُ ونظر الى ابن عباس ويدهُ على قبضة سيفهِ وقال « والله لا اعصيهِ الاَّ السيف » (١) ثم رد يدهُ الى لحيتهِ وجعل يمشطها باصابعهِ ويقول

وما ميتة ان متّها غير عاجز * بعار اذا ما غالت النفس غولها

فلما سمع ابن عباس كلامهُ ورأى ما بدا على وجههِ من امارات الغضب هاب مدافعتهُ ولكنهُ شقَّ عليهِ ان يسير الامام على ذلك الرأي لعلمهِ بما يتوقعهُ من عواقب الامر وكانت لهُ دالة وحداثة عندهُ فقال لهُ « انت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب اما سمعت رسول الله (صلعم) يقول الحرب خدعة »

فقال علي « بلى »

قال « اما والله لئن اطعتني لاصدرنَّهم بعد ورد ولأتركنهم ينظرون في دبر الامور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا اثم لك » . وما فرغ من كلامهِ حتى انبرى العرق جبينهُ حميةً وغيرة ولكنهُ لم يكد يفرغ حتى ابتدرهُ عليٌّ قائلاً « يا ابن عباس لست من هناتك ولا من هنات معاوية في شيء »

قال ابن عباس « اطعني والحق بمالك بينبع واغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً »

وكان ابن عباس يتكلم وملامح وجه عليٍّ وحركاتهِ تدلان على انهُ غير مقتنع فلما فرغ ابن عباس من كلامهِ قال لهُ عليٌّ « تشير عليَّ وأرى فاذا عصيتك فأطعني »

فقال ابن عباس وهو يحني رأسهُ اجلالاً « افعل . ان ايسر ما لك عندي الطاعة »

فقال عليٌّ « تسير الى الشام فقد وليتكها »

قال ابن عباس « ما هذا برأي فان معاوية رجل من بني امية وهو ابن عم عثمان وعاملهُ ولست آمن ان يضرب عنقي بعثمان وان ادنى ما هو صانع ان يحبسني فيتحكم عليَّ لقرابتي منك وان كل ما حمل عليك حمل عليَّ ولكن اكتب الى معاوية فمنهُ وعدهُ . . . » فقطع عليٌّ كلامهُ قائلاً « لا والله لا كان هذا ابداً »

(١) ابن الاثير ج ٣

فسكت ابن عباس ولبث صامتًا برهة ثم استأذن وخرج وخرج في اثره الحسن ومحمد وكأن على رؤوسهم الطير . اما علي فأمر للحال في انفاذ عماله الى الامصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيدالله بن عباس (اخا عبدالله) على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام

الفصل الثامن والاربعون

خلاف معاوية

وقضى عليٌّ في ذلك اياماً لا يخلو مجلسهُ من الامراء للخوض في هذه الشؤون فلم يرَ الحسن سبيلاً الى مفاتحتهِ في شأن اسماء على انهُ هو نفسهُ كان في شاغل عظيم من تلك الامور . فلما فرغ علي من تفريق العمال وقلّ ورود الناس على ابيهِ رأى الحسن ان يخاطبهُ في الامر وكان يطلع محمدًا على ما ينويهِ ولا يعلم ما في خاطرهِ من امر اسماء وكان محمد اذا خاطبهُ الحسن في هذا الشأن حدثتهُ نفسهُ ان يطلعهُ على ما يكنهُ ضميرهُ ولكنهُ امسك عن ذلك مخافة ان يكدر الحسن وهو يحبهُ حبًّا شديدًا . فقضى ايامًا واسابيع لا يدري ماذا يعمل وكان اذا فاتحهُ الحسن في عزمهِ على مخاطبة والدهِ في الامر سكت او غيَّر الموضوع

في ذات يوم جاء الحسن الى محمد وكان خارجًا من حجرتهِ الى المسجد وقال لهُ ارى والدي قد فرغ من ارسال العمّال الى الامصار ولا ارى وقتًا اصلح من هذا لمخاطبتهِ بشأن اسماء ولكني ارجو ان تساعدني او تكلمهُ عني بشأنها

فاحتار محمد في امرهِ لا يدري ما يجيبهُ وقلبهُ يتقد غيرة ولكن حبهُ الحسن غلب على ما يخشاهُ الناس من عوامل الغيرة وعظم عليهِ الامر ولم يجب على انهُ تشاغل بالنظر الى الافق كأنهُ يرى شيئًا . فقال لهُ الحسن ما رأيك يا اخي ما بالك لا تجيبني هل اكلم والدي او تكلمهُ انت عني ما بالك لا تجيبني

فتظاهر محمد بانشغالهِ بشبح يراهُ خارج سور المدينة وتطاول بعنقهِ كأنهُ يتأملهُ ويتفرس فيهِ وقال اني منشغل بهجان اراهُ قادمًا بسرعة البرق نحو المدينة

وكأني به رسول

فالتفت الحسن فرأى هجاناً مقبلاً عن بعد ولكنه لم يتبينه جيداً

فقال ومن هذا الرسول يا ترى

قال محمد (وقد سرّ لتغيير الموضوع) الى الحق فقال لا ارى رسولاً قادماً الينا الاّ وانا أخاف ان يأتينا بخبر سوء. ولا اخال العمال الذين ارسلهم امير المؤمنين الاّ راجعين القهقرى اجارنا الله من عواقب الفتنة

فقال الحسن ومن اين تظن هذا الرسول قادماً

قال يخيل لي من جهة مسيره انه قادم من الشام ولعله رسول معاوية وماذا نرجو من رسول يأتي من معاوية

قال الحسن دعنا نلاقيه ونسأله عمن هو

قال محمد هلمَّ بنا واذا كان رسولاً من معاوية فالامر اما انتهى الى السلم واما الى الحرب لان امير المؤمنين كتب اليه منذ ثلاثة اشهر [1] ولا ندري ما يكون جوابه قال ذلك ومشيا وكان الرسول قد دخل المدينة فلما دنا منه تفرسا فيه فاذا هو رجل من بني عبس تدل قيافته على انه من اهل الشام وقد التف بالعباءة وتلثم بالكوفية وعلاه الغبار وتعب حملته لمجاهدته في سوقه تعجلاً لوصوله وعجبا لامره لانه حالما دخل المدينة مدّ يده الى جيبه واخرج طوماراً وهو صحيفة مختومة قبض عليها من اسفلها ورفعها والناس يتبعونه وهم ينظرون الى الطومار فاستوقفه محمد قائلاً ممن انت

قال رسول من معاوية بن ابي سفيان

قال الى من

قال الى امير المؤمنين

قال الحسن وماذا تحمل اليه

قال هذا الكتاب واشار الى الطومار

فقال سر الى امير المؤمنين انه في داره . فسار وسارا في أثره وهما في شاغل بما قد يكون في ذلك الكتاب ولولا حرمة امير المؤمنين لفضّا الختم تشوقاً للاطلاع على ما فيه

(١) ابن خلدون ج٢

ووصل الرسول الى دار علي واشتغل بنقل جثته فسبقه محمد والحسن الى الخليفة وكان متكئاً في حجرته فاعلماه بقدوم الرسول فلما سمع خبره جلس وقد همه امره واستقدمه اليه

فدخل ومعه جمهور وعليٌّ جالس ومحمد والحسن وغيرهما من الصحابة بين يديه فتقدم الرسول غير هائب ذلك المجلس وقد رفع الطومار بيده فهمّ بعض الوقوف ان يتناوله منه فأبى اذ اراد ان يسلمه للامام بيده

فمد الامام يده وتناول الطومار فقرأ على ظاهره « من معاوية الى علي » ففضّ الختم وفتح الطومار والناس صامتون لما سيتلى عليهم فلم يجد فيه شيئاً فبغت وظهرت البغتة والغضب على وجهه والتفت الى الرسول وقال له « ما وراءك »

قال « آمنٌ انا »

قال « نعم ان الرسول لا يقتل » قال « تركت ورائي قوماً لا يرضون الاّ بالقود »

قال عليٌّ « ممن »

قال « من خيط رقبتك . وتركت ستين الف شيخ تبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد البسوه منبر دمشق » (1)

فنظر عليٌّ اليه نظر الاستغراب والدهشة وقال « أمني يطلبون دم عثمان . اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان قد نجا والله قتلة عثمان الاّ ان يشاء الله » (2) قال ذلك وحوّل وجهه عن الرسول كأنه لم يعد يستطيع ان يراه واشار اليه ان يخرج

فقال أأخرج وانا آمن قال « وانت آمن » فحوّل الرجل يريد الخروج فاعترضه بعض رجال علي وهمّوا بقتله فصاح فيهم عليٌّ ومنعهم فنجا العبسي وهو لا يصدق

واشار الامام بعد ذلك الى الناس فخرجوا وخلا باولاده وفيهم محمد بن ابي بكر وبعث الى عبد الله بن عباس وقال لهم « قد سمعتم ما قال معاوية فلم يبق ثمت بدّ من القتال فتهيأوا له » فقالوا بصوت واحد « انا معك انى سرت وما تندبنا اليه فانا طوع امرك » فجد جداً فدفع لواءه لمحمد بن الحنفية اخي الحسن من ابيه وولى عبد الله بن عباس ميمنته وعمرو بن ابي سلمة ميسرته . وتثاقل اهل المدينة في بادىء الرأي ولكنهم اطاعوا اخيراً (3)

(1) ابن الاثير ج ٣   (2) ابن خلدون ج ٢   (3) ابن الاثير ج ٣

وقضى عليٌّ اياماً في اعداد المعدات ومحمد والحسن في مقدمة العاملين. اما محمد فلما تحقق وقوع الحرب وتجنيد الجند ولم يندبهُ امير المؤمنين للقتال صغرت نفسهُ وتذكرانهُ ممن رأوا قتل عثمان فهو أولى بالمسير الى الحرب فثارت في نفسهِ نار الحمية ولم يرَ لها شفاء الاَّ بالمسير الى القتال فسار الى عليٍّ يطلب اليهِ ارسالهُ في تلك الحملة وفيما هو سائر تذكر اسماء وبعدها وهو لا يعلم ما جرى لها فحدثتهُ نفسهُ ان يتقاعد عن المسير الى الحرب وهو لم ينتدب اليها. ولكنهُ لم يكد يتصور ذلك حتى اعترضهُ وجوب الدفاع عن علي لانهُ كان في جملة الذين حرَّضوا عليهِ ذلك الثار

الفصل التاسع والاربعون

حرب أخرى

وما زال سائرًا حتى دخل على عليٍّ فرآه يخطر في غرفتهِ ذهابًا واياباً وليس في الغرفة سواه. ورأى في يدهِ رقعة يتأملها ويعيد تلاوتها وقد أخذ منهُ القلق مأخذًا عظيماً. فهاب الدخول عليهِ وظل واقفاً عند الباب يتردد بين ان يدخل او يعود فلمحهُ عليٌّ فناداهُ فدخل وحياهُ فرد التحية وهو مقطب الوجه. فهمَّ محمد بمباحثتهِ ولكنهُ تربص عساهُ ان يسمع منهُ خبرًا جديدًا. فصبر هنيهة وعليٌّ يخطر في ارض الغرفة حتى وقف الى نافذة من نوافذها واخذ ينظر الى الافق وهو غارق في بحار التأمل ثم حوّل وجههُ الى محمد بغتة وقال «اين هو الحسن»

قال لا ادري يا مولاي لعلهُ في المسجد فهل من امر اقضيهِ لامير المؤمنين

قال ساطلعك على ما حدث ولكن ما الذي جئت بهِ اني ارى في وجهك خبرًا

قال انما جئت التمس من سيدي ابي الحسن ان يساويني باهل الثقة من رجالهِ

قال وما ذا تعني

قال اعني انك امرت الناس بالتأهب للحرب وعينت القواد والامراء ولم تأمرني بالمسير معهم وانا اولى منهم بهذه الحرب

فتبسم الامام علي تبسماً يمازجهُ قلق وقال بورك فيك يا ابن اول الخلفاء لأَنت

عندي كأحد اولادي ولكنني استأذنت سمّيك محمداً (ابن الحنفية) في هذه الحملة واستبقيتك لمهمة اخرى

قال اني طوع ارادتك واراني مع ذلك ٠ كلفاً باحتمال جهد هذه الحرب اكثر من سواي

قال لا تستعجل يا بني انك ستلاقي طريقاً تسير فيه الى حرب اخرى لان الطرق كثيرة

فتوسم محمد من وراء ذلك امراً مكتوماً فقال وماذا يعني مولاي بالحرب الاخرى وهل حدث ما يدعو الى حرب

فالقى علي تلك الرقعة اليه وقال اقرأ هذه الرقعة التي أتتني الساعة فانها تنبئك الخبر اليقين

فتناولها محمد ونظر فيها فاذا هي كتاب ام الفضل من مكة تنبئ الامام علياً باجتماع طلحة والزبير وام المؤمنين على الطلب بدم عثمان وانهم تهيأوا للمسير الى البصرة

فبغت محمد وتلا الرقعة ثانية وثالثة وهو لا يتكلم . وتحوّل عليٌّ الى مصحف على منصة امامه فتناوله وجعل يقلب في صفحاته

فاراد محمد ان يكلمه فرآه يقلب صفحات القرآن فلبث صامتاً وقد هاله ما احاط بهذه الخلافة من البلاء . وتذكر اخته واسماء عندها

وفيما هو يفكر تحوّل عليٌّ اليه وبيده سواكٌ يتشاغل به وهو يقول « ارأيت يا محمد ما عملتْ بنا اختك »

فقال محمد اني لأعجب من عملها ولا اكاد اصدق انها فعلته . الم يعلم امير المؤمنين شيئاً غير ما في هذه الرقعة

قال ألا يكفينا ما فيها

قال وما الذي حملهم على ذلك

قال أتسألني يا محمد عن السبب وقد انبأتكم بهذه العواقب قبل حدوثها . كم قلت لكم دعوا هذا الرجل وشأنه لا تقتلوهُ لان قتله سيكون سبباً لفتنة عظمى لطمع بعضهم في الخلافة لانفسهم فلو ظلَّ عثمان حيّاً لم يكن ثمت ما يبعث على هذه الحروب

وقد بايعوني وانا اعلم انهم يضمرون غير ما يظهرون فان طلحة والزبير يريدانها كل منهما لنفسه دون سواه فهما في انقسام عليها ولو اتحدا في مقاومتي . وسترى اذا هما غلبا عليَّا ان الحرب ستقوم بينهما حتى يفني احدهما الآخر و يقتل الالوف من المسلمين ولو اعلم ان تنازلي عن الخلافة يخمد الفتنة لتنازلت عنها منذ اليوم . ولكني اعلم انها تصبح بعدي فوضى كل منهم يتطلبها لنفسه . ناهيك عن معاوية في الشام وما في خاطره من الطمع في هذا الامر ولا يغرنك ما يدعيه من الطلب بدم عثمان وهو لو همه امره لنصره قبل ان يقتل . ولكنه اتخذ قتله ذريعة الى التماس الخلافة لنفسه مع علمه اني اولى الناس بها . فالغيرة على الاسلام وحدها تدعوني الى الدفاع عن خلافتي لعلهم يجمعون على بيعتي فتخمد الفتنة . واما خروجها من يدي طوعًا او كرهًا فانه يدعو الى فتنة عظمى اخشى ان تقضي على الاسلام والعياذ بالله

ولم يكد علي يتم كلامه حتى تقطر العرق من جبينه على لحيته واحمرّت عيناه وتناثرت منهما دمعتان اختلطتا بالعرق وتجلت في وجهه ملامح تشف عما قام في نفسه من الغيرة على الاسلام وتعاظمت هيبته حتى لم يعد محمد يستطيع النظر اليه تهيبًا من غضبه وخجلاً من نفسه لانه كان في جملة الذين يرون قتل عثمان . فلبث برهة صامتًا وعليٌّ يمسح العرق عن جبينه وينفضه عن لحيته

وبعد السكوت برهة قال محمد يظهر يا مولاي ان اختي لم تقم لهذا الامر الا مدفوعة بتحريض طلحة والزبير وقد خرجا من المدينة عاصيين واني لأرجو اذا لقيتها ان احوّلها عن عزمها . ولكني لم افهم الحكمة في مسيرهم الى البصرة دون سواها

قال اظنهم رأوا اهل المدينة بايعوني فاستنهضوا اهل مكة على نقض البيعة وساروا يفعلون مثل ذلك في البصرة والكوفة

قال محمد وهل سألت الرسول عن تفصيل الامر

قال لم اسأله الا قليلاً

فقال اتأذن لي ان اكلمه واستفهم عن التفصيل

قال لا اظن انه يعلم تفصيلا ولكني ارى ان انتدبك للسير الى مكة تستطلع سرّ الامر بنفسك وانت اولى الناس بذلك لان اختك ام المؤمنين في جملة القائمين به

فسرّ محمد لهذه المهمة سرورًا عظيماً لانه يخدم بها الاسلام ويرضي بها الامام

ويستطلع حال اسماء

فاجاب قائلاً لبيك يا مولاي اني سائر الساعة وارجو ان احوّل اخي عن هذا العزم اذ قد يكون طلحة والزبير هما اللذان حرضاها عليه . وهل تريد ان يعلم احد بسيري

قال لا أرى ان يعلم به احد سر بحراسة الله

قال هل تأذن لي بمقابلة الرسول الذي حمل هذا الكتاب اليك اسأله بعض الاسئلة

قال اسأله انه في دار الاضياف

فخرج محمد وهو لا يزال مدهشاً لهول ذلك الخبر ولكن لقياه اسماء كان يهون عليه بعض الشقاء . فسار الى دار الاضياف فلقي الرسول فعرفه فسأله عن عجوزه هل لقيها في مكة

فاخبره انه رآها يوم سفره عند ام الفضل ومعها فتاة مريضة

فقال محمد وهل تعرف تلك الفتاة

قال لا اعرفها لانها غريبة الدار ولكني علمت انها جاءت مكة مع تلك العجوز وكانت تقيم في منزل ام المؤمنين ثم انتقلت الى بيت ام الفضل ورأيتها تشكو من حمى شديدة

فاحس محمد بنار اتقدت في اعضائه وخاف ان تكون اسماء قد اصيبت بسوء فاصبح مدفوعاً الى الاسراع في المسير بدافعين قويين خدمة امير المؤمنين والبحث عن اسماء

الفصل الخمسون

خواطر وهواجس

فخرج لساعته وودع عليًا ولم يعلم احد بمهمته وركب هجينًا واصطحب خادمًا من بعض السبئية وركب قاصدًا مكة وهو يود ان يطير اليها على اجنحة النسيم . فبات تلك

الليلة في قباء فتذكر اول مرة رأى فيها اسماء تندب أُمّها واصبح قبل الفجر على هجينهِ يطوي السهل والوعر وهو لا يصدق انهُ يصل مكة ويرى اسماء حية

على انهُ لم يكد يخلو بنفسهِ في تلك الصحراء حتى تصوَّر ما يحدق بالخلافة من الاخطار الهائلة التي تستلزم صبرًا وانقطاعًا عن كل عمل سواها . فلام عواطفهُ لانشغالها بالحب وعوَّل اذا اتى اسماء ان يعاهدها على الاقتران ولكنهُ يشترط عليها ان لا يكون ذلك الاَّ بعد انتصار الامام عليّ في حروبهِ على ان يكون ذلك نذرًا عليهما

وكان كلما اقترب من مكة تعاظم ذلك الامر لديهِ وثارت فيهِ الحمية الاسلامية والغيرة على الامام علي وهان عليهِ أمر الحب وعواملهِ . فلم يحلُ باله من هذه الهواجس لحظة وتذكر تصنُّع اسماء . وما شاهدت بهِ من عواقب تلك الفتنة وكم حرضت الناس على الكف عن عثمان وقد لبت نزاهة ساحتهِ فعظمت في عينيهِ وازداد اعجابًا بعقلها وحسن نظرها وايقن انهم لو اطاعوها الى رأيها لكانوا في غنى عن تلك الحروب

فقضى طريقهُ كلهُ في مثل هذه الخواطر وهو مع ذلك يستحثُّ جملهُ لا يلتفت يمنة ولا يسرة مخافة ان يضيع الوقت وامسى وهو لا يزال على بضعة اميال من مكة فشق عليهِ المبيت خارجها وعوَّل على مواصلة السير حتى يدخلها ولو ليلاً . فاشار عليهِ خادمهُ ان يستريح هنيهة ويريح الجمل ريثما يطلع القمر فيسيران في ظلهِ . فاستحسن الرأي فنزلا في مكان رأيا عندهُ بيتًا حقيرًا عند بابهِ شيخ توسد حصيرًا من سعف النخل وامامهُ جرار واكواب من الخشب يسقي بها من اراد من المارة في تلك الصحراء

فنزل على الشيخ وحياه ورحب بهِ ونادى ابنة لهُ وعيالاً ليقدموا لضيفهم ما يحتاج اليهِ من الماء او العلف للجمال . فعهد محمد بتدبير ذلك الى خادمهِ وصعد الى رابية خلا فيها بنفسهِ وقد غابت الشمس فحوَّل نظرهُ من تلقاء نفسهِ الى مغيبها في الافق وكان الجو صافيًا وقد ظهر الشفق بالوانهِ من خلال اغصان السنط المتفرقة على أكمة هناك وقد هدأ الجو لا يهبُّ الهواء الاَّ لطيفًا لا يسمع لهُ هبوب . واوت الطيور الى اعشاشها الاَّ الخفاش فانهُ خرج يتطاير بسرعتهِ

فاتكأ محمد على بساط فرشهُ لهُ خادمهُ وعيناهُ شاخصتان الى الافق يراقب تلونهُ فما زالت الوانهُ تتحول من الزهو الى الكمود حتى خيم الظلام وأوقد الشيخ نارًا يهتدي بها المارة الى ذلك المستقى . فغرق محمد في هواجسهِ حتى غاب وجدانهُ فنبههُ

حسبٌ مرَّ عند قدميهِ فوقف وارسل نظرهُ الى الافق عن بعد فرأى اشباحاً مارة تترَّس فيها فاذا هي بضعة جمال بينها هودج وعليها اناس قد حجب البعد هيئاتهم واسرعوا في المسير فخيّل اليه من جهة مسيرهم انهم خارجون من مكة يريدون المدينة او نحوها. فتوقع محمد ان يمروا بذلك المستنقع لجاري العادة في من يمرّ هناك لعلهُ يستطلع منهم شيئاً عن حال مكة قبل وصولهِ اليها فاذا هم قد واصلوا السير عن بعد ولم يعرجوا . فظنهم من طلائع جند مكة السائرين الى البصرة ولما تواروا عن نظرهِ ولم يرَ احداً في اثرهم علم انهم ليسوا من الطلائع . ولكنهُ عجب لخروجهم من مكة في ذلك الليل واسراعهم في المسير في غير الطريق العام كأنهم سائرون خلسة وود لو انهُ يعلم من هم . ولكن الظلام حجبهم عنهُ فعاد الى هواجسهِ

ولم تمضِ هنيهة حتى طلع القمر من وراء تلك الاكمة كأنهُ رقيب جاء ليبحث عن لصوص الظلام فلما اطلَّ عليها بادرت الى الفرار الاَّ ما كان منها قريباً ولم يستطع فراراً فاختبأ وراء التلال وفي اعماق الاودية ثم لحق برفاقهِ وتلاشى . واشرق القمر وهو دون البدر وقد ابيض وجههُ وسطع نورهُ فحرك ما في نفس محمد فنادى خادمهُ فهيأ الهجين وودع الشيخ بعد ان اكرمهُ وركب قاصداً مكة

الفصل الحادي والخمسون

البغتة

ولم يسر ساعة حتى اطلَّ على مكة وهي في منبسط من الارض تحدق بها الجبال من كل ناحية فطلع على اكمة وتأمل بيوتها بضوء القمر فاول ما استلفت نظرهُ منها الكعبة . وكان يتوقع ان يرى مضارب او جنوداً في مكة او حولها فلم يرَ شيئاً فواصل السير يريد منزل ام المؤمنين فمر بالاسواق فلم يجد ما كان يتطلعهُ من الحركة والجلبة والازدحام حتى وصل بيت اختهِ فترجل عند بابهِ وقرعهُ فاطلَّ عليهِ عبد حبشيٌّ عرف من صوتهِ انهُ من عبيد ام المؤمنين فناداهُ باسمهِ ففتح لهُ الباب فدخل فرأى المنزل هادئاً فسألهُ عن ام المؤمنين فقال انها خرجت من مكة بالامس

قال والى اين

قال ألم تسمع بما اجمعوا عليهِ

قال وهل ساروا الى البصرة

قال نعم

فسأَلهُ عمن سار معها فأنبأَهُ بما كان فاستعاذ بالله وأسف لوصولهِ بعد خروجهم واراد العبد ان يحلّ جملهُ ويهيّ لهُ الطعام فقال لاتفعل اني خارج في حاجة وربما اعود وامر خادمهُ ان يمكث هناك ريثما يرجع وخرج وهو لايزال بلباس السفر قاصدًا بيت ام الفضل وهو يكاد يتعثر باذيالهِ لسرعة مشيتهِ فوصل منزلها فرآهُ مغلقًا وقد أطفئت مصابيحهُ فظن اهلهُ نيامًا فتردد في ان يوقظهم او يصبر الى الغد ولكن شوقهُ لرؤية اسماء هوّن عليهِ ايقاظهم . فدنا من الباب وامسك بحلقتهِ وشدها فرأَى الباب موصدًا فقرعهُ قرعًا شديدًا فاجابهُ البستانيّ فقال افتح ففتح لهُ فسأَلهُ عن ام الفضل

قال انها ذهبت الى فراشها واظنها لم تنم بعد

قال قل لها ان ابن اختك محمدًا جاء

فلما علم البستانيّ انهُ ابن ابي بكر هرول الى مصباح اناره ودعا محمدًا للجلوس على المصطبة ودخل الى ام الفضل فاخبرها فاسرعت اليهِ وقد علتها البغتة وصاحت قبل ان يحييها قائلة ما الذي جاء بك يا محمد . واين كنت

فعجب للهفتها وقال اني قادم من مكة . اين اسماء

قال كيف تسأَلني عنها وقد بعثتَ في استقدامها

قال الى اين

قالت ألم تبعث اليها كتابًا تستقدمها بهِ اليك

فقال ومن قال لك ذلك

قالت لم يقل لي احد ولكنني رأيت رسولك ومعهُ كتابك دفعهُ اليها عند العصر وكانت لا تزال ضعيفة فلم تصبر الى الغد بل ركبت حالاً وهي لضعفها لا تقوى على السفر

قال ماذا تقولين هل سافرت اسماء . انهم زوّروا الكتاب عن لساني . من تجاسر ان يفعل ذلك . من هو ذلك النذل الذي ارتكب هذه الخيانة

فلطمت ام الفضل يدًا بيد وصاحت ما تقول يا محمد

فبهت محمد لحظة ثم قال من اي الطرق سافرت

قالت سافرت في هذا الطريق المؤدي الى المدينة

فتذكر محمد الاشباح التي رآها خارج مكة وقال لقد لقيتها والله في طريقي ولكني لم اعرفها يا ليتني اعترضت ذلك الركب وهي معهم . ولو كانت صحيحة ما خفت عليها بأسًا ولكنك تقولين انها مريضة فاخشى اذا احرجوها ان تموت غيظًا . لا حول ولا قوة الاّ بالله . . . من يا ترى فعل ذلك . . . وصمت برهة يفكر فلم يستطع ادراك سرّ الامر ثم هبَّ من مكانهِ وقال استودعك الله يا خالة وخرج

فقالت تمهّل يا محمد لترى

قال ان الوقت ثمين دعيني اتعقب الركب الذين رأيتهم في طريقي لعلي اظفر بها معهم . ولم يكد يخرج من الباب حتى وقف بغتة كأن شيئًا اعترضهُ فعاد الى ام الفضل فاستفهمها عن الحملة وجهة مسيرها فقصّت عليهِ الخبر مختصرًا فوعى كل ذلك في ذهنهِ وعرّج مسرعًا يلتمس الطريق الذي رأى اولئك الركب سائرين فيهِ

فمرّ بخادمهِ في منزل اختهِ فرآه غارقًا في النوم من شدة التعب وقد ارسل الجمال الى المربط للشرب والعلف فايقظهُ وامرهُ ان يتهيأ للرجوع فنهض وعيناهُ لا تنفتحان من شدة النعاس وعلم اهل المنزل بمجيء محمد فجاءه قيم الدار يدعوهُ الى الطعام فاعتذر انهُ لا يستطيع البقاء هناك

فقال ولكن الجمال تحتاج الى الراحة واستمهلهُ ريثما يهيء لهُ طعامًا فانتبه انهُ لا بد لهُ من الاستراحة هنيهة ريثما ترتاح الجمال فاذن باعداد الطعام فجاؤوه بما حضر فاكل وهو يستحث الخادم في التاهب للسير . وبعد هنيهة ركب وسار باسرع ما يمكنهُ . وكان القمر قد تكبد السماء والجو قد صفا فالتمس الطريق الذي ظنّ الركب قد ساروا فيهِ فقضى برهة لا يتكلم ولا يسمع صوتًا الاّ جعير الجمال مرة بعد اخرى . فانتصف الليل والخادم يتوقع ان يسمع امره بالنزول للمبيت فلم يؤانس منهُ الاّ استحثاثًا ثم رآه يطلب طريقًا غير الذي جاءا فيهِ فنبههُ الى ذلك مخافة ان يكون قد اخطأ السبيل . فاجابهُ انهُ يعرف الطرق ولا يحتاج الى تنبيه فسكت وظل سائرًا فوصلا الى مكان ينفصل فيهِ الطريق الى شعبتين احداهما تتصل بطريق المدينة والاخرى تنتهي الى طريق البصرة فوقف هناك و وقف خادمهُ وكلاهما صامتان

الفصل الثاني والخمسون

قيافة الاثر

واما الخادم فكان مع استغرابهِ ما رآه من غضب محمد وقلقهِ لا يجسر على الاستفهام منهُ عما يقصده · فلما وقف عند المفرق وقف معهُ وهو لا يتكلم وكان من الساهة والذكاء على جانب عظيم عارفًا الاسفار خبيرًا بالطرق وفروعها وكان حاذقًا في القيافة وخصوصًا قيافة الأثر فلما رأى مولاه قلقًا ادرك انهُ يفتش عن ضائع فاراد ان يستطلع ما في نفسهِ فقال ما بال سيدي واقفًا الا يرى ان يامرني بخدمة أؤديها

فلما سمع محمد كلامهُ انتبه وتذكر مهارتهُ في استطلاع آثار الاقدام فقال في نفسهِ لعل هذا الرجل ينفعنا باختباره

وكان الخادم كهلاً عركتهُ الدهر وقضى معظم ايامهِ في الاسفار وتحمل الاخطار وكان طويل القامة سريع الحركة قلما يبالي بالتعب ولا يخاف الموت فقال لهُ محمد ألك مهارة في قيافة الاثر يامسعود

قال نعم يا مولاي اني من امهر القائفين

قال أترى على هذا الرمل اثرًا لمشاة او فرسان وهل تستطيع تحقق ذلك في ضوء القمر

قال نعم يا مولاي · وترجّل عن راحلتهِ وجعل يتفرس في رمال الطريق كأنهُ يقرأُ كتابًا او يضرب حسابًا ومحمد واقف بالقرب منهُ يراقب حركاتهِ فرآه يتنقل بخفة ولباقة فلا يضع قدمهُ الاَّ حيث يرى انها لا تفسد اثرًا سابقًا · وما زال يروح ويجيء وهو يتفرس ويعدُّ ويحسب ويقيس باشاره واصابعهِ ويراقب جهة الاقدام او الخفاف او الحوافر ومحمد يعجب لما يبدو من خفتهِ وحذاقتهِ حتى كاد يملُّ الانتظار وادرك مسعود قلقهُ فقال (وهو لايزال يتفرس في الرمال) لا تضجر يامولاي من طول الانتظار فاني ارى ارتباكًا في الركب الذين مروا من هذا المكان وكأنهم وقفوا فيهِ برهة يروحون ويجيئون وربما تضاربوا او تحاوروا فاصبر هنيهة ان الله مع الصابرين وعاد مسعود الى عملهِ وهو يمشي القرفصاء ويحني رأسهُ يتفرس في الرمال حتى يكاد

يلامس وجهة الارض

فمضى في ذلك ساعة ومحمد كأنهُ واقف على النار وربما خيّل لهُ لعظم قلقهِ ان الليل كاد ينقضي . وفيما هو في قلقهِ رأى مسعودًا انتصب بغتة وتجدب وتمطى كأنهُ تعب من القرفصاء والانحناء ومشى اليهِ فتقدم محمد نحوهُ وهو يقول ما رأيت يا عم

قال ان الآثار تشابهت عليَّ لاختلاطها ولكنني علمت مع ذلك انها آثار قافلة صغيرة مؤلفة من بضعة جمال بينها جملان يسيران متواليين كأنهما يحملان هودجًا او نحوهُ ومعها عدة مشاة من الرجال اكثرهم يحملون رماحًا لاني ارى آثار كعابها بجانب الاقدام . ويظهر يا مولاي ان الركب وقف هنا وتردد في المسير على غير نظام وربما وقع بينهم جدال او خصام يدلك على ذلك ما في آثار اقدامهم من عدم الانتظام مع كثرة الابعار التي تراها مجتمعة ولكن يظهر انهم اتفقوا اخيرًا على المسير في هذا الطريق

فقال محمد والى اين يؤدي

قال يؤدي الى البصرة او الكوفة

فسكت محمد وقد ترجح عنده انهم هم الركب الذين رآهم في اول ذلك الليل عن بعد فاعمل فكرتهُ وقد حدثتهُ نفسهُ ان يتبع تلك الآثار فخاف ان يشغلهُ ذلك عن المهمة التي جاء بها الى مكة . فوقف صامتًا يتردد بين ان يطلع مسعودًا على سرّ الامر او يظل على كتمانه فتحير في أمرهِ ثم قال بغتة وما ظنك يا مسعود بالزمن الذي مروا بهِ هل هو بعيد

قال اظنهم مروا في اوائل الليل منذ اربع ساعات او خمس وهم سائرون على عجل

فقال وهل تظننا اذا اقتفينا اثرهم ندركهم

قال اذا طاولوا في مسيرهم لا نظننا ندركهم الاَّ بعد يومين او ثلاثة . قال ذلك وقد ملّ من كتمان محمد عنهُ الغرض من هذا البحث فعوّل على استطلاع السرّ فقال هل يرى مولاي ان يطلعني على ما همهُ من هذا الركب لعلي استطيع خدمة لهُ في شيء

قال يهمني يا مسعود من هذا الركب امر كبير . هل تعرف خادمتنا العجوز التي

كانت في المدينة

قال نعم اعرفها

قال انها جاءت مع فتاة اموية الى مكة واقامت عند اختي ام المؤمنين فلما اجمع اهل مكة على المسير الى البصرة جاءهما اناس بكتاب مزوَّر عن لساني يدعونهما الى المدينة فسارتا معهم في غروب هذا اليوم ولا ادري من تجرأ على هذا الفعل ولا الى اين سارو بهما . ولكن يظهر مما بينته فيافتك انهم هم الركب الذين مرُّوا بهذا المكان الليلة

فقال مسعود هل ترى ان اقتفي اثرهم وآتيك بالخبر واذا استطعت انقاذهما فعلت

فاستحسن محمد رأيهُ واثنى على غيرتهِ واوصاه ان يحفظ سمعه وحرضهُ على الاسراع وودعهُ وركب هجينهُ وتحول الى المدينة

الفصل الثالث والخمسون

﴿ حملة علي على البصرة ﴾

اما الامام علي فانهُ خلا بنفسهِ بعد خروج محمد من غرفتهِ ففكَّر بما هم فيهِ فرأى من الحزم ان يحول عزمهُ عن الشام الى البصرة فاستشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقوه على ذلك فدعا وجوه اهل المدينة وخطب فيهم فحمد الله واثنى عليهِ ثم قال « ان آخر هذا الامر لا يصلح الاَّ بما صلح اولهُ فانصروا الله ينصركم ويصلح امركم »(١) فرأى تثاقلاً منهم وقد كان يتوقع تلبية ونهضة فلم يفلل ذلك شيئًا من عزيمتهِ . على ان جماعة من الصحابة قدموا انفسهم للدفاع عنهُ واستحثوا الناس فعادوا الى نصرتهِ فعبى التعبية التي تعباها لاهل الشام آخر ربيع آخر سنة ست وثلاثين وانضم اليهِ من نشط من الكوفيين . وفيما هو في الاستعداد قدم محمد بن ابي بكر وانبأهُ بما كان من خروج عائشة وطلحة والزبير ومن معهم الى البصرة فعول على المسير واستعجل . وكان الناس يتوقعون ان يرسل الحملة ويبقى هو في المدينة حنفًا

(١) ابن الاثير ج ٣

لسطوتهِ فيها · فلما رأوه ركب في مقدمة الحملة تقدم اليهِ عبد الله بن سلام فاخذ بعنانهِ وقال « يا امير المؤمنين لا تخرج منها فوالله ان خرجت منها لن يعود اليها سلطان المسلمين »

فقال عليٌّ لا بد من خروجي

فتكاملت الحملة واجتمعت في الربذة على ثلاثة اميال من المدينة [1] وهناك تهيأوا للخروج ومحمد والحسن معهم · وكان الحسن في اثناء ذلك مشتغلاً بمهام الخلافة عن كل شاغل وربما مرت اسماء في ذهنهِ فيصرفها الى ما بعد هذه المشاغل

اما محمد فانهُ استشأ خادمهُ وهو لا يدري ما صار اليهِ وشغل باله عليهِ على انهُ سرَّ لمسيره هو في تلك الحملة لعلهُ يعلم شيئاً عن اسماء

ولما اجتمع جند علي في الربذة جاءه رجال من طي واسد وانضموا الى جنده فاشتد ازرهُ على ان الحسن لم يكن راضياً بخروج والده في تلك الحملة بنفسهِ فلما رآه عازماً على ذلك قال لهُ « لقد امرتك فعصيتني فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك »

فقال لهُ علي « انك لا تزال تحن حنين الجارية وما الذي امرتني فعصيتك »

قال « امرتك يوم احيط بعثمان ان تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ثم امرتك يوم قتل ان لا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة اهل كل مصر فانهم لن يقطعوا امراً دونك فابيت عليَّ وامرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان ان تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فان كان الفساد كان على يد غيرك فعصيتني في ذلك كلهِ »

فقال « اي بني اما قولك لو خرجت من المدينة حتى احيط بعثمان فوالله لقد احيط بنا كما احيط بهِ · واما قولك لا تبايع حتى يبايع اهل الامصار فان الامر امر أهل المدينة وكرهنا ان يضيع هذا الامر ولقد مات رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وما أرى احداً احق بهذا الامر مني فبايع الناس ابا بكر الصديق فبايعتهُ ثم ان ابا بكر انتقل الى رحمة الله وما ارى أحداً احق بهذا الامر مني فبايع الناس عمر فبايعتهُ ثم ان عمر انتقل الى رحمة الله وما ارى احداً احق بهذا الامر مني فجعلني سهماً من ستة اسهم فبايع الناس عثمان فبايعتهُ ثم سار الناس الى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين فانا مقاتل كل من خالفني بمن

(١) مراصد الاطلاع ج ١

اطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . واما قولك ان اجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير فكيف لي بما قد لزمني او من تريدني انريدني ان اكون كالضبع التي يحاط بها و يقال ليست ههنا حتى يحل عرقوباها حتى يخرج واذا لم انظر فيما يلزمني من هذا الامر و يعنيني فمن ينظر فيه فكف عنك يا بنيّ »[1]

وفي الرفقة اعدّ عليٌّ حملته فحمل ابنه محمد بن الحنفية صاحب الراية كما كان عند عزمهم على الشام واعدوا لعلي ناقة حمراء يركب عليها ويقود وراءه فرسًا كميتًا

الفصل الرابع والخمسون

﴿ مسعود والعجوز ﴾

اما محمد بن ابي بكر فكان في شاغل عظيم من امر الحرب والاستعداد لها ولكنه كان كلما خلا لحظة يذكر اسماء وكلما رأى قادمًا من سعر ظنه مسعودًا فلما ابطأ مسعود في القدوم خاف ان تكون اسماء اصيبت بسوء وكلما تصور ذلك هبّ جسمه واقشعرّ بدنه وود لو انه يذهب في مهمة الى البصرة او الكوفة لعله يلقاها او يسمع بخبرها فيطمئن باله

فبات ذات ليلة في خيمته وقد تسلط عليه القلق للافتكار في ما هم فيه من النصرة للامام علي وما يتوقعونه من البلاء . فعظم عليه الامر وتسلط عليه القلق ولاح له ان يلتمس الذهاب بنفسه الى البصرة يستنهض اهلها لنصرة الامام وعوّل ان يبكر في الصباح لمخاطبة الامام في ذلك

ولم يكد يغمض اجفانه حتى سمع صوتًا خارج الخيمة يشبه صوت مسعود فهبّ من فراشه وناداه فاجاب لبيك ودخل وهو لا يزال في ثياب السفر ودخلت في اثره امرأة لم يعرفها محمد في بادئ الرأي لضعف نور المصباح ولكنه ما لبث ان تبين انها العجوز فبغت وتذكر اسماء فقال ما وراءك يا خالة اين اسماء

قالت اظنها الآن في البصرة او الكوفة او لا ادري اين هي

(١) ابن الاثير ج ٣

قال وكيف تركتها وجئتِ وحدك

قالت جئت بامرها وسأقص عليك الخبر بعد ان استريح . قالت ذلك وتنهدت من شدة التعب فخاطب محمد مسعوداً قائلاً واين لقيتها يا مسعود وما الذي دعا الى تغيبك كل هذه المدة

قال طال عليَّ الامد في البحث عن ذلك الركب وكأنهم غيروا طريقهم وتعرجوا في مسيرهم فتشابهت عليَّ الجهات التي ظننتهم ساروا فيها فقضيت اياماً في ذلك حتى كدت ادرك البصرة ورأيت جيش ام المؤمنين عن بعد . ثم تحولت الى طريق آخر فعثرت على هذه الخالة سائرة وحدها فسررت بها فسألتها عن اسماء ومكانها فقالت ان الركب ساروا بها ولا تدري اين هم وان اسماء هي التي بعثت بها اليك برسالة لا ادري ما مفادها وكنت عازماً على مواصلة البحث عنها فمنعتني فجئت بها اليك

فعجب محمد لذلك والتفت الى العجوز وقال قصي علينا الخبر يا خالة من اوله الى آخره

فجلست وكانت قد استراحت واخذت في سرد الحديث فقالت أأقص عليك خبرنا منذ ودعتنا في المدينة وسرنا الى مكة

قال كلاَّ فقد سمعت خلاصة ذلك الخبر من خالتي ام الفضل ولكني اريد الاطلاع على كيفية خروجكم من مكة

قالت « كانت اسماء مريضة عند ام الفضل وهي على مثل الجمر في انتظار امر منك في الانتقال الى المدينة لانها اصبحت بعد ما شاهدت من تألب اهل مكة على الطلب بدم عثمان لا تستطيع الاقامة فيها . وكانت مع ضعفها كلما ذكرت علياً والحرب والانتصار له تشدد وتتقوى حتى يخيل لي انها تشتاق النزول الى ساحة الوغى دفاعاً عن الامام عليّ لشدة اعتقادها ببراءته من دم عثمان . وكانت كما ذكرت ذلك تبكي وتحرق اسنانها غيظاً لقعودها في مكة بالرغم عنها . واشتد ذلك فيها خاصة يوم خروج اختك ورجالها من مكة يريدون البصرة للطلب بدم عثمان فانها اصبحت في ذلك اليوم وليس بها بأس لفرط ما هاج من عواطفها رغبة في المسير الى المدينة وانما كان يقعدها عن ذلك قولك يوم وداعها انك ستبعث اليها من يستقدمها . فبعد سفر ام المؤمنين بيوم او بومين جاءنا رسول بكتاب زعم انه منك ولم تكد اسماء تم

قراءته حتى هبت من فراشها وقد اشرق وجهها وابرقت اسرّتها وقالت هيا بنا ياخالة الى المدينة فان محمدًا بعث من يحملنا اليها . فنظرتُ الى الرسول فلم اذكر اني اعرفهُ فقلت لهُ وابن الجمال والاحمال . قال هي خارج مكة وقد سرحناها للراحة . فلم يعجبني كلامهُ لاني لم اعرفهُ وكانت خالتك ام الفضل جالسة فسألتها عنهُ فقالت انها لا تعرفهُ . فخلوت باسماء وحذرتها من المسير مع اناس لا نعرفهم . فابت الاَّ الركوب حالاً وقالت انها لا تبالي ايًا كانوا وانما غرضها الخروج من ذلك السجن . فاطعتها وخرجنا والرجل يسير امامنا واسماء لا تزال ضعيفة من عواقب الحمى التي اصابتها وكنت قبل خروجنا من بيت ام الفضل قد عرضت عليها ان يذهب ذلك الرسول فيأتينا بالجمال الى البيت فنركب من هناك فلم تستطع صبرًا وأبت الاَّ المسير حالاً فوصلنا الى المكان الذي اشار اليهِ الرسول ورأينا هناك هودجًا على جملين وجمالاً اخرى وبضعة رجال لم اعرف احدًا منهم فازددتُ خوفًا ونبهت اسماء الى ذلك فلم تنتبه كأن رغبتها في المسير اليك اسكرتها واعمت بصيرتها . فركبنا والخدم في ركابنا حتى اتينا مكانًا تتصل فيهِ الطرق الى شعبتين وهناك رأينا أُناسًا مسلحين ينتظرون وصولنا وفيهم شاب بلباس ثمين كأنهُ سيدهم فلما وصلنا المفرق وقفت جمالنا ودنا الرجال من احمالنا فتحققنا وقوع الخيانة . وكان الليل قد سدل نقابهُ فلم نعرف احدًا من هؤلاء فلما رأيناهم تحولوا من طريق المدينة الى طريق البصرة قلت الى اين انتم ذاهبون بنا . قالوا الى حيث نشاء . فهالني جفاء ذلك الجواب ونظرت الى اسماء بضوء القمر فاذا هي ثابتة الجأش مع ضعفها وقد كنت واياها في الهودج معًا وحالما تحولنا في ذلك الطريق انزلوني من الهودج وحملاه على جمل واحد واركبوني الجمل الآخر فاطعت بالرغم عني وتهددوني وانا لا اجيب »

وكانت العجوز تتكلم ومحمد مصغٍ يتطاول بعنقهِ لسماع تتمة الحديث وقد ظهرت البغتة على وجههِ



الفصل الخامس والخمسون

﴿ اسماء في الاسر ﴾

ثم قالت العجوز « ومازلنا سائرين مسرعين طول ذلك الليل فلما اصبحنا وتبينت الوجوه تأملتُ اولئك الرجال جيداً فرأيت بينهم واحداً تذكرت اني رأيته في جملة الخدم في بيت اختك ام المؤمنين وتأملت الشاب الذي ذكرت لباسه الفاخر فاذا هو ذو جمال باهر وقيافة حسنة فظننته سيدهم ولم اعرف من هو ولكنني سمعتهم ينادونه « سعيد » و يظهر من قيافته انه من اهل البصرة

« ولم تكد تستريح جمالنا حتى جاء هذا الرجل الى هودج اسماء وانا انظر اليه من بعيد واسمع بعض كلامه ففهمت انه يسألها كيف ترى نفسها وهل هي لا تزال تفضل المدينة واهلها على سواهم ورأيت منه احتفاء عظيماً بها فامر لها بطعام فاخر وجعل كل رجاله في خدمتها »

فقاطعها محمد قائلاً وهل اكلت من طعامه واجابته على كلامه

قالت العجوز « اعلم يا بني اني لم اشاهد في حياتي كلها لا في الجاهلية ولا في الاسلام فتاة ولا شاباً اثبت جاشاً من اسماء ولا اصبر على المكاره منها فقد كانت مع ضعفها وتيقنها بالخطر الذي وقعت فيه ساكنة القلب لم يبدُ على وجهها شيء من دلائل الخوف والاضطراب وقد لحظتُ لما كان ذلك الشاب يخاطبها انها كانت تجيبه بكلام وان كنتُ لم اسمعه فقد ادركت على أثره في وجه الشاب تهيباً وخوفاً منها . وكان الخطر زاد اسماء هيبة وجلالاً و زادها الضعف حسناً وجمالاً . واما انا فقد كنت خائفة القلب مضطربة الحواس لا اكاد استطيع الوقوف لشدة الارتعاش وهي جالسة في هودجها والكل يلتمسون امرها وخصوصاً سعيد فقد رأيته يسعى في تلبية كل اشارة»

فقال محمد ثانية لم تجيبيني يا خالة على سؤالي هل اكلت من طعامهم

قالت لا ياسيدي لم اشاهدها تأكل ولكنني لا اظنها استطاعت البقاء بلا طعام

قال ثم ماذا

قالت العجوز « ولم نسترح قليلاً حتى نهض الركب وسرنا نطوي البيداء ووجهتنا

العراق وانا لا ادري ماذا اعمل · واظن اسماء لو رأت فائدة من الدفاع لفعلت ولكنها وجدت نفسها عزلاء لا سلاح معها وحولها رجال مدججون بالحراب والسيوف والرماح وقد احسنت سكوتها وتصبرها ولكنني عجبت كيف استطاعت ذلك بدون ان يبدو عليها الخوف وقد كنت اراها كل مسافة الطريق ساكتة تتأمل كانها تفكر في طريقة للنجاة

« واما سعيد الذي هو السبب في ارتكاب هذه الخيانة على ما يظهر واظنهُ فعل ذلك رغبة في الحصول على اسماء فقد رأيتهُ هائبًا مخاطبتها وربما همَّ ان يخاطبها بشيء في نفسهِ فاذا دنا من هودجها ارتج عليهِ فيتظاهر بامرٍ آخر · فقضيتُ اليوم الثاني وانا اود الدنو من اسماء لعلنا نتشاور في سبيل للنجاة فلم استطع لانهم كانوا يحاولون التفريق بيننا عنوة · فبتنا تلك الليلة واصبحنا وقد مللت هذه الحال فلاح لي اخيرًا ان أتظاهر بالتعب والمرض لعلهم يسمحون لي بمواجهتها وارى ما يكون فشكوت الما في بطني وعجزًا عن الركوب فقال سيد القوم اتركوها في الطريق وسيروا · فصحتُ دعوني انظر ابنتي دعوني اودعها · واخذتُ في البكاء فسمعتني اسماء فطلبت ان تراني فحملوني اليها فاجلستني في هودجها وارخت ستائره ومشى الركب بنا فلما خلونا سألتها عما في نفسها فتنهدت وقالت « اعلمي يا خالة اني في حال لم اقع عمري في مثلها وانا اعلم الناس بما يحدق بي من الخطر ولكنني لااری الخوف يجديني نفعًا ولا انا استطيع دفاعًا ولو كان في يدي عصا او سيف وكانوا ثلاثة او اربعة ما حسبت لهم حسابًا ولكنهم عشرة مسلحون وانا وحدي ولاسلاح معي · على اني سأرى ما يكون من امرهم فطالما كانت معاملتهم اياي على هذه الصورة اسايرهم واسير معهم واذا تغيروا تغيرت والظاهر انهم سائرون بنا الى معسكر ام المؤمنين واظن هذا الشاب المغرور من جملة رجالها وقد لاح لي انهُ طامع بي فليطمع ما شاء اما انا فاني سائرة معهُ حتى اجد لي سبيلاً انجو بهِ ولكنني احب ان ابلّغ حبيبي محمدًا شيئًا في نفسي فكيف العمل » فقلت لها انا ابلغهُ اياه فان هؤلاء الرجال يودون التخلص مني فاذا انا تظاهرت بحب التخلف عنهم خلفوني وساروا فقولي لي ما تريدين · فقالت ساكتب لك ذلك في كتاب توصلينه اليهِ قلت حسنًا · وسرنا هنيهة ثم وقف الركب وجاء ذلك الشاب فرفع الستر عن الهودج وقال لي انزلي من هذا الهودج ان الجمل لا يستطيع حملك فشكوت لهُ التعب

والمرض . فقال لا يعنيني . فقالت لهُ اسماء تمهل ريثما نصل الى مكان نستريح فيهِ جميعًا فاذا لم تقدر هذه الخالة على الركوب معنا تركناها او اوصلناها الى قافلة تسير بها . وكانت اسماء تتكلم والشاب ينظر اليها وقد هام بها ولم تزده انفتها الاَّ حباً وكأنها سحرتهُ فاصابهُ خبل فقال حسناً فوصلنا في المساء الى مكان فيهِ آبار وشجر فنزلنا جميعًا ونصبوا الخيام فطلبت اسماء الخلوة بنفسها فتركوها واجلسني خارج خلوتها لئلاَّ يدهمها احد فقضت هناك ساعة حتى انشغل بالي عليها ثم خرجت اليَّ وقد احمرَّت عيناها وتبللت و بيدها منديل قطعتهُ من قميصها دفعتهُ اليَّ وقالت احتفظي بهذا الكتاب وادفعيهِ الى محمد اذا لقيته . فتناولتهُ وخبأتهُ بين اثوابي وانا احاذر ان يراني أحد . فقالت لي اسرعي في المسير الى محمد ما استطعت

« فنظرت الى الافق فرأيت قافلة كأنها قادمة نحونا فعلمت ان ركبنا سيرحل قبل وصولها خوفًا من عيون الرقباء فتظاهرت باني لا استطيع الركوب ولا المشي فلما رأى اصحابنا القافلة قادمة تهيأوا للرحيل فطلبوا اليَّ ان اركب او امشي فاعتذرت فقالوا اذًا نبقين هنا . قلت انني ولكنني طلبت ان اودع اسماء فاذنوا لي والحوا عليَّ بالاسراع فضممتها وقبلتها مرارًا وبكيت وبكت ولكنني سمعت منها كلامًا عزاني على فراقها وطمأن قلبي عليها فقد قالت « لا تخافي عليَّ يا خالتي فاني ارجو ان يكون اسري هذا سببًا في خدمة عظيمة اقوم بها للامام علي ومحمد وعلى الله اتكالي » ولم اكد اجيبها حتى اقلع جملها وسار وهي تلتفت اليَّ وتبتسم وانا ابكي . فظللت وحدي انتظر وصول القافلة فاذا هي غير قادمة نحوي بل سائرة في طريق آخر فنهضت امشي في اثرها وما زلت اسير تارة وحدي وطورًا استصحب راعيًا او ماشيًا وطورًا اركب وآونة امشي حتى لقيت مسعودًا على ما قصهُ عليك »

الفصل السادس والخمسون

﴿ كتاب اسماء وتوارد الخواطر ﴾

ولم تفرغ العجوز من قصتها حتى تعبت ومحمد شاخص اليها فلما فرغت من

الحديث قال لها اين هو كتاب اسماء دانو

فمدت يدها الى جيبها واستخرجته وكانت قد خاطته بباطن ثوبها كرقعة ودفعته اليه فتناوله فاذا هو قطعة من قميص اسماء فاستأنس به وادنى المصباح منه ونظر فاذا فيه كتابة بمداد احمر بحرف لم يألفه لقربه من الشكل النبطي الذي كان يكتب به عرب الشام فرأى قراءته تحتاج الى زمن . فاومأ الى مسعود ان يذهب بالعجوز الى مكان تستريح فيه واغلق خيمته وجلس الى جانب المصباح وطفق يقرأ فاذا فيه :

« أكتب اليك هذا بمداد من دمي اذ لا سبيل لي الى غيره واما في صحراء قاحلة وحولي اناس لا ادري غرضهم من اسري على انهم لن ينالوا مني وطرًا . وقد علمت انهم سائرون بي الى معسكر ام المؤمنين بالبصرة واظنهم من رجال تلك الحملة . لا تجزع يا محمد ولا تخف على اسماء فانها بحول الله لا تخشى بأسًا

« وانما اكتب هذا اليك لأنبئك بحالي وادعوك الى عهد نعقده بيننا نجعله نذرًا علينا على ان تكون اعمالنا وحواسنا وقوانا كلها مكرسة لخدمة امير المؤمنين ابن عم الرسول (صلعم) المتهم ظلمًا بدم عثمان وانا وانت اعلم الناس ببراءته . فعلينا القيام بنصرته فاذا فرغنا من هذه الشؤون واستتام الامر نظرنا في انفسنا وأجبنا داعي قلوبنا

« هذا ما ادعوك اليه وارجو ان تعاهدني عليه ولا اظنك تمالئني فيه وانا منذ الآن ساعية في هذا السبيل وارجو ان يكون اسري هذا مساعدًا على هذه الخدمة فانت تعمل من جهة وانا من جهة أخرى .... سالاقي ام المؤمنين واقنعها ببراءة الامام من دم عثمان .. آه يا ليتها كانت معنا ليلة وجدناه يبكي عند قبر الرسول (آه من تلك الليلة كم لقيت فيها من الاهوال) ويستسقاه ويندب الاسلام ويخوف وقوع الفتنة لعلها تعتقد براءته . اقول ذلك وافعله اذا قطعتُ العقبة الوعرة التي اراها في سبيلي واذا متُّ فاني اموت شهيدة العفاف والغيرة على الاسلام والنصرة للامام علي رجل هذه الامة اقول ثانية اني ادعوك لي التحالف على نصرة الامام علي والانقطاع الى ذلك بكل حواسنا وعواطفنا فاذا فرغنا منه على خير وفوز فكرنا بانفسنا والسلام »

« اسماء »

ولم يفرغ محمد من تلاوة ذلك الكتاب حتى امتلأ قلبه حمية وطفح اعجابًا باسماء

واستغرب توارد الخواطر بينها وبينهُ فلم يتمالك عن تقبيل كتابها والثناء على حميتها ولكنهُ ما زال خائفًا عليها من غائلة ذلك الاسر

وقضى بقية ليلتهِ في مثل هذه الهواجس وقد مال بكليتهِ الى المسير في مهمة الى العراق لعلهُ يأتي اسماء فينقذها من الاسر

الفصل السابع والخمسون

﴿ عثمان بن حنيف ﴾

فأصبح في اليوم التالي وخرج يلتمس فسطاط الامام علي لعلهُ يسمع خبرًا جديدًا فدخل عليهِ فرأى في مجلسهِ جماعة من الصحابة يتحدثون في ما هم فيهِ من الاحوال ويتشاورون في ماذا يعملون والامام مقطب الوجه يفكر في ما قام من الفتنة

وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم مبغوتًا فسأل عليٌّ ما وراءك

قال ان في الباب ركبًا قادمين من البصرة وفيهم رجل ملثم

قال فليدخل كبيرهم

فدخل رجل ملثمُ الوجه حيَّا الامام عليًا وكشف عن وجههِ فاذا هو املط الوجه أملط لا شعر في لحيتهِ ولا شاربيهِ ولا حاجبيهِ ولا اشفار عينيهِ (١) فأنكرهُ عليٌّ وتأملهُ وقال من الرجل

قال هو عثمان بن حنيف عاملك على البصرة

فبغت الامام وقال وما الذي اصابك

قال بعثتني بلحية فجئتك امرد (٢)

قال عليٌّ أصبت اجرًا وخيرًا احكِ لنا خبرك وما دعا الى نتف شعر وجهك على ما نرى

قال « بعثتني يا مولاي عاملاً على البصرة فلقيني الناس وسرُّوا بخلافة الامام عليّ ثم ما لبثت ان سمعت بتحدث اهل البصرة بأمر حدث وان كتبًا وردت على بعضهم من ام المؤمنين تدعوهم بها الى الاخذ بثأر عثمان وانها قدمت من مكة واقامت في الحفير

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن الاثير ج ٣ : وقيل انهُ جاءهُ في ذي قار

على نضع ليالٍ من البصرة (١) تنتظر الحوأب فهمني الامر كثيرًا فبعثت رجلين احدهما رجل عامة والآخر رجل خاصة يسألانها عما تريدهُ فعادا اليَّ واخبراني ان ام المؤمنين وطلحة والزبير يصرون على الطلب بدم عثمان ملك وان الاخيرين لم يبايعاك الاّ كرهًا . فشاورت رجالي فقال بعضهم بصرهم وقال آخرون بردّهم ورأيت لهم نصراء في البصرة فخشيت اتساع الخرق ثم علمت ان عائشة جاءت المربد وهو السوق خارج البصرة ومعها رجالها . فخرجت اليها بنفسي ومعي بعض اهل البصرة ممن يرون رأيي فلما انتهيت الى المعسكر سألتهم عن غرضهم فوقف طلحة وتكلم بفضائل الخليفة عثمان وأَحث على الاخذ بثأره ثم قام الزبير بمثل ذلك فصادق رجالهما على اقوالهما فقلت لهما بايعتم عليًا وجئتم تقولون . فوقفت عند ذلك ام المؤمنين والقت خطابًا حرّضت فيهِ الناس على الطلب بدم عثمان وقالت قولاً كثيرًا وكان لكلامها تأثير شديد على كل من سمعها حتى ان جماعة كبيرة من رجالي مالوا اليها . ثم اشتد اللجاج بين الرجال واتشبت الحرب فقتل من رجالي جماعة كبيرة فتنادينا الى الصلح وتواعدنا على ان يبعثوا الى المدينة فان كان طلحة والزبير أُكرها على البيعة سلمتُ اليهم الامر والاَّ فانهما يرجعان فبعثت اليك وفدًا في ذلك

فقال عليٌّ وقد اجابهم اهل المدينة انهما بايعا طائعين

قال عثمان نعم يا مولاي جاءهم الوفد بذلك فأَنكروهُ وبعثوا اليَّ وكانت ليلة ذات رياح ومطر ساروا فيها الى المسجد وقت صلاة العشاء فأرسلت بعض رجالي لأرى ماذا يريدون فقتلوهم ثم جاؤا اليَّ واخرجوني ونتفوا لحيتي وشعر حاجبي واشفار عينيَّ كما ترى فجئت بالخبر كما وقع

فقال عليٌّ انا لله وانا اليهِ راجعون وكيف اهل البصرة الآن

قال ان سوادهم مع ام المؤمنين

فاطرق عليٌّ وكل من في مجلسهِ سكوتٌ ينتظرون ما يبدو منهُ فظلَّ ساكتًا حتى شعر الناس انهُ يريد ان يخلو بخاصتهِ فخرجوا جميعًا وفي جملتهم محمد بن ابي بكر وقد ساءهُ تعاظم الامر الى هذا الحد ولم يكد يدرك خيمتهُ حتى جاءهُ رسولٌ يستقدمهُ الى علي فاسرع اليهِ فلم يرَ عندهُ الاَّ محمد بن جعفر فدخل وحياه وهو يتوقع ان يسمع منهُ

(١) مراصد الاطلاع ج ١

امرًا جديدًا فلم يكلمهُ حتى جلس على وسادة بجانب محمد بن جعفر وبعد جلوسهِ خاطبهُ الامام علي قائلاً والاهتمام ظاهر وجههِ «اتدري لما دعوتك»

قال خيرًا ان شاء الله

قال قد سمعتَ ما فعلتْ اختك وطلحة والزبير في البصرة فقد ساؤوا عاملنا وحصلوا الناس على حربنا لانّنا على زعمهم قتلنا عثمان وانت تعلم ان اهل الكوفة حزب كبير يهمّنا استنفارهم ليكونوا معنا في هذه الحرب اذا كان لا بد منها وقد انتدبتك انت وانت اخي هذا لتسيرا الى ابي موسى الاشعري عاملنا على الكوفة تستنفران الناس لنصرة الحق

فوقف محمد وقد امتلأ حمية وقال انا طوع امرك وان الدفاع عن الحق ونصرة امير المؤمنين فرض واجب علينا

قال عليٌّ تاهبا واخرجا الى ابي موسى[1] واقرأا هذا الكتاب على الناس وادعواهم الى الاصلاح فاننا لا نريد سواه واني اتأهب للمسير في اثركما واستعين الله في نصرة الحق وكبح جماح الباطل

فخرجا وتأهبا للمسير فلنتركهما سائرين في هذه المهمة ولنعد للبحث عن اسماء

الفصل الثامن والخمسون

الفتك باسماء

اما اسماء فقد كان السبب في اسرها ان احد كبار اهل البصرة ممن جاؤوا مع ابن عامر الى مكة شاهدها ساعة وقوفها في العريش ومخاطبتها مروان بتلك الجسارة مع ما كان يتجلّى في محياها من المهابة والجمال فوقعت من نفسهِ موقعًا عظيماً وعلق قلبهُ بها . وكان من اهل اليسار والبذخ فلما انفض المجلس سأل عنها فاخبره بعض الذين اطلعوا على حديثها سرًّا من خدم ام المؤمنين انها مخطوبة لمحمد بن ابي بكر وانها باقية في مكة تنتظر امره بالذهاب الى المدينة فحدثته نفسهُ ان يخطفها

(١) ابن خلدون وغيره

ويغويها بجده ويتزوجها وهو يعتقد انها لا تأبى ان ترى جمالهُ وتعلم بجاهه وغناه حتى تهواه وتصلهُ على محمد فيحظى بها ويتنقم من محمد لنقمته على عثمان · فاصطنع ذلك الكتاب عن لسان محمد وبعث به مع بعض رجاله حتى اغوى اسماء على الخروج من مكة وكان هو في انتظارها مع بقية رجاله عند مفرق الطريق فسار بها كما تقدم وهو تارة يستعطفها باللين وطورًا يعدها بالسعادة ريثما يصل بها البصرة وخيل لهُ في بادىء الرأي انها مالت اليه لما آنسهُ من سكوتها وتصبرها ولم يعلم انها انما فعلت ذلك حزمًا وتعقلاً وكان يود التخلص من العجوز فتيسر لهُ ذلك على اهون سبيل كما تقدم · فقضى اياماً في مسيره وهو يعرج في الطرق روحة وجيئة يلتمس رضاها قبل الوصول الى البصرة فلما دنا من البصرة عرج في طريق ينتهي بالكوفة وكان لهُ فيها منازل وضياع

واما هي فكانت تفكر في طريقة للنجاة وكثيرًا ما حدثتها نفسها ان تجافيه وتظهر احتقارها لهُ ولكنها كانت تعود فتصبر نفسها مخافة الفتك

فلما صاروا على مقربة من الكوفة لم يرَ بدًّا من الوقوف على عزمها فصبر حتى سدل الليل نقابهُ وجاءها وهي مستلقية في الهودج التماساً للراحة وقد عظم عليها ما لاقتهُ في ذلك الامر وكان بجانب الهودج نار اوقدوها للاستضاءة فرفع ستار الهودج فانتبهت اسماء وجلست ولما رأت سعيدًا استعاذت بالله اما هو فحياها بلطف وقال لها ألا تظنين البصرة خيرًا من المدينة يا اسماء

فاطرقت ولم تجب فجثا سعيد امامها ومد يده الى معصمها واراد ان يمسكهُ ويتكلم وهو ينظر الى وجهها وقد انعكست عنهُ اشعة لهيب النار · فلم يكد يمس يدها حتى اجفلت وجذبتها من بين انامله وبالغت في الاطراق

فقال لها ما بالك يامليحة ألا تزالين تجافينني وانت تعلمين اني أسير هواك فهل انت خائفة ان لا تلاقي في منزل محلك الاكرام الذي يليق بك · ولكنك لا تلبثين ان تنزلي في بيتك بالبصرة او في الكوفة حتى تشعري بالسعادة التي تنتظرك هناك ما لا يتأتى لاحد سواي ان يهبك اياه فهناك تجدين الخدم والحشم والدور والمنازل والخيل والماشية والملابس الفاخرة وكل اسباب الراحة · · · ألا تمنين عليَّ بنظرة تدلُّ على رضاك

وكان سعيد يتكلم وعينا اسماء شاخصتان الى تلك النار الموقدة بجانب هودجها ولا بحاكيها في ذلك الليل الهادىء الا نيران قلبها المتقدة حباً لمحمد وغيرة على الاسلام وقد ازدادت اتقاداً وحدة لما سمعته من كلام ذلك الشاب وارادت ان توبخهُ وتردعهُ ولكنها علمت انها اذا فعلت ذلك عرضت نفسها للخطر السريع فتنهدت وظلت صامتة

اما هو فظن تنهدها دليلا على تأثرها من كلامهِ فابتسم وزحف نحوها وهو لا يزال جاثيًا ومد يدهُ ليمسك اناملها وهمَّ بالتكلم فجذبت يدها منهُ ونظرت اليهِ والشرر يكاد يتطاير من عينيها ثم اعرضت عنهُ وهي تحرق اسنانها . فابتسم هو وهزَّ وقال بنغمة المحبّ الولهان « بالله ألا رحمت قلبا قيدتهِ بسلاسل هواك . الا رمقتهِ بلفتة الا ردَّدت لظاه بكلمة . قولي يا اسماء . . قولي انك راضية بي عبدا رقاً وانا اكرس حياتي لخدمتك . والله اني لم اقل هذا لأحد قبلك . . . . تعطفي بالله وارفقي كفى سكوتا واعراضًا . . . . اعلمي يا مليحة اني انما اريد سعادتك وان الله ساقني اليك لحسن حظك وحظي . وان ابن ابي بكر ليس اهلا لك ولا هو يستحقك ولسوف ترين ما يحلُّ بهِ اذا احتدم القتال وتصادمت الابطال »

فلم تعد اسماء تستطيع صبرًا على ذلك بعد ان سمعت التعريض بمحمد وحدثتها نفسها ان تصفعهُ على وجههِ ولكنها كظمت غيظها بالرغم عنها وعمدت الى توبيخهِ فقالت بنغم واطىء وصوت رخيم « اني لا اراك اهلاً للنزال »

فسرَّ سعيد لكلامها وان يكن توبيخًا لهُ لانهُ رجا ان يتصل بالحديث معها الى استرضائها فقال « وما ادراكِ يا فاتنتي اني غير اهل لذلك »

قالت وهي تنظر اليهِ نظر التوبيخ « لان الرجل الذي يقطع الفيافي والقفار طلبًا للثار او نصرة للحق على ما تزعمون لا يرتكب جريمة التزوير ومن كان حرًّا صادقًا يلقى الرجال في حومة الوغى لا يخاطب فتاة لا يعرفها بل هو يعلم انها تحب سواه »

فحنى الرجل رأسهُ عند كلامها وقال « لقد صدقتِ ايتها العذراء اني ارتكبت التزوير ولكنني لم افعل ذلك في عمري كلهِ غير هذه المرة وما فعلتهُ الا التماسا لقربك اذ لم يكن لي اليهِ غير هذا السبيل فأنا استغفر منك عن هذا الذنب »

قالت « انك انما اذنبت الى غيري فان كنت رجلاً فالقَ محمدًا واستغفرهُ فاما

ان يغفر لك واما ان ينازعك فنرى من هو الرجل »

فجلس سعيد ودنا منها حتى كاد يلامسها ومد يديهِ فقبض بواحدة على زندها وجعل الاخرى على نقابها واراد ان ينزعهُ · فجذبت يدها منهُ ووقفت وقد اخذ الغضب منها مأخذاً عظيماً وقالت « ابتعد عني ولا يغرنك سكوتي ومرضي والله اذا مددت يدك اليَّ كسرتها نصفين »

فضحك سعيد وقال « لا تغضبي يا حبيبتي فاني لم افعل شيئاً يغضبك ولكنني استرضيكِ واستعطفكِ فافيقي من غفلتك ولا ترفضي نعمة انعم الله بها عليك »

قالت وهي تتحفز للخروج من الهودج « اذا كنت ترعم انك تريد رضاي فاعلم انك تطلب عبثاً · واذا حدثتك نفسك بوطرٍ تبغيهِ فاعلم انها تحدّثك باطلاً وان احتراقي في هذه النار أيسرُ عليَّ مما تدعوني اليهِ »

فقال وقد حار في امره وهو يكظم غيظهُ ولا يزال يرجو رضاءها « تمهلي ياحبيبتي وتبصري في ما اقولهُ لك ولا ترفسي النعمة التي اعرضها عليك باسم الحب · · · · »

فقالت بنغمة جافية « لا تنطق بالحب فانك تتكلم باطلاً ولا تستعظم قوّتك وتستكثر رجالك فان ذلك لا يرهبني »

الفصل التاسع والخمسون

﴾ الاصرار على الفتك ﴿

فلما رأى منها هذا الاصرار وقف على قدميهِ بغتةً وصاح فيها صيحة دوت لها الاودية في ذلك الليل الهادئ وانتهرها قائلاً « اراكِ قد بالغتِ في القحة واستخففت بي وانت تعلمين انك اسيرة بين يديَّ » قال ذلك وامسك بيديها وجذبها اليهِ · فشعرت كأَن قوّتها تضاعفت ونسيت ضعفها ومرضها وانتفضت من بين يديهِ ورفستهُ برجلها فارسلتهُ سطيحاً على الارض واعرضت بوجهها عنهُ

فهبَّ من وقعتهِ وصاح برجالهِ فتجمهروا حول اسماء وقبض بعضهم على يديها والبعض الآخر على كتفيها فتملصت من بين ايديهم وصاحت فيهم قائلة « عار عليكم وانتم رجال مسلمون ان تتجمهروا على فتاة عزلاء لاسلاح معها »

فصاح سعيد فيهم « قيدوا هذه الخائنة وشدوا ساعديها »

فقالت « ما الخائن الاّ انت يا نذل الرجال أتظن القيود تقيد شيئًا من حريتي »
قالت ذلك وهمّت بعصا من عصي الهودج استلتها وهجمت على الرجال فنفروا من امامها ثم عادوا وتكاثروا عليها وفيما هي تحاول مدافعتهم عثرت رجلها بعقال الجمل فوقعت على الارض فاسرعوا اليها وحاموا حولها كما تحوم النسور حول الجثة وشدوا وثاقها وهي لا تبالي بما يفعلون وسعيد واقف ينتفض من شدة الغيظ وامرهم ان يلقوها في الهودج ويربطوها به ففعلوا

فلما أيقنت اسماء بالخطر القريب ترقرقت الدموع في عينيها وصاحت « آه يا محمد ابن أُخت ... ياويل الانذال اللئام الذين لا ذمة لهم ولا ذمام »

فلما سمعها سعيد تنادي محمدًا ضحك ضحكة يخالطها ارتعاش الغضب وقال « لا تذكري محمدًا ولا ترجي نجاةً من هذا الاسر» ثم امر رجالهُ فتعرقوا فدنا منها وهي في تلك الحال وعاد الى الملاينة والملاطفة فقال« كيف ترين نفسك الآن الا ترجعين عن غيك وتقبلين بنصيحتي . ها انك اسيرة بين يديَّ وحياتك رهينة اشارتي الاّ اذا اجبت سؤْلي فتصيرين انت الآمرة الناهية .. قولي انك رضيت بي . قولي انك تحبينني»

فصاحت بهِ قائلة « لا لا لا احبك اذهب عني يا شيطان ولا ترني وجهك »

قال « الا تزالين على عنادك وروحك في قبضة يدي »

قالت لا تهددني بالموت فانهُ خير ما اتوقعهُ ... اقتلني وارحني من هذه الحياة

قال لا لا اقتلك بل اذيقك العذاب ... لا بل اعيد النصح ثانية وادعوك الى حبي . قال ذلك وجلس عند رأْسها ومدَّ يدهُ الى شعرها ولم يكد يلمسهُ حتى اقشعر جسمها وانتفضت وكان الوثاق محلولاً من بعض اطرافهِ فتملصت يدها فاستخرجت ذراعها ودفعت يدهُ بعنف فخاف ان تفتك بهِ فجرد حسامهُ وهوم بهِ عليها فوقفت وذراعها الاخرى لا تزال مشدوده فاختطفت السيف من يده فقطعت به بقية الحبال واغارت عليهِ ففر من امامها ونادى رجالهُ فاسرعوا اليها فاصابت احدهم بضربة على عنقهِ فخرَّ قتيلاً وهمّت بالباقين فتكاثروا عليها وتهافتوا بالرماح والحراب والسيوف فاصابتها سنان في زندها فوقع السيف من يدها ووقعت على الارض مغشيًا عليها من شدة الألم فاسرعوا اليها وكتفوها وهي لا تعي . فلما رآها سعيد غائبة

امر بالماء فرشوها بهِ حتى افاقت · فقال اتركوها الآن ريثما تستريح وهو يحسب انها ستذعن لامره · فسكت عنها برهة وهو جالس بالقرب منها يعلل نفسهُ برضائها بعد ما اصابها من الضنك

واما هي فكانت لا تزداد الاَّ نفرة منهُ ويأْسًا من الحياة ولما رأت ما هي فيهِ من الخطر الاكيد عظم عليها الامر فلم تمالك عن البكاء والشهيق

فدنا سعيد منها وقال بنغمة الظافر « والآن يا اسماء كيف ترين نفسك »

قالت لا اراني الاَّ ازداد نفورًا منك اذهب من امام عينيَّ

قال يا للتعجب ابعد هذا كلهِ لا تزالين ترجين خلاصًا

قالت « لا لا ارجو خلاصًا ولا اطلب غير الموت فانهُ غاية ما ارجوه ولكن آه ···· » قالت ذلك وعادت الى البكاء وهي تقول « اين انت يامحمد··· ارني وجهك قبل الممات ولو لحظة »

ولما سمعها تذكر محمدًا اتقدت الغيرة في قلبهِ وعوَّل على الفتك بها فجرد حسامهُ ووقف فوق رأْسها فنظرت الى السيف وضوء اللهيب ينعكس عنهُ فيلمع فايقنت انهُ قاتلها لا محالة فصاحت « اين انت يامحمد يا ابن ابي بكر زودني بنظرة منك قبل الممات »

فقال سعيد « اتظنين اني اقتلك الآن لا لا تعللي نفسك بهذه الامنية فانني سأميتك صلبًا » واشار الى بعض الوقوف من رجالهِ فرفعوها عن الارض واوقفوها الى شجرة من السنط الصقول ظهرها بها وشدوها اليها شدًّا وثيقًا وكان في جذع الشجرة نتوات واشواك اصابت بدنها فآلمتها لكنها لم تكن تبالي بشيء في جانب ما شعرت بهِ من التشوق لرؤْية محمد في آخر ساعة من ساعات الدنيا عندها فاسفت كيف انها ستفارق الحياة ولا تراه · وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى ذلك الافق المظلم الذي لا ينير فيهِ غير تلك النار الموقدة بين يديها

اما سعيد فتركها مشدودة الى السنطة وذهب هو ورجالهُ يلتمسون الراحة او المنام وظلت هي مصلوبة تنظر تارة الى الافق وطورًا الى السماء وآونة الى النار امامها وهي غارقة في بحار الهواجس وحدثتها نفسها ان تلين لسعيد وتعده خيرًا ريثما ترى ما يجيء بهِ القدر ولكنها علمت انهُ لا يكتفي من رضاها بالكلام فقط فعادت الى هواجسها

وهي تنظر الى النار فرأتها قد اخذت بالخمود فخافت ان تنطفىء ولا يبقى ما يؤانسها . على ان خمودها جعل الافق اكثر ظهورًا لديها فقد كانت لا ترى فيهِ الاَّ ظلامًا دامسًا فلما خمدت النار ظهر في اطرافهِ بعض الاشباح من الشجر او التلال وكانت لفرط قلقها تحسب الاشباح اناسًا قادمين لانقاذها

الفصل الستون

باب الفرج

وفيما هي تنظر الى الافق رأت هناك اشباحا تتحرك فتفرست جيدًا فاذا هي هجن وافراس قليلة عليها رجال فاستأنست بهم وهمَّت ان تستصرخهم فمنعتها الانفة وعزة النفس فقالت في نفسها « اذا كان لي نصيب بالحياة اتى اولئك الركب لانقاذي بالهام من الله »

اما سعيد فقد كان ساهرًا وهو يتوقع ان تسترضيهُ اسماء فرأى عند الافق اشباحًا وعلم ان ناره ستهديهم اليهِ فامر باطفائها فلما رأت اسماء الرجال يهمون باطفاء النار ايقنت انهم خائنون فقالت في نفسها عسى ان تقع عاقبة خوفهم على رؤُوسهم واستبشرت بالفرج . على انها لم تكد تتعل حتى رأت سعيدًا قادمًا نحوها والحسام مجرد في يده وصاح فيها وهو يحسبها لا ترى احدًا قادمًا وقال « هل لان قلبك الآن ام ماذا » فلم تجب . فقال « قولي . . . احبي . . ان حياتك بين شفتيك فاما ان تصيري سعيدة واما ان يجري دمك على حرع هذه الشجرة . . قولي حالاً »

فتحيرت بماذا تجيبهُ وهي تعلم انها اذا اجابت بالرفض ضربها بالحسام وهي مشدودة الوثاق فرأت المماطلة خير ذريعة لنجاتها ربَّما يصل اولئك الركب عساهم ان ينجدوها . فلم تجب

فادرك سعيد قصدها وخاف اذا انتظر جوابها ان يصل الركب فشرع الحسام بيدهِ وصاح بها « قولي حالاً فاما ان اسمع صوت قبولك واما ان تسمعي صوت حسامي على عنقك »

فعظُم عليها هذا التهديد وهجرها التعقل فقالت « لا لا لا ارضى . . . . فاضرب عنقي والله يجزي الظالمين . . . ثم صاحت آه يا محمد يا ابن ابي بكر اين انت . . . آه لو تعلم مصير اسماء »

فلما سمع سعيد رفضها نزل بالسيف على عنقها ولكنهُ لدهشتهِ واضطرابهِ حاد سيفهُ قليلاً فوقع على كتفها ولم يصب غير الحبال وهي مجدولة من الياف النخيل فقطعها ولم يزد فانحلَّ وثاق اسماء وهي لا تدري وكانت تتوقع الحِمام فلما رأت وثاقها محلولاً ظنت نفسها في منام ولكنها ما لبثت ان ادركت انهُ اخطأ الضرب فتحولت اليهِ وهي كالاسد الكاسر لفرط غيظها منهُ فلما رأى انطلاقها زاد فشلهُ وصاح برجالهِ فتكاثروا حولها بحرابهم وسيوفهم فصاحت فيهم « اما فيكم من يرعى الذمام ويخاف من الله » قالت ذلك ولاحت منها التفاتة فرأت الركب قد اصبحوا على قاب قوسين منها ولم تكد تصيح تلك الصيحة حتى سمعت صوتًا كالرعد القاصف وقع في اذنها وقوع الماء على قلب الظمآن ألا وهو صوت محمد بن ابي بكر يقول « لبيكِ يا اسماء لقد جاءك الفرج . . . اخسأُوا يا انذال »

اماَّ هؤلاء فحالما سمعوا صوت محمد ورأَوا معهُ رجالاً آخرين حولوا وجوههم واركنوا الى الفرار بما استطاعوا حملهُ ولم تمض هنيهة حتى غابوا عن الابصار وقد تركوا اسلابهم وبعض جمالهم والهودج

ولا تسل عن اسماء وما حلَّ بها لما سمعت صوت محمد فانها لبثت مدة صامتة تحسب نفسها في منام حتى دناهو وناداها « اسماء » فقالت « محمد . آه اين كنت يا حبيبي ألعل الله بعثك بمعجزة لنجاتي ام انا في منام »

قال « بل انت في يقظة . ما الذي اصابك . هل فيك من بأْس »

قالت لا بأْس بي غير جرح خفيف في زندي اصابني وانا ادافع هؤلاء اللئام ولولاه لقتلتهم جميعًا ولكن السيف سقط من يدي وعثرت بعقال الجمل فشدوا وثاقي . قالت ذلك والتفتت فرأَت مع محمد رجلاً آخر لم تعرفهُ فخجلت لما ابدتهُ من عواطف الحب فأَدرك محمد ما بها فقال « لا تستغربي رفاقي فان هذا محمد بن جعفر ابن اخي امير المؤمنين وهؤلاء خدم سائرون في ركابنا الى الكوفة وقد جئنا بمهمة في خدمة امير المؤمنين فاجلسي الآن واستريحي وقصي علينا خبرك » فجلست وجلسا

ومحمد ابن جعفر يتعجب لما يبدو من همة تلك الفتاة وكان قد سمع من محمد عن حديثها وغيرتها على الامام وعلى الاسلام فاحبها بمجرد السماع فلما رأى فيها تلك الحمية سر لسماع حديثها فجلسوا وقصت اسماء ما جرى لها وهما شاخصان يزدادان اعجابًا . وقص محمد ما تمَّ له بعد مجيء كتابها وقضوا بقية ذلك الليل بالاحاديث وقبل الفجر أغمضت اجفانهم ساعة فاستراحوا فلما انبلج الصبح وافاقوا من منامهم نظروا الى ما حولهم فاذا ببقايا الهاربين وفيها كثير من الزاد والآنية وجثة ملقاة عن بعد فنظر محمد اليها وسأل اسماء عنها فقالت انهُ احد اولئك الطغام ادركته بضربة ذهبت بحياتهِ

فقال بورك فيك فنحن الآن ذاهبون الى الكوفة وهي على مقربة منا فهلمَّ بنا اليها نقضي مهمتنا ثم نبعث بك الى المدينة تقيمين فيها ريثما تنقضي الحرب

فقالت وهي تنظر اليهِ نظر العاتب « العل كتابي لم يصلك »

قال بلى وصلني

قالت فكيف تدعوني الى الاقامة في المدينة وقد عاهدت نفسي على نصرة الامام علي جهد طاقتي

قال لقد جاهدتِ وسعك وانت مريضة

قالت لا بأْس بي باذن الله

قال فلنذهب معًا الى الكوفة ثم نرى ما يكون

قالت لا ارى في ذهابي اليها فائدة

قال ماذا اذًا

قالت « انت تسير في مهمتك واما انا فاني اسير الى اختك ام المؤْمنين في البصرة عساي ان اتوفق الى اقناعها ببراءة الامام عليّ فتكف عن الحرب حبًا لدماء المسلمين وفرارًا من سوء العقبى . ان الامر لأعظم مما تتصوره يا محمد وقد آليت على نفسي ان اضحي كل شيء في سبيل دفع هذه الفتنة »

فاعجب محمد ومحمد بحميتها فقال لها ابن ابي بكر « ولكنني لا اظن سعيك الا ذاهبًا عبثًا »

قالت عليَّ السعي وعلى الله التدبير . . . واين هي الطريق الى البصرة

قال اذا كان لا بد من ذهابك اليها فاني اصحبك بخبير من رجالي يسير في خدمتك الى حيث تشائين . قال ذلك ونادى مسعودًا وكان في جملة من صحبهُ في هذا السفر فجاء مسرعا فقال محمد هذه اسماء التي حملتَ اليَّ كتابها انها سائرة الى البصرة فاوصلها الى معسكر ام المؤمنين وعد اليَّ بالخبر في الكوفة

فنهضت اسماء للحال وامرت مسعودًا ان يهيء الجمل . فقال ألا تركبين الهودج

قالت لا ليس هو وقت التنعم اركبني جملاً خفيفًا

قالت ذلك ونظرت الى محمد قائلة ان الوقت ثمين يا محمد فلنسرْ في مسعانا عسانا ان نتوفق الى ملاقاة الفتنة كما اخبرتك

فنهض محمد وركبوا جميعًا . فسارت اسماء ومسعود نحو البصرة ومضي الباقون نحو الكوفة وهم يعجبون لما آنسوه من شهامة اسماء وحميتها وغيرتها

الفصل الحادي والستون

﴿ خطر آخر ﴾

وسارت اسماء وهي تستحث جملها ومسعود سائر على جملهِ امامها ليهديها الى الطريق فمضى معظم النهار ولم يستريحا ولا تناولا طعامًا فلما كان الغروب سالتهُ اسماء عن البصرة فقال انها على بضع ساعات منا فارى ان نبيت ههنا الليلة ونصبح فنصابح المدينة

قالت لا صبر لي على الانتظار هلمَّ بنا ولا بأس من وصولنا الى البصرة فنقيم في المربد

قال ان جيش ام المؤمنين مخيمون هناك

قالت سر بنا على خيرة الله فاني انما اقصد معسكرها

فلم يستطع مسعود مخالفتها وظل سائرًا يتلمس الطريق تلمسًا لان الليل كان حالكًا واتفق مع ذلك هبوب الريح وتلبُّد الغيوم فلم يعد يرى الطريق امامهُ ولا النجوم حتى يهتدي بها ولكنهُ رأى نورًا عن بعد فعلم انهُ نور دير لبعض النساطرة كان قد زارهُ في بعض خطراتهِ في تلك الانحاء . فجعل ذلك النور وجهتهُ واسماء سائرة في اثره وهما صامتان لا يسمعان الاَّ وقع اخفاف الجمال اما على الحجارة فتقرقع واما على الاشواك والادغال فتخش خشيشًا

وكان مسعود منشغل البال لمسيرها في ذلك الظلام وخاف ان يعترضها وحش او يهويا في هوة وقد عجب لشجاعة اسماء وتحملها مشقة ذلك السفر · على انهُ ما عتّم ان سمع طنين سهم مرسل في الجو مرَّ امام عينيهِ فجفل واقعنسس وصاح قائلاً « من ذا الذي يريد غدرنا » ولم يتم كلامهُ حتى سمع اسماء تقول « آخ .. قتلتني قتلك الله » فعلم ان السهم اصابها فتحوَّل اليها وقال « ما بالك يا سيدتي ما الذي اصابك »

قالت « اصابني سهم في جنبي واظنهُ قتلني » فترجل عن جملهِ واناخ جملها فاذا هي تسند جسمها بيدها والسهم لا يزال مغروسًا فيهِ فنزعهُ بخفة فصاحت صيحة دلت على شدة تألمها فتحير في امره وخاف ان تموت اسماء بين يديهِ في ذلك القفر المظلم فوضع يدهُ على جرحها وضغطهُ بكفهِ وهو يرتعش من عظم التأثر ثم سألها عن حالها فقالت « اني مقتولة لا محالة · اظن ذلك النذل قد كمن لنا في هذا الطريق » وارادت التكلم فارتج عليها فلم يرَ مسعود خيرًا من ان يحملها على جملهِ ويسرع الى ذلك الدير لمعالجتها · فاردفها خلفهُ وساق جملهُ وقاد جملها وراءه واسرع الى الدير ولم يصدق انهُ وصلهُ فاذا هو مقفل وسوره عالٍ لا يمكن اجتيازه فتذكر ان الديور يعلقون فوق ابوابها اجراسًا يدقها من يجيء طارقًا فاهتدى الى الحبل فشدهُ فطنَّ الجرس فلم يجبهُ احد فكرر الدق بعنف وصبر هنيهة فسمع صوتًا جهوريًا يقول « من الطارق »

فاجاب مسعود قائلاً « افتح ناشدتك الله واسرع الى اغاثتنا »

فقال من انت

قال اننا غرباء في اشد الضنك افتح رعاك الله · قال ذلك وصبر فلم يعد يسمع صوتًا وانصرف فكرهُ الى اسماء وهي منطرحة عند عتبة الباب تئنُّ انينًا عميقًا فامسكها بيدها ويده ترتجف خوفًا عليها فرآها باردة فجسَّ جرحها فغاصت انامله في الدم وكان قد تخثر وملأ ثوبها فحاول اجلاسها ليتحقق صحوها فاذا هي تتخبط وقد ارتخت مفاصلها فزاد اضطرابهُ وهمَّ ان يصيح ببواب الدير فرأى نورًا انبثق من كوة فوق الباب فالتفت فرأى راسًا عاريًا قد وخطهُ الشيب فابيضَّ بياضًا ناصعًا قد اطلَّ من الكوة والمصباح في يده ينعكس نوره عن لحيتهِ البيضاء وهو يقول « اصدقنا ايها الطارق من انت »

فصاح مسعود قائلاً « اننا غرباء ومعي مريض مشرف على الموت انجدنا جزاك الله خيرًا »

ولم يتم مسعود كلامهُ حتى سمع صوت مزلاج (سقَّاطة) كأنهُ شدَّ بحبل فانفتحت خوخة صغيرة في وسط ذلك الباب المدفج بالحديد فرأى مسعود انهُ لا يستطيع الدخول من الخوخة واسماء في تلك الحال فتقدَّم الى الراهب ان يفتح الباب كلهُ وإشار الى ما بين يديهِ فاسرع الراهب تحننة مع شيخوختهِ وجرَّ عضادة ضخمة من خشب كانت و راء الباب ففتحهُ وساعد مسعودًا في نقل اسماء الى اقرب غرفة هناك واجلساها على الفراش وخفَّ الراهب الى رئيس الدير ليخبرهُ الخبر . ولم تمض هنيهة حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم قد رق بدنهُ وتجعد جلد وجههِ واكتسى بالشعر الابيض على خفة ولكن عينيهِ ما زالتا تتقدان نورًا وصحة وقامتهُ معتدلة تدل على نشاط وهمة . فتقدم الرئيس الى الفتاة وهي ملقاة على الفراش وسأل مسعودًا عما بها فقص عليهِ الخبر مختصرًا . فادارها على جنبها الصحيح واخذ في كشف الجرح فحوَّل مسعود وجههُ عنها حياء وحشمة واشتغل الرئيس وراهبهُ بغسل الجرح وتضميده وامر بلبن غسلهُ بهِ ثم صب عليهِ ماء مقدسًا يحتفظون بهِ لمثل هذه الحال وربطهُ وامر بملاءة من نسيج العباء فغطاها بها التماسًا للدفء ورش وجهها بالماء المقدس ودهنهُ بزيت من مصباح الدير المضيء امام صورة المسيح وهو يدعو الى الله ان يقرب الشفاء . فأفاقت اسماء هنيهة ولكنها لم تقل شيئًا ثم عادت الى العنين . وكان رئيس الدير وهو يغسل وجه الفتاة يتأملها ويتفرس في ملامحها كانهُ تذكر شخصًا يشبهها . وهو في اثناء ذلك يعتذر لمسعود عن تأخر الراهب في فتح الباب لتخوفهم من بعض الطارقين الذين كثروا يومئذٍ على اثر قدوم جند مكة الى البصرة ووقوع بعض المواقع الحربية . فلما فرغ من تضميد الجرح تحوَّل الى مسعود فسألهُ « من الفتاة »

فقال « انها فتاة لبعض كبار الصحابة . ولم يزد »

فاعاد الرئيس نظرهُ اليها وادنى المصباح من وجهها وكان قد امتقع ونحل وهي مطبقة العينين كأنها في سبات وقال « فهي اذًا مسلمة »

قال نعم

فلمح الرئيس في صدرها حجابًا اعتاد النصارى تعليقهُ في صدورهم وكان زندها

مكشوفًا فرأى عليهِ رسم الصليب فالتفت الى مسعود وقال « ولكنني ارى عليها بعض شارات النصرانية »

فملّ مسعود من تدقيقهِ وهو لا يهمهُ ساعتئذ الا شفاؤها فقال « لا ادري يا سيدي سوى انها مسلمة فلعل لتلك الشارات سببًا لا اعلمهُ »

فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهو تارة ينظر الى وجهها وطورًا يطرق متأملاً كأنهُ يبحث في ذكرتهِ عن شخص يشبهها

ثم نظر الى مسعود بغتة وقال له امضِ يا بنيَّ الى غرفة الاضياف اذا شئت طعامًا ثم اذهب الى رقادك مطمئنًا فلا يعصي على هذه الفتاة قليل حتى تصحو ونتحسس صحتها بقوة الله وبركة صاحب هذا الدير

فقال مسعود اني لا اشعر بالجوع ولا انا في حاجة الى الرقاد وافضل البقاء هنا لارى ما يتم لها

قال لا حاجة الى بقائك ولا بأس عليها لانها ما مسحنا جريحًا او مريضًا بهذا الماء المقدس الاَّ شفاه الله اذهب الى فراشك واذا شئت البقاء خارج هذه الغرفة فلا بأس

فاستحيا مسعود من تكرار الاعتذار فخرج وجلس على حصير وراء الغرفة

اما الرئيس فحالما خلا بالراهب جعلا يتساران ويتخاطبان بلسان نصارى العراق (الكلداني) ويشيران الى اسماء . وكان مسعود لقلقهِ لا يغفل عن كل حركة تحدث فاشتغل بالهُ لتلك المسارة واصاخ سمعهُ فلم يفهم من كلامهما شيئًا . فجعل يرصد ما يبدو منهما فاذا بالرئيس امر الراهب فخرج ثم عاد وبيده كتاب ضخم ففتحهُ وقرأ وتمتم ثم ركع الاثنان فعلم انهما يصليان . فلبث ريثما فرغا من الصلاة وقاما فرأى الرئيس دنا من اسماء وهو يمسح الماء عن جبينها ويتأملها ثم جلس الى جانبها ولبث ينتظر ما يبدو منها . وبعد هنيهة تحركت كأنها تتحول عن احد جنبيها الى الآخر وما كادت تفعل ذلك حتى صاحت من الالم . فسرَّ مسعود لصياحها لعلمهِ انهُ يدل على الصحو فدخل الغرفة فرأى اسماء قد فتحت عينيها ونظرت الى ما حولها فوقف بصرها عند وجه الرئيس وحاولت التفرس فيهِ ولكن الضعف غلب عليها فذبلت اجفانها وأُطبقت عيناها فعادت حالاً الى الرقاد . فأومأ الرئيس الى مسعود بيدهِ وملامح وجههِ

وهو يبتسم كأنه يقول « استبشر بالخير انها قد افاقت » . فانبسط وجه مسعود وظهر البشر عليه وتوسل الى الله ان يتم شفاءها مخافة غضب محمد بن ابي بكر . وقضت بقية تلك الليلة راقدة ونفسها هادىء

وفي الصباح بكر مسعود الى غرفتها فرأى الراهب الشيخ الى جانبها يهتم بالكشف عن الجرح وتبديل رباطه فتحول حالاً حتى اذا فرغ الراهب من عمله نادى مسعوداً فدخل ونظر الى وجه اسماء فاذا هي قد افاقت وفتحت عينيها فحمد الله ودنا منها فلما رأته قالت له « آه من ذاك النذل الذي عجز عن مصادرتي وجهاً لوجه فاراد قتلي غدراً ولو كان رجلاً لاظهر نفسه وطلب البراز او الطعان » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فقال مسعود لا بأس عليك يا سيدتي ولا نعبأ بما فعله هذا الغادر على اننا لا ندري اذا كان هو الفاعل

قالت لا ريب عندي انه هو بعينه والاّ فمن يعرفنا في هذه الديار سواه . . هو هو بعينه قبحه الله

قال مالنا وله فما رأيك بي هل اذهب لاخبر مولاي محمداً بما وقع ليأتي لاعالتك . . .

فقطعت عليه الكلام قائلة « لا لا لا تفعل لاني اخشى اذا علم بما حلّ بي ان يسعى اليّ ويهمل مهمته التي انتدبه امير المؤمنين لقضائها وهي تتعلق بمصلحة عامة المسلمين فلا يليق ان نشتغل عنها بحياة فرد من افرادهم . وزد على ذلك اني بحمد الله مستريحة لا اخالني بعد ايام قليلة الاّ راكبة جملاً او جواداً الى معسكر ام المؤمنين اوّدي المهمة التي انتدبت نفسي لها » . قالت ذلك واصعدت بصرها الى فوق واشارت بيدها كأنها تقول « فقدّر لي الله ان اقف هنا في هذه الحالة » وشفعت اشارتها بدمعتين كبيرتين انحدرتا على خديها ثم التفتت الى ايقونة معلقة بالحائط امامها شغلت نفسها بالنظر اليها

وكان الراهب في اثناء ذلك مشتغلاً بقراءة درج (رق) في يده فيه فرض من فروض الصلاة

اما مسعود فلما سمع كلام اسماء وشاهد الدمع ينحدر من عينيها على تلك الصورة

تأثر من منظرها واستعظم كتمان حالها عن محمد فقال لها كيف اكتم عنه حالكِ وقد عهد اليَّ العناية بكِ

قالت « افعل ما اقوله لك . اتركني هنا واذهب اليه لعله يحتاج اليك في شيء واما انا فلا بأس عليَّ في هذا الدير فان اصحابه اهل ضيافة ورعاية وقد صرت على مقربة من معسكر ام المؤمنين وبعد بضعة ايام انقه من جرحي فاذهب اليها والاتكال على الله »

فتركها وذهب الى غرفة الرئيس فرآه خارجًا فسأله عن رأيه في حال اسماء فطمأنه ان جرحها خفيف لا خوف منه وتعهد له ان يتولى العناية بها حتى تشفى

فاطمأن خاطرهُ ومكث هناك الى مساء ذلك اليوم وبات الى الصباح التالي فرأى اسما قد تحسنت حالها فارتاح باله فودعها ومضى وهي تلح عليه ان يطمئن محمدًا عنها

الفصل الثاني والستون

﴿ عودٌ الى السر ﴾

اما رئيس الدير فكان قد قضى نهار الامس وليله وهو ينظر الى اسماء ويجهد فكرته في تذكر ما يعرفه عنها او عمن يشبهها فلم يهتد . فلما خرج لوداع مسعود عاد الى اسماء وكانت قد تعبت من الرقاد فجلست في الفراش . فلما دخل الرئيس نظرت اليه وتأملت وجهه فتذكرت انها رأته مرة قبل ذلك الحين في دمشق يوم سفرها منها مع والدتها الى المدينة . وكانت قد لحظت اشتباهه بها منذ دخولها الدير . فلما عاد من وداع مسعود جلس على طنفسة بقرب فراشها فنظرت اليهِ وقالت « ألا تذكر ياحضرة الاب المحترم انك رأيتني قبل هذه المرة »

قال هذا الذي شغل بالي منذ رأيتك بالامس ولكنني لا اذكر اين رأيتك

قالت اظنك رأيتني في دمشق في العام الماضي

فلما سمع قولها انبسطت سحنته وتفرس في وجهها وقال للحال« نعم نعم .. شاهدتك مع والدتك وقد جئتما الى كنيسة ماري يوحنا في دمشق لزيارة القسيس مرقس الشيخ

النار . . نعم اذكر ذلك . . . ابن هي والدتك »

فلما سمعت اسماء ذكر والدتها ترقرقت الدموع في عينيها فبادرت الى مسحها بطرف كمها وسكتت

فادرك الرئيس ان هناك امرًا محزنًا دعاها الى البكاء فسكت لحظة ثم قال « وهل اصاب والدتك سوء »

فقالت وهي تبكي « نعم يا سيدي انها ماتت. وا أسفاه عليها ولولا مماتها . . . . » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فاطرق الرئيس برهة ونظر الى الراهب وكان لا يزال جالسًا واشار اليهِ ان يخرج من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس باسماء جعل يخفف عنها ويعزيها و يلتمس صبرها حتى هدأ روعها ثم قال لها « وهل عرفتِ اباكِ »

فلما سمعت سؤَالهُ توسمت من ورائهِ نورًا لعلها تهتدي بهِ الى استطلاع ذلك السر الذي كانت تظنهُ دُفن مع والدتها . فقالت « لا يا سيدي لم اعرفهُ وهل انت تعرفهُ » فسكت برهة ثم قال « لا يا ابنتي ولا انا اعرفهُ ولكن . . . » وسكت

فقالت « ولكن ماذا . . قل يا سيدي ان معرفة ذلك تهمني كثيرًا وقد كنت احسب امر والدي الحقيقي مكتومًا عن كل بشر سوى والدتي . ولما توفيت حسبتهُ ضاع ودفن معها . فكيف عرفت انت ان والدي مجهول وقد كان ذلك سرًّا مكتومًا عن كل انسان على ما اعلم فاطلاعك عليهِ يستلزم معرفتك حقيقتهُ . فهل انت عارف شيئًا . . قل لي وافرج كربتي » قالت ذلك بلهفة وقد نسيت جرحها وضعفها

فلبث الرئيس الشيخ برهة صامتًا وهو يمشط لحيتهُ باصابعهِ كانهُ يكتم امرًا ودَّ لو انهُ لم يفتح عليهِ بابًا للسؤَال عنهُ . ولكنهُ لما رأى اسماء تخاطبهُ بهذه اللهفة قال لها « صدقيني يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك ولكنني اعلم ان الذي كان مع والدتك يوم رأيتك في كنيسة ماري يوحنا بدمشق ليس هو والدك الحقيقي »

قالت وهي تخفض صوتها احترامًا لمقام الرئيس وشيخوختهِ « وكيف عرفت ذلك ياسيدي . ربما لا يهمك امر هذا السر مطلقًا ولكنهُ يهمني كثيرًا لانني علمت ان يزيدًا الذي كان مع والدتي (رحمها الله) ليس هو والدي الحقيقي وان لي أبًا غيره كانت والدتي قد وعدتني بذكر اسمهِ بعد وصولنا المدينة فقضى الله بموتها قبل وصولنا واحسرتاه

عليها ... فظللتُ مجهولة النسب. واظن الله قد اراد كشف هذا الذل عني على يدك »
قالت ذلك وهمت بتقبيل يده وهي تقول « اتوسل اليك ان تطلعني على ما تعرفهُ من هذا القبيل »

وكانت هي تتكلم والرئيس الشيخ مطرق فلما فرغت من كلامها رفع نظرهُ اليها وقال « قلت لك يا ابنتي اني لا اعرف من هو والدك واما كيفية اطلاعي على ذلك فاني اقصهُ عليك لعلهُ يفيدك في شيء »

فاعتدلت اسماء في مجلسها و يدها على جنبها المجروح تضغط عليهِ تخفيفًا للالم واصغت لما يقولهُ الرئيس

فقال « اتذكرين يوم جاءت والدتك الى كنيسة ماري يوحنا في دمشق وكنتِ استِ معها فتركتكِ مع والدك خارجًا ودخلت هي لوداع القسيس مرقس قسيس تلك الكنيسة ثم خرج ذلك القسيس الشيخ لوداعك فهل تذكرينهُ »

قالت نعم يا سيدي « اذكر ذلك الشيخ الهرم وخروجه لوداعنا »

قال الرئيس « وقد كنت انا يومئذ زائرًا عنده فلما عاد اليَّ رأيت على وجههِ آثار البغتة فقلت ما بالك يا حضرة القسيس فقال « ان هذه المرأة سرًّا عهدتهُ اليَّ منذ بضع وعشرين سنة وهي الآن شاخصة الى المدينة لتبيح به هناك واخشى لضعفها ومرضها ان تموت قبل وصولها . فاذا حدث ذلك ظل هذا الامر مكتومًا عندي وحدي واراني قد شختُ وربما دنا اجلي فيذهب السر ضياعًا وهو يهمُّ هذه الفتاة » (واشار اليك) فقلت لهُ « هل هو سر اعتراف » قال « نعم » فقلت « لا سبيل اذًا الى كشفهِ لي ولكنني اود ان اعرف موضوعهُ بحيث لا يكون في ذلك ما يعدُّ اباحة » فتردد كثيرًا قبل ان اجابني ثم قال لي « ان هذه الفتاة التي تراها مع هذه المرأة هي ابنتها واهل دمشق يظنون هذا الرجل والدها وهو ليس والدها » فقلت « ومن هو والدها اذًا » قال « لا استطيع كشف هذا السر الآن ولكنهُ سيظهر بعد قليل لان المرأة منطلقة بنفسها لكشف امرها لاصحاب الشان في يثرب (المدينة) لان والد الفتاة الحقيقي هو احد كبار المسلمين هناك ... »

فبغتت اسماء وخفق قلبها فصعد الدم الى وجهها فتورد بالرغم عن ضعفها وتطاولت بعنقها لسماع الحديث . فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهفة « وما هو اسمهُ »

قال « لا اعلم يا ابنتي ولم أسأل القسيس عنهُ لعلمي انهُ لا يبوح بهِ حفظاً لسر الاعتراف فالذي فهمتهُ ان والدك الحقيقي انما هو من كبار المسلمين في يثرب »

فبهتت وقد عاد لونها الى الاصفرار للهفتها وتأثرها ثم قالت « ولكن كيف يمكن ان يكون ذلك وانا لا اعرف يثرب قبل هذه المرة ولم اسمع والدتي تذكرها »

قال « علمت يا ابنتي ان والدتك كانت تبالغ في اخفاء هذا الامر عن كل انسان لانها رومانية الاصل حملها بعض قواد المسلمين الذين فتحوا الشام في جملة السبايا واهداها الى والدك فمكثت عندهُ بضع ليال ثم قدم عليها اخوها (خالك) خلسة وحرضها على الفرار ففرت الى دمشق ولم تستطع الظهور خوفاً من العيون فيممت مصر . فظهر حملها هناك وقبل ان تضعك التمست القسيس مرقس وكان في كنيسة المعلقة بمصر يومئذ وكانت تعرفهُ مذ كان في الشام وبثت لهُ هذا السر واخبرتهُ عن والدك . ثم جرت الحروب بمصر ففتحها العرب وقُتل خالك ووقعت والدتك في جملة السبايا ثانية وانت طفلة فتزوجها يزيد الذي نعرفهُ واقام بها في دمشق وانت معها . فلا تعجبي لاغفال والدتك ذكر والدك الحقيقي لانها كانت تعتبر نفسها مجرمة وتخشى اذا عرف مكانها ان يقتصَّ منها »

ولم يتم الرئيس كلامهُ حتى استولت البغتة على اسماء وتولتها الدهشة ولبثت صامتة وهي لا تزال ترجو ان يكون الرئيس عارفاً اسم والدها فتوسلت اليهِ ثانية ان يخبرها بهِ . فاكد لها انهُ لا يعرف اسمهُ ثم قال « اذا لقيتِ القسيس مرقس في دمشق يطلعك عليهِ وربما اطلعك على امور كثيرة تفيدك فاسرعي اليهِ حال شفائك قبل ان ينقضي اجلهُ لانهُ شيخ طاعن في السن . انظري الى شيخوختي واعلمي اني اذا قيست الاعمار بالاجيال كنت اصغر من اولاده »

وكانت اسماء قد تعبت من الجلوس فلما يئست من استطلاع اسم والدها من الرئيس زاد تعبها فالقت نفسها على الفراش وتنهدت تنهداً عميقاً وهي صامتة تفكر في ما سمعتهُ واشتاقت نفسها للسير الى دمشق لعلها تلاقي القسيس فيقص عليها الخبر . على انها علمت ان والدها بعض كبار المسلمين فاخذت تفكر في من عسى ان يكون وهل هو حيٌّ او ميتٌ فاستغرقت في مثل هذه الهواجس . ولما رآها الرئيس مستغرقة ظنها تميل الى الرقاد فخرج وتركها فنامت ولا تسل عن احلامها المزعجة

الفصل الثالث والستون

حملة علي

فقضت اسماء في ذلك الدير اياماً وهي تتقلب على فراش الوجع وهواجسها تتعاظم لا تدري اذا شفيت تسير الى دمشق لمقابلة القسيس مرقس ام الى ام المؤمنين لانفاذ مهمتها . وكانت تتمرمر لانحباسها في الدير بالرغم عنها فلم تكد تستطيع الوقوف حتى صارت تتشدد وتخرج الى فناء الدير تمرن نفسها على المشي

وصعدت ذات يوم الى سطح الدير فاطلت منهُ على سهل واسع رأت في آخره ما يلي البصرة معسكراً فيهِ الخيام والاعلام وحوله الجمال ترعى في بعض المغارس ومعها العبيد . فعلمت انهُ معسكر ام المؤمنين في ضاحية البصرة وكان الوقت اصيلاً فجعلت تفكر في ما تنويهِ من مخاطبة ام المؤمنين وما تتوقع ان تسمعهُ من دفاعها وتهيئ الاجوبة اللازمة . وما زالت غارقة في مثل هذه الهواجس حتى مالت الشمس الى المغيب فانجذب بصرها نحوها وقد تعاظم جرمها وتكوَّرت ومالت الى الاحمرار شأنها قبل المغيب . فانشغلت بالنظر الى الافق والتمتع بذلك المنظر البديع وقد نسيت موقفها . ولم تكد تغيب الشمس حتى احست اسماء بالبرد فتحولت تلتمس الدفء في الفراش فاسرعت اليهِ مخافة ان يضرَّ البرد بها

فباتت تلك الليلة وهي تتوقع ان تصبح ناقهة فتنظر في ما اذا كانت تسير الى معسكر ام المؤمنين ام الى الشام

فلما اصبحت شعرت بانتعاش ولكن الضعف مازال يمنعها عن السفر وخصوصاً على الجمل او الجواد . فلم ترَ بدًّا من الاصطبار ريثما يتم لأم الجرح وتتقوى قليلاً فالتمست من رئيس الدير ان يأذن لها في الخروج للرياضة في بساتين الدير فاذن لها فخرجت وحدها الى البستان تمشي الهوينا فابتعدت عن الدير مسافة طويلة وهي لا تدري فانكشف لها من الافق قسمٌ كان مستتراً وراء التلال فرأت فيهِ خياماً واعلاماً وجمالاً وعبيداً ولم تكد تتفرس في ذلك المجتمع العظيم حتى علمت انهُ معسكر الامام علي فخفق قلبها ومشت قليلاً حتى دنت من اكمة صعدت اليها وجعلت

تتأملهُ ونفسها تحدثها بالذهاب اليهِ لعلها ترى محمدًا فيهِ او تسمع شيئًا عن خبره على انها تشاءمت من قدوم جيش الامام لانهُ يدلُّ على اقتراب الحرب

وفيما هي غارقة في هذه الافكار سمعت صوتًا يزجر جملاً على مقربة منها . فالتفتت فاذا ببعير سائب يعدو ورجل يركض في اثره يستنجد الناس ليساعدوه في القبض عليهِ . فلم يسع اسماء السكوت مع ضعفها فاعترضت الجمل وهوَّمت عليهِ ليرجع وكان قد جمح فلا يردُّهُ تهويم فظلَّ مسرعا في سبيلهِ فاغتاظت لعدم اكتراثهِ بتهويمها فركضت اليهِ وتعلقت بعنقهِ لانهُ لم يكن لهُ رسنٌ فظلَّ راكضًا واسماء ممسكة عنقهُ مكلتا ذراعيها كأنها تتسلق للصعود الى ظهره . ولكنها ما لبثت ان شعرت بخوار قواها واحست كأن شيئًا تمزّق في مكان الجرح فعلمت ان الجرح قد انفتح واشتدَّ بها الالم حتى لم تعد تستطيع صبرًا عليهِ وكان البعير في اثناء ذلك قد خفَّت سرعتهُ فادركهُ صاحبهُ وامسك بعنقهِ حتى اناخهُ فسقطت اسماء الى الارض لاتعي من شدة الالم

وكان صاحب البعير شاباً من عبد القيس وهي من جملة القبائل التي انجدت عليّاً (١) وجاءت معهُ للحرب . فلما رأى اسماء ساعدتهُ في القبض على بعيره ثم رأى ما المَّ بها من التعب حتى سقطت خائرة القوى شعر انهُ السبب في ما اصابها فدنا منها واجلسها وقد بهرهُ جمالها واعجبتهُ هيئتها فكلمها فأفاقت ويدها ضاغطة على جنبها تتقي الالم . ولما رأت ذلك الغريب بجانبها علمت انهُ صاحب البعير . اما هو فحالما نظرت اليهِ هاب عينيها ورأى فيهما هيبة اوقفتهُ عند حدّه وربما كانت نفسهُ تحدثهُ بشيء فلم يستطع الاَّ تلطيف ما بها والاعتذار عما اصابها بسببهِ

اما هي فتجلدت واغتنمت تلك الفرصة لاستطلاع حقيقة ذلك الجند فقالت لهُ « ممن انت »

قال « من عبد القيس »

قالت ومن هم هؤلاء الجند الذين نراهم امامنا

قال اما سمعتِ بما قام بين الامام عليّ وام المؤمنين

قالت سمعت وعلمت وهل هذا الجند هو جند الامام عليّ

قال نعم ونحن في نجدتهِ لاعتقادنا فضلهُ على سائر الناس

---

(١) ابن الاثير ج ٣

قالت وكم هو عدد رجاله

قال عشرون الفًا بين راجل وفارس (١)

قالت اتعلم عدد جند ام المؤمنين

قال اظنهم ثلاثين الفًا (١)

فبهتت وهي تفكر في الفرق بين الجيشين والالم يشغلها عن ذلك حتى كاد يمنعها عن الكلام على انها تشددت وقالت ولمن تظن الغلبة منهما

فابتسم الشاب وقال لا حاجة بنا الى هذا الظن والامر قد قضي بالامس

قالت وماذا تعني

قال لقد تمّ الصلح وانصرف العداء

فبغتت اسماء ولم تصدق مقالة فقالت « وكيف ذلك اصدقني الخبر » وشعرت منذ سمعت خبر الصلح بنشاط ساعدها على النهوض فمشت وهي تخاطب الرجل حتى جلست على حجر تحت شجرة وأسندت ظهرها اليها وضغطت الجرح بكفها فوق اثوابها فأراد الرجل ان يشرح لها اصل العداء لظنه انها خالية الذهن من خبره . فابتدرته قائلة لا تشرح القصة فاني اعلمها ولكن اخبرني كيف تداعوا الى الصلح

فعجب الرجل لاطلاع اسماء وود ان يعرف من هي ولكنه اجابها على سؤالها قائلاً : ان جيشنا وصل الى هذا المكان بالامس فلما تقابل الجيشان خرج من جيش ام المؤمنين طلحة والزبير على فرسيهما يلتمسان البراز فخرج اليهما الامام عليّ حتى اختلفت اعناق دوابهم ونحن ننتظر عاقبة ذلك الملتقى لانه سيكون قاضيًا اما علينا واما لنا فتجاولوا مدة ونحن ننظر اليهم لنرى ما يبدو منهم من براز او نحوه . فاذا هم وقوف يتخاطبون وعلمنا بعد رجوع الامام انه لما لقيهما قال لهما « لعمري قد اعددتما سلاحًا وخيلاً ورجالاً ان كنتما أعددتما عند الله عذرًا فاتقيا الله ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثًا . الم اكن اخا كما في دينكما تحرمان دمي واحرم دمكما فهل من حدث احلّ لكما دمي » فقال طلحة « ألبتَ على عثمان » قال علي « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق يا طلحة تطلب بدم عثمان فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة اجئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت اما بايعتني » قال « بايعتك

(١) ابن الاثير ج ٣

والسيف على عنقي » فقال علي للزبير « يا زبير ما اخرجك » قال « انت ولا اراك لهذا الامر اهلاً ولا اولى به منا » فقال له علي « الستُ له اهلاً بعد عثمان قد كنا نعدُّك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا » وذكّره اشياء وقال له « أتذكر يوم مررتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر اليَّ فضحك وضحكت اليه فقلت له لا يدع ابن ابي طالب زهوه فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمزه لتقاتلنه وأنت ظالم له » قال الزبير « اللهم نعم ولو ذكرتُ ما سرت مسيري هذا والله لا اقاتلك ابداً » (١)

وهكذا عاد الامام الينا بالخبر وتوسمنا خيرًا من ندم اولئك على عملهم . ثم علمنا ان الزبير لما رجع من ساحة البراز سار توًّا الى ام المؤمنين فقال لها « ما كنتُ في موطن منذ عقلتُ الا وانا اعرف فيه امري غير موطني هذا » فقالت له « ما تريد ان تصنع » قال « اريد ان ادعهم واذهب » فوبخه ابنه عبد الله وقال « جمعتَ بين هاتين الفئتين حتى اذا حدد بعضهم لبعضهم اردت ان تتركهم وتذهب ولكنك خشيت رايات ابن ابي طالب وعلمت انها تحملها فتية انجاد وان تحتها الموت الاحمر فجبنتَ » فاعتذر الزبير انه حلف أن لا يقاتل علياً . ثم تفاوضوا بعد ذلك مع طلحة وغيره فتمَّ الاتفاق على الصلح وبتنا ليلتنا البارحة والقلوب هادئة وكل فرح بما حجب من دماء المسلمين

فلما سمعت اسماء كلام الرجل اشرق وجهها وابرقت اسرّتها ونسيت ألمها وضعفها وقالت « بشرك الله بالخير يا اخا عبد القيس » وارادت الاستفهام عن محمد ومقامه فقالت « وهل جاء اهل الكوفة لنصرة الامام »

قال لقد جاءوا بعد ان ترددوا كثيرًا

قالت كيف يترددون عن نجدة امير المؤمنين

قال : ذهب اليهم اولاً محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر فلقيا ابا موسى الاشعري عامل الكوفة فكلماهُ ففضّل القعود على المسير فعاد محمد ومحمد الى الامام فأرسل الاشتر وابن عباس فعادا ولم ينالا وطرًا . فارسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر فجاءا الكوفة وكانت عائشة قد ارسلت رسلها تدعو الناس الى نجدتها . وظلَّ ابو موسى يحرض الكوفيين على القعود فلا يسيرون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء . فجادلهم الحسن حتى

---

(١) ابن الاثير ج ٣

اقنعهم ان يقوموا لنصرة امير المؤمنين فجاءهُ منهم تسعة آلاف

فأدركت اسماء من خلال ذلك ان محمدًا في معسكر الامام عليّ وكانت قد تعبت من الجلوس على الحجر فنهضت تلتمس الدير لمداواة الجرح لانها شعرت وهي قابضة عليهِ ان الدم يسيل منهُ . فأحسّ الرجل بمرادها فأراد مساعدتها بالمشي فأبت فرافقها حتى دنت من الدير فودعها وخرج بجملهِ يطلب المعسكر

اما هي فالتمست الغرفة فلقيها الرئيس عند الباب فسالها عن حالها فقصّت عليهِ حديث الجمل ووقوعها فهمّ الى الجرح فاعاد ضماده وبشرها بان لا خوف منهُ فلبثت تفكر بما سمعتهُ وكانت كلما تصورت وقوع الصلح يكاد قلبها يطير فرحًا لتخلصها من مصائب كثيرة وحجب دماء الناس . على انها كانت وهي في وسط هذه المسرّات اذا تذكرت ما سمعتهُ من الرئيس عن والدها انقبضت نفسها مخافة ان يضيع خبره فصممت انها حالما تستطيع الركوب تسافر الى دمشق فاذا تحققت من هو والدها علمت مدخلها ومخرجها

الفصل الرابع والستون

الحرب

فقضت أيامًا وهي تتوقع في كل يوم ان ترى محمدًا آتيًا لمشاهدتها في الدير لعلمها ان مسعودًا لا بد من ان يخبره بما اصابها فكيف يقيم على مقربة منها ولا يسأل عنها فلما مضت ايام ولم يأت ايقنت ان مسعودًا لم يره بعد ذهابهِ من الدير فهو لا يعلم مقرها . وكان الجرح قد لأم فلم تر بدًّا من ملاقاة محمد لتخبره بعزمها على دمشق وتستعينهُ في دابةٍ تركبها وخادم يسير في ركابها . ولكنها تذكرت الحسن وما لحظت منهُ يوم كانت في المدينة فخافت ان لا يرضى محمد بذهابها الى المعسكر فعوّلت على استقدامهِ اليها فكتبت بطاقةً بهذا الشان واستأذنت رئيس الدير في ارسال بعض خدمتهِ النبهاء . فاذن لها فبعثت احدهم وأفهمتهُ كيف يسير والى من يسلم الورقة ودلتهُ على الجهة التي يلاقي فيها جيش الامام علي

فخرج وجلست هي في فراشها تنتظر رجوعه ومحمد معهُ · وكلما تصورت لقاءها محمدًا اختلج قلبها في صدرها وإعدت عبارات تخاطبهُ بها تسفر عما في نفسها وقد همها من هذا الصلح انقضاء تأْجيل الاقتران فاخذت تعد نفسها بالسعادة المستقبلة وخصوصاً اذا عرفت والدها الحقيقي

قضت ساعة و بعض الساعة في مثل هذه الهواجس وهي كلما سمعت سعال رجل او وقع أقدام او جعجعة بعير او صهيل فرس ظنت رسولها عائدًا ومعهُ محمد · ولم تعد تستطيع صبرًا على الانتظار فصعدت الى سطح الدير تستطلع قدومهُ عن بعد ولم تكد تخطو خطوتين فوق السطح حتى رأت رسولها راجعاً يعدو و يلتفت وراءه فانشغل خاطرها ولبثت تنتظر وصولهُ فما عتم ان وصل وهو يلهث من شدة الجري · فقالت ما وراءك

قال خرجت من الدير في الجهة التي رسمتها لي فما وصلت المكان حتى رأيت النبال تتطاير في الجو فلما اشرفت على المعسكر رأيت الحرب محتدمة · · · ·

فبغتت اسماء وقطعت كلامهُ قائلة « الحرب · · · بين منْ ومن »

قال سأَلتُ بعض العبيد ممن كانوا يلتقطون النبال المتساقطة وهو خارج المعسكر فاخبرني ان الحرب انتشبت بين الامام علي وعائشة وكانوا قد ابرموا صلحًا فنقضوهُ

قالت لا حول ولا قوة الاَّ بالله ومن نقضهُ · · ؟

قال لا ادري ولكن العبد اخبرني انهم باتوا على صلح فاصبحوا فاذا بجيش عائشة على الحرب

فقالت الم تلق محمدًا

قال وكيف القاه وإنا لم استطع الدنو من المعركة مخافة ان تصيبني النبال فاموت ولا يبقى من يرجع اليك بالخبر · فثارت الحمية في رأْس اسماء ولم ترَ بدًا من العدول عن دمشق الى معسكر ام المؤْمنين لتخاطبها بالرجوع الى الصلح قبل ان يتفاقم الخطب

فسأَلت رئيس الدير عن دابة تركبها فقال ان خادمك الأَول ترك هنا جملك الذي جئت عليهِ

قالت اين هو · فامر الرئيس باعداده للركوب وخرجت اسماء الى غرفتها فبدلت ثيابها على كيفية تشبه بها ثياب الرجال وشدت وسطها بمنطقة عريضة والتفت بعباءة

وغطت رأسها بكوفية وتقلدت حسامًا كان قد اعطاها اياه محمد يوم سفرها مع مسعود وركبت الجمل وولّت وجهها معسكر ام المؤمنين وكان الوقت ضحىً وهي للهفتها لم تودع الرئيس حتى اذا بعدت عن الدير تذكرت ذلك فالتفتت اليهِ واشارت بالسلام بيدها ورأسها . ولم تبعد عن الدير قليلاً حتى أطلت على المعركة فرأت السهام تتطاير من كل جانب حتى كادت تحجب اشعة الشمس بدلاً من الغبار لان الجو كان قد امطر في ذلك الصباح فتماسك التراب . ووقفت هنيهة ريثما تعرف الطريق الذي يؤدي الى ام المؤمنين . فرأت الرجال يهرعون يمينًا وشمالاً وفيهم المشاة والفرسان وسمعت النساء من وراء الجمع يحرضن الرجال على الثبات . وكان الجو صافيًا لا غبار فيهِ فكانت اذا تفرست في الرجال عرفتهم فردًا فردًا فجعلت تتفرس بالفرسان عساها ان ترى محمدًا فلم تره ولكنها ادركت ان النصر للامام علي لانها رأت رجاله يتقدمون وأولئك يفرُّون يعثر بعضهم بجثث بعض وهم بين جريح وقتيل فتفطر قلبها . فاجالت ببصرها لعلها ترى فسطاط عائشة لتسرع اليها وتخاطبها في الكف عن القتال فلمحت مروان بن الحكم على فرسهِ يتعقب فارسًا آخر علمت انهُ طلحة وقد رماه مروان بسهم في رجلهِ فشكها في صفحة الفرس [1] ثم رأت طلحة حوّل عنان جواده نحو البصرة وترك الجيشين يقتتلان فعلمت انهُ انما ذهب الى البصرة لان الجرح بليغ اصابهُ فتاكدت فشل جند مكة ولكنها عجبت لما فعلهُ مروان بطلحة وهما من جند واحد . على انها اوّلت فعلهُ الى طمعهِ بالخلافة لبني امية لزعمهِ انها اذا خرجت من يد الامام علي وكان طلحة حيًّا طمع هو بها وربما طمع بها الزبير واما اذا قتل هذان فلا يبقى من يطالب بها فتبقى في بني امية

الفصل الخامس والستون

هودج ام المؤمنين

وفيما هي تتأمل في حركات الجيشين وتسمع ضجيج الناس وقعقعة السيوف

(١) ابن الاثير ج ٣

والرماح وصهيل الخيل رأت في معسكر ام المؤمنين فسطاطًا كبيرًا علمت انهُ فسطاط عائشة ولكنها لم ترَ ازدحامًا حولهُ فارتابت في امرهِ ثم لمحت جمعًا متكاثفًا حول هودج فوق بعير فعلمت من لون الهودج وشكلهِ انهُ هودج ام المؤمنين فساقت جملها نحوهُ . فلم يسعفها في الجري فرأت فرسًا تائهًا خارج المعركة وقد قتل صاحبهُ فاسرعت اليهِ وتحوّلت عن الجمل وركبتهُ وسارت باسرع من لمح البصر تلتمس الهودج ولم تكد تصل المعركة حتى رأت فارسًا خارجًا منها يطلب عرض البرّ لا يلتفت وراءهُ وعرفت انهُ الزبير فتذكرت انهُ اقسم ان لا يحارب عليًّا فقالت في نفسها ها قد فرّ الزعيمان ولا اخال ام المؤمنين اذا علمت ذلك الاَّ آمرة بالكف عن القتال . فاسرعت في وسط المعركة لا تبالي بما يتساقط عليها من النبال او يعترض فرسها من جثث القتلى والجرحى ولم تدنُ من الهودج حتى سمعت ام المؤمنين تصيح بصوتها الجهوري وتنادي احد رجالها وقد مدّت يدها من الهودج وفيها مصحف وهي تقول « اليك يا كعب ادع الناس الى هذا المصحف » فلم يكد الرجل يتناولهُ حتى اصيب بنبل فقتل . وكانت اسماء قد وصلت الى الهودج فرأت الرجال حائمين حولهُ وعائشة تقول « أيها الناس العنوا قتلة عثمان واشياعهم » (١)

فترجلت اسماء واقبلت الى الجمل فرأت الهودج قد اصبح كالقنفذ لكثرة ما غرس فيهِ من السهام المتساقطة وارادت التسلق على الجمل لتلقى عائشة في الهودج فاعترضها بعض الرجال فازاحت اللثام ونادت ام المؤمنين فعرفت صوتها فاذنت لها فقال قائل من الوقوف « هي انا اذنّا لك بالصعود على الجمل تسلقًا فهل تستطعين ذلك »

فتذكرت ما اصابها من تسلّق جمل الامس فعادت الى فرسها واتصلت منهُ الى الهودج . فتعجبت ام المؤمنين لوجودها هناك بغتة . اما اسماء فترامت عند قدمي ام المؤمنين وهي تقول والدمع ملء عينيها « اشفقي يا اماه على اولادك احقني دماءهم ارحمي رجالاً يوحدون الله . لقد كفى ما اصابهم من البلاء مري بالكف عن القتال ان السلام بين شفتيك وانت ام المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . واعلمي ان طلحة والزبير اللذين اضرما نار هذه الحرب قد فرّا من المعركة . مري بالله مري رجالك بالكف والقعود . انهضي واطلّي على الجندين وانظري القتلى في الجانبين »

(١) ابن الاثير ج ٣

وكانت اسماء تتكلم بخشوع وتذلل وهي جاثية عند قدمي عائشة . وكانت عائشة في معظم التأثر لاتملك وقتاً للنظر في الامر والناس حول هودجها يتلقون ما يتساقط عليهِ من السهام حتى قُتل عند خطام الجمل نيف واربعون رجلاً . فنظرت الى اسماء وقد اثر فيها كلامها مع ما توسمتهُ من فشل جندها وقالت « لقد كنا على وعد من الصلح فلا ندري ما حملهم على نقضهِ »

قالت « وهم يزعمون انكم انتم الناقضون »

قالت بل هم لاننا بتنا مصالحين فاصبحنا واذا هم على قتالنا

فقالت اسماء يظهر ان في الامر دسيسة فلعل بعض الاعداء سعى فساداً فرمى الشقاق بينكم وعلى كل حال إن الصلح قريب وحجب الدماء سهل عليكِ بكفيهِ كلمة منك

قالت وقد ملّت الجدال « لقد قضي الامر ولم يعد الرجوع ممكناً فلا تلتمسي ذلك مني » قالت ذلك وفي نغمة كلامها وملامحها ما يزجر اسماء عن البحث في هذا الموضوع . فصمتت وعادت عائشة الى استنهاض القبائل للدفاع حتى اصبح كل من بقي من رجالها يدافعون عن جملها

وودّت اسماء النزول من الهودج ولكنها لم تجسر عليهِ تهيباً من عائشة . ثم سمعت صوت عليّ يقول « اعقروا الجمل فانهُ ان عُقر تفرقوا » ولم يكد يتم امرهُ حتى احسّت اسماء بسقوط الجمل وهو يعجُّ من الالم فعلمت انهم عقروهُ فهمّت بالخروج من الهودج ولكنها اطلت قبل ذلك فرأت كل من كان حولهُ من الرجال تفرقوا وعليٌّ يقول لرجالهِ « ارسلوا من ينادي في الناس الاّ يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يدخلوا الدور » . ثم قال احملوا هذا الهودج من بين القتلى فحملوهُ وهي لاتزال فيهِ مع ام المؤمنين وام المؤمنين غافلةٌ عنها لعظم ما المّ بها . وكانت اسماء تنظر اليها وهي هائبة التكلم معها خشية ان تسمع انتهارها وربما لا تستطيع جواباً . ثم سمعت علياً يقول « يا محمد يا ابن ابي بكر اضرب على اختك قبةً وانظر هل وصل اليها شيء من جراحة »

فلما سمعت اسماء ذكر محمد وما امره بهِ عليٌّ لبثت تنتظر ان تراهُ مطلاً من الهودج . اما هو فلما ادخل راسهُ في الهودج ورأى اسماء مع اختهِ انذهل ولكنهُ لم يكد

يتكلم حتى سمع اختهُ تقول « من انت »

قال « اخوك »

قالت « الحمد لله الذي عافاك »

واشار محمد الى اسماء ان تخرج فخرجت ونظرت الى ما حولها فرأت الارض قد خلت من الناس غير من قُتل او قُطعت رجلهُ او جرح جرحا بليغًا فلا يستطيع المسير . وسمعت عنين الجرحى ورأت الدم جاريًا اقنية والخيل والنوق سارحة بعضها يعرج وبعضها يعج من الجراح ورأت في بعض تلك الدواب سهامًا لا تزال مغروسة في رقابها او اعجازها وكان المنظر بالجملة رهيبًا محزنًا لم يكن اكثر منهُ تأثيرًا . وفيما هي تنظر في ذلك رأت عليًا دنا من هودج ام المؤمنين وقال « كيف انتِ يا امه »

قالت « بخير »

قال « يغفر الله لكِ »

قالت « ولك »

ثم امر اخاها ان يدخل بها البصرة ريثما تستريح

وفيما هو يتكلم راى اسماء واقفة فعرفها . فلما رأتهُ هي ينظر اليها همّت بيدهِ فقبلتها وعلتها البغتة فقال اهلاً بك اين كنت يا اسماء

فسمع عليٌّ عائشة تقول من داخل الهودج « احتفظوا بهذهِ الفتاة فوالله اني ما رأيت اكثر غيرة منها على الاسلام ولا اصدق لهجة في الدفاع عن الحق وهي انما خاطرت بحياتها وانني تحت النبال المتساقطة تلتمس الكفّ عن القتال »

فخجلت اسماء لهذا الاطراء واطرقت فقال « عليٌّ بورك فيك يا بنية اني توسمت فيك هذا الخير منذ رأيتك للمرة الاولى . تعالي »

فسار وسارت في اثره وهي مطرقة وعليٌّ يشتغل بتدبير الجرحى والقتلى فأمر الناس ان يدفنوا قتلاهم . ثم علم ان طلحة والزبير قتلا فاخبرتهُ اسماء عما رأتهُ من مروان . فقال « لا تعجبي ممن كان سبب هذه الفتنة ان يفعل مثل ذلك »

وظلوا سائرين الى البصرة حتى دخلوها فنزل عليٌّ في دار العامل بقرب المسجد وتواردت الناس لمبايعتهِ وقد سلم الامر لهُ وخلا لهُ الجو

ونزلت اسماء في تلك الدار مع بعض النسوة ممن جئن مع الامام وقد عرفتهن

اثناء اقامتها في المدينة . وظلّت اياماً تحاول ان ترى محمداً بعد هذه الحرب وعليّ يشغله باخته ام المؤمنين فلم يكن يستطيع التخلي عنها فادركت اسماء ذلك فسارت هي نحوهُ بحجة زيارة عائشة

فلما التقيا ارادت ان تعرف سبب تخلفهِ عن زيارتها مع علمهِ انها كانت جريحة في الدير فاستغرب قولها وأكد لها انهُ لم يكن يعرف عنها شيئاً لان مسعوداً لم يعد اليهِ وهو لا يعرف مقرّه الى ذلك الحين . فترجح لديهما انهُ قتل في طريقهِ الى الكوفة فاسفا عليهِ كثيراً . وسكتا هنيهة ثم قال محمد ها قد انقضت الحرب وانتصر الامام والحمد لله وآن لنا السكون والاجتماع

فسكتت اسماء لما وراء كلامهِ من الاشارة الى الزواج وغيرت الموضوع فقالت ولكنني على اهبة السفر الى الشام .

قال ولماذا

قالت لأسأل عن والدي الحقيقي

قال وكيف ذلك ومن يخبرك عنهُ

فقصّت عليهِ خبر رئيس الدير مختصراً فعجب واندهل واصبح اكثر اشتياقاً لمعرفة والدها منها وارتفع مقامها في عينيهِ لما علم انها ابنة بعض كبار الصحابة في المدينة فقال لها لا يبعد ان تكون بيننا قرابة قبل القرابة التي نسعى اليها اليوم

فخجلت ثانية وارادت تغيير الحديث فقالت وكيف ام المؤمنين

قال هي في خير وقد أمرني الامام باعداد ما يلزم لسفرها الى مكة وها اني اعد ذلك وقد جهزتُ لها اربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ليسرن معها فاذا سافرت عدنا الى ما يدعونا اليهِ القلب على قولك . . . فخجلت

ولم يتم كلامهُ حتى رأى الناس في هرج وهم يقولون « جاء امير المؤمنين » . ثم وصل عليّ وكانت عائشة قد تهيأت للسفر واعدّ لها الهودج وجاء الناس لوداعها فخرجت لوداعهم فلما رأت علياً قالت وهي تنظر الى الناس « يا بني لا يعتب بعضنا على بعض انهُ والله ما كان بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وبين احمائها وانهُ على معتبتي لمن الاخيار » (١)

(١) ابن الاثير ج ٣

فقال عليٌّ « صدقتْ والله ما كان بيني وبينها الا ذاك وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » وودعها من بقي من الناس ثم قال عليٌّ لمحمد « سر يا محمد مع اختك الى مكة »

فلما سمعت اسماء هذا الامر اضطرب قلبها ونظرت الى محمد ونظر هو اليها ففهم كل منهما ما في ذهن الآخر

الفصل السادس والستون

﴾ الخطبة ﴿

وكان الحسن قد جاء مع والده لوداع ام المؤمنين فرأى اسماء و قد علم بما اظهرتهُ من الغيرة على الاسلام فازداد حبة لها وصمم على خطبتها وهو لا يعلم ما بينها و بين محمد . ثم علم ان والدهُ عازم على الكوفة لأخذ البيعة هناك كما اخذها في البصرة

وكانت اسماء لما فرغت من وداع محمد عادت الى عزمها على الشام لملاقاة القسيس مرقس وسؤَالهِ عن والدها وقد اصبح هذا الامر شغلها الشاغل . فأَتت علياً بعد سفر محمد تودعهُ وتخبرهُ بعزمها وتسأَلهُ رفيقًا ودابةً فلم تملك فرصة لانشغالهِ بمن يفد عليهِ من المبايعين والمشيرين حتى اذا اراد الكوفة سارت هي اليها في جملة السائرين

وقضت في الكوفة اياماً كأَنها على جمر الغضى حتى اصبحت يومًا وقد ملَّت الانتظار فعوَّلت على الاستئذان في السفر فسأَلت عن علي فقيل لها انهُ في مجلسهِ وحدهُ فاستأْذنت في الدخول عليهِ فاذن لها فدخلت فاذا هو جالس في قاعة واسعة ليس فيها احد سواه . فلما رآها هشَّ لها ورحب بها فهمت بتقبيل يدهِ وهي تقول « نحمد الله على ما اولانا من نعمهِ في احقاق الحق ونشكرهُ على ما اولاك من النصر »

فتنهد وقال « قد كنت اود ان تنتهي الفتنة ولا يسفك فيها دم ولكنها ابت ان تنام الاَّ على فراش من الدماء » قال ذلك وسكت هنيهة ثم قال « وكنت

عازمًا على استقدامكِ اليَّ لاشكرك على سعيكِ في هذا الامر فقد سعيت فيهِ سعيًا حميدًا »

فأطرقت ولم تجب

فقال لها « ولنا فوق ذلك اقتراح نقترحهُ عليكِ عساهُ ان ينال وقعًا حسنًا »

فقالت « اني امة اذا أُمرتْ اطاعتْ »

فقال « اننا نودُّ استبقاءكِ عندنا فتكونين بمنزلة ولدنا »

فأدركت اسماء ما وراء ذلك فأجفلت مخافة ان يصح ظنها باقتراحهِ لعلها بما في نفس الحسن ولكنها لم تستطع غير اظهار الاستحسان فقالت « اني احقر من ان احظى بهذا الشرف العظيم »

قال « لا بل انت اهل لأفضل منهُ ولا اخفي عنكِ ان ولدي الحسن راغب فيك لما آنسهُ من غيرتك على الاسلام ورغبتكِ في اعلاء كلمتهِ فهل ترضين بهِ خاطبًا »

فلما تحققت ظنها لم تستطع اخفاء عواطفها بما ظهر على وجهها من الاحمرار السريع ولكنها تجلدت وقالت وهي تظهر الامتنان « اني لا استحق هذا الاكرام يا مولاي لانهُ فوق ما تتوقعهُ فتاة يتيمة غريبة مثلي . كيف لا وفيهِ التقرب من اعظم رجال هذه الامة وابن عم النبي (صلعم) . ولكنني انما جئت الى مولاي الامام الآن في أمرٍ همني كثيرًا وهو يدعوني الى سفر قريب لا أرى منهُ بدًّا فجئت لاستأذن امير المؤْمنين بشأنهِ »

قال وما ذلك

قالت « لا اظن مولاي ابا الحسن يجهل حال والدتي يوم قدومها المدينة وما ظنتًا نفسنا فقدناه بوفاتها من السرّ »

قال « لا اجهلهُ »

قالت« وهل تجهل يا سيدي ان يزيدًا الذي كان معنا في ذلك اليوم المشوم . . ليس والدي الحقيقي »

قال « ظننت ذلك فيهِ مذ رأيتهُ ثم سمعت انهُ ليس والدك »

قالت « وكنت انا ايضًا عالمة بذلك من والدتي فقد اخبرتني انهُ ليس والدي

وانها ستخبرني عن والدي الحقيقي عند وصولنا المدينة فقضى الله بوفاتها قبل وصولنا وا أسفاه عليها (وتنهدت) فظننت خبر والدي عدم من الوجود فأسفتُ وبكيت ولكن التقادير ساقتني بالامس الى دير بجوار البصرة بعد جرح اصابني في اثناء سفري فأقمت فيهِ اياماً اعالج الجرح فرأيت هناك راهباً شيخاً عرفني وعرفتهُ وكنت قد رأيتهُ في كنيسة دمشق قبل سفري فاخبرني خبراً اعاد اليَّ آمالي بالاطلاع على كنه ذلك السر »

فقال عليٌّ « وهل اخبرك عن والدك »

قالت كلاَّ يا مولاي ولكنهُ اخبرني ان قسيس كنيسة دمشق يعرفهُ لان والدتي اعترفت لهُ بهِ دون سواه » ثم قصَّت اسماء ما اخبرها بهِ رئيس الدير بتفاصيلهِ

ولم تكد تتم كلامها حتى ظهر الاستغراب والدهشة على وجه الامام لقولها ان والدها من كبار المسلمين في المدينة وان والدتها جاءت المدينة للبحث عنهُ فقال لها « الم يخبرك عن اسمهِ »

قالت « اوَّاه ياليتهُ فعل ولكنهُ لا يعرف الاسم وهذا ما حملني على الاسراع الى دمشق استطلع خبر والدي لاني مع ما نلتهُ من التفات امير المؤمنين وما اصبت من الحظوة في عينيهِ وعينَي ابنهِ لا ازال اشعر بذلٍّ عظيم لغموض نسبي فعساي ان ارفع عني هذا العار على يد ذلك القسيس »

وفيما هي تتكلم استأذن الحسن ودخل فوقفت لهُ اسماء فسلم ونظر الى والده فآنس في وجههِ تغيراً وهمَّ ان يسألهُ فاذا هو قد اشار الى اسماء واليهِ بالجلوس وقال « ان اسماء يابنيَّ راضية فرحةٌ ولكنها في شاغل جديدٍ . فهي ذاهبة الى دمشق سريعاً لتحقق نسبها من قسيس كنيسة ماري يوحنا هناك . اذ لا يخفى عليك ان يزيداً الذي زعم انهُ والدها ليس الاَّ زوج والدتها واما والدها الحقيقي فلا يزال أمره مجهولاً »

فشقَّ ذلك على الحسن وقال « ان البحث عن والدها واجب ولكنهُ لا يدعو الى تأجيل الخطبة على ما اظن »

فقال « بلى انهُ يدعو الى ذلك لا سيما وقد فهمنا الآن ان والدها الحقيقي احد كبار الصحابة بالمدينة فما ادرانا اذا كان بيننا وبينهُ ما يحرّم الزواج من قرابة عصب او رحم او رضاعة او غيرها فالافضل يابنيَّ ان نؤجل هذا الامر الى حين عودتها »

وسكت الحس وسرَّت اسماء لخلاصها مما كانت تخوفهُ فأمر لها بهودج تسير فيهِ فقالت اني افضل ركوب الجواد . فأمر لها بجواد وخادم امين وقال لها تنتظرين قافلة سائرة من الكوفة الى الشام تسيرين رفقتها لان الطريق يعسر سلوكهُ على شخصين منفردين

قالت سأرى اصطباري . وودعتهُ وخرجت وهي تودُّ ان تطير الى دمشق لمقابلة القسيس وصممت في باطن سرّها على الاسراع ما استطاعت لا تنتظر قافلةً ولا ركبًا

الفصل السابع والستون

معاوية وعمرو بن العاص

كان معاوية في الشام كما علمتَ مخالفًا لعلي في خلافتهِ ناقمًا عليهِ وقد حرض اهل الشام على مطالبتهِ بدم عثمان . فجعل قميص عثمان هذا واصابع نائلة امرأتهِ على المنبر بدمشق ينظرها الناس . فثار اهل الشام وانكروا مبايعة علي وبعث معاوية الى علي بالطومار كما تقدم وهو عازم على مقاومتهِ ما استطاع الى ذلك سبيلا . وحدثتهُ نفسهُ ان يلتمس الخلافة ولكنهُ كان لا يزال يرى ذلك بعيدًا حتى سمع بنقض طلحة والزبير ومسيرهما في اهل مكة الى البصرة . فقال لأصبرنَّ حتى ارى ما يكون من عاقبة تلك الحرب فسمع بخروج عليّ من المدينة ووقعة الجمل ومقتل طلحة والزبير فعلم ان ليس ثمت من يطالب بالخلافة غيرهُ

وكان عمرو بن العاص القائد الشهير فاتح مصر في اوائل الهجرة ومُخرجها من ايدي الروم (سنة ٢٠ هـ) على عهد الامام عمر بن الخطاب — لما فتحها تولاها هو واصلح شؤونها [١] فلما افضت الخلافة الى عثمان بن عفان وكان عثمان كما قد علمتَ من ايثاره ذوي قرابتهِ في ولاية الاعمال فعزل عمرًا عن مصر وعهد بولايتها الى اخيهِ من الرضاعة عبد الله بن سعد فخرج عمرو ناقمًا على عثمان وكان من دهاة العرب المشهورين . فلما كانت الفتنة وثار الناس على عثمان وجاء اهل الامصار الى المدينة

(١) اقرأ رواية ارمانوسة المصرية

كان هو في جملة من نقم عليهِ · ولكنهُ غادر المدينة قبل حصره وسار الى فلسطين وأقام فيها ينتظر ما يكون · فلما علم بمقتل عثمان قال« انى قتلتهُ وانا في وادي السباع » وجعل يفكر في من يلي الخلافة بعده وماهي علاقة ذلك بمصلحتهِ فقال في نفسهِ « ان يلِ هذا الامر طلحة فهو فتى العرب وان يلهِ ابن ابي طالب فهو اكره من يليهِ اليَّ »

فلما بلغتهُ بيعة علي اشتدَّ عليهِ الامر ولبث ينتظر ما يصنع الناس فبلغهُ مسير أُم المؤمنين وطلحة والزبير الى البصرة فاقام ينتظر ما يكون من امرهم · فجاءه الخبر بوقعة الجمل وانتصار الامام عليّ فارتج عليهِ ووقع في حيرة · ثم بلغهُ ان معاوية في الشام لا يبايع عليًّا وانهُ يعظم شأن عثمان وكان معاوية احبَّ اليهِ من علي لانهُ داهية مثلهُ · فاخذ ابنيهِ محمدًا وعبد الله وسار الى دمشق واتفق مع معاوية على الطلب بدم عثمان ونفس عمرو طامحة الى مصر يحنُّ اليها لانهُ فاتحها وكانت مصر يومئذٍ على دعوة عليّ · وعمرو يعلم ان عليًّا لا يوليهِ اياها فلم يرَ خيرًا من الانتماء الى معاوية لهذا الشأن فجعل يحرّض اهل الشام على الطلب بدم عثمان ويقول لهم « انتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم »[1]

الفصل الثامن والستون

﴿ اسماء في دمشق ﴾

قضت اسماء ايامًا في مسيرها من الكوفة الى دمشق ولم تصدق انها اشرفت على غوطتها المشهورة بالخصب ونظرت الى دمشق عن بعد فاذا هي في منبسط من الارض تحف بها الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء وفيها اغراس المشمش واللوز والسفرجل والخوخ والدراق والليمون وسائر انواع الفاكهة وفيها الاعشاب والرياحين وكلها يانعة تجري بينها جداول من الماء القراح · وكانت اسماء ملتفة بالعباءة والكوفية فوق جواد يسابق الرياح ومعها الخادم على جواده فاقبلت على دمشق في الصباح وقد تعطر نسيمها بشذا الازهار تتخللهُ نغمات الاطيار فلم يشغلها ذلك كلهُ عما قام في خاطرها من الشوق للاطلاع على اصلها · فدخلت المدينة من باب الجابية بعد ان ترجلت

(١) ابن الاثير ج ٣

وأمرت الخادم ان يسير في اثرها بالجوادين فمشت بعباءتها وكوفيتها تلتمس كنيسة ماري يوحنا من اقرب الطرق وهي تعرف دمشق معرفة جيدة . وظلت ملثمة لئلاَّ يراها احد من اهلها او جيرانها فيعرفها فيشغلها عما هي ساعية في طلبهِ . وخوفًا من ان ينتبه الناس لها اذا مشت والخادم والجوادان في اثرها امرتهما ان ينتظراها في خان دلته عليهِ وقالت له « امكث هناك حتى اعود اليك » فاطاعها

وظلت هي سائرة حتى دنت من الكنيسة فتذكرت ان هذه الكنيسة العظيمة المعروفة باسم القديس ماري يوحنا لما فتح المسلمون الشام اتخذوا نصفها الشرقي مسجدًا يصلون فيهِ وتركوا النصف الآخر وهو الغربي للنصارى (١) وفصلوا بين القسمين بحاجز . فالتمست الباب المؤدي الى القسم الغربي وهي لا تزال بلباس السفر . فاستقبلها خادم الكنيسة واستغرب مجيئها بعد الفراغ من الصلاة فكلمها باللسان الرومي وكانت قد تعلمته من والدتها في حداثتها فسألها عن غرضها فقالت انها تريد القسيس مرقس فدعاها للاستراحة على مقعد من رخام في صحن الكنيسة وسار للسؤال عن القسيس فلبثت في انتظاره وهي تلهي نفسها بما هناك من فخامة البناء كالاعمدة الضخمة الشاهقة والنقش البديع من الفسيفساء وغيرها ناهيك عن الصور على الجدران والسقف في اشكال غريبة والوان زاهية . ولم تكن تلك اول مرة دخلت هذه الكنيسة ولكن غرابة ذلك البناء وفخامته يستلفتان النظر ويشغلان البال

فما لبث الخادم ان عاد وهو يقول تفضلي الى غرفة الاستقبال فتقابلين الشماس وهو يجيبك على ما تريدين

فخرجت من الكنيسة الى دار في وسطها بركة من الرخام يتدفق منها الماء كسائر دور الشام فانتقلت من الدار الى قاعة فخيمة استقبلها فيها شماس حالما وقع نظرها عليهِ تذكرت انها رأته يوم زارت الكنيسة مع والدتها قبل سفرها الى المدينة فاستأنست بهِ وسألته عن القسيس مرقس فدعاها الى الجلوس على بساط من السجاد وبين يديها بركة اخرى اصغر من بركة الدار والماء يسيل عن جوانبها الى قناة تحيط بها وتنصرف من هناك . فلما جلست قال لها ان القسيس مرقس سافر منذ بضعة اشهر فاجفلت وقالت الى اين

(١) تاريخ دمشق للقساطلي

قال الى بيت المقدس

قالت ومتى يعود

قال لا ادري متى يعود لأن سفره لم يكن لشغل خاص بالدير ولكنهُ خرج فراراً مما أقلق راحتهُ من اصوات البكاء والعويل التي ترن في آذاننا كل يوم في القسم الآخر من هذه الكنيسة

قالت وما هو هذا العويل وعلى مَن

قال ربما سمعتِ بمقتل الخليفة عثمان في يثرب فان بعض رجال حاكمنا معاوية جاء بقميصهِ الملطخ بالدم واصابع امرأتهِ التي قطعت وهي تدافع بيدها عنهُ ووضعوها على المنبر الذي يصلون فوقهُ وكلما اجتمعوا للصلاة وذكروا مقتل الخليفة يصيح الناس رجالا ونساء شيوخًا واطفالاً يبكون ويولولون حتى تكاد تصم الآذان وتفتت القلوب . وكان ابونا القسيس في اثناء ذلك مريضًا مرض الشيخوخة فزاده ذلك الحال ضعفًا فاشار عليهِ طبيبهُ ان يسافر الى القدس يقيم فيها ربما تتغير الحال فسار ولا زال في انتظاره وقد بلغنا انهُ لا يزال مريضًا

فقالت ألا تدري متى يعود

قال كلاّ واذا كنتِ تريدين خدمة فاننا نؤديها عنهُ

قالت « كلاّ وانما غرضي يتعلق بهِ رأساً » وفكرت في ماذا تعمل هل تقيم هناك ريثما يعود ام تخرج الى الخان . وفيما هي صامتة تفكر ابتدرها الشماس قائلاً اذا شئت ان تقيمي ضيفة في هذه الدار ريثما يعود ابونا القسيس اقمتِ على الرحب والسعة فان عندنا نساء يقمن بخدمتك . قال ذلك وصفق فجاء الخادم فامرهُ ان يدلّ اسماء على غرفة القسيسة فصعد بها الى قاعة علوية فيها امرأة طاعنة في السن بلباس اسود وعليها هيأة الكمال والوقار فنهضت لها واستقبلتها واجلستها الى نافذة تطل على بعض ابنية دمشق وامرت لها بما تحتاج اليهِ من طعام ونحوهِ فاعتذرت انها لا تحتاج الى طعام

وجلست اسماء وقد استأنست بتلك المرأة ولكنها ما زالت منقبضة النفس من تعرقل مساعيها بغياب القسيس وتصوَّرت لشدة كدرها ان ذلك التعرقل من نحس طالعها وخيِّل لها ان القسيس مرقس سيموت في القدس لضعفهِ وشيخوختهِ فيضيع السرُّ

وتذهب آمالها ادراج الرياح · فخطر لها ان تذهب في اليه وتستطلع السر قبل دنو اجله وكانت تفكر في ذلك والقسيسة تبالغ في ملاطفتها وتدعوها الى نزع العباءة والكوفية وهي تمتنع

الفصل التاسع والستون

القميص والاصابع

ودنا وقت الظهر فخرجت القسيسة للصلاة كالعادة وظلت اسماء منفردة فاطلت من النافذة فوقع نظرها على صحن الكنيسة كله وفيه القسم الذي جعله المسلمون مسجداً فرأت في أرضه الاسطة والطنافس والمصابيح وشاهدت على جدرانه رسوماً مسيحية في جملتها صور صلبان وقديسين لا تزال كما كانت قبل الفتح · وفيما هي تتأمل بجدران المسجد ومفروشاته سمعت المؤذن يدعو الناس الى صلاة الظهر · وما كاد يفرغ من آذانه حتى رأت الناس يتقاطرون الى صحن المسجد زرافات ووحداناً وفيهم الرجال والنساء شيوخاً وشباناً واطفالاً على غير المألوف · فاشتغل خاطرها بالنظر اليهم وفيهم جماعة عرفت انهم من الجيران الذين كانوا يزورون والدها

ثم رأت الناس يموجون موج البحر يتقهقر بعضهم شمالاً والبعض الآخر يميناً حتى فتحوا طريقاً واسعاً فادركت ان احد الكبراء داخل · فصبرت واذا رجل جميل الخلقة ابيض البشرة ذي هيبة ووقار عليه ثياب موشاة تأنق كبير العمامة عرفت حالاً انه معاوية بن ابي سفيان والي الشام ورأت الى جانبه رجلاً قصير القامة وافر الهامة ادعج ابلج عيناه تكادان تتقدان حدة · فمشيا وهما ينظران الى الجمع والناس سكوت اجلالاً لهما فلم تعرف اسماء رفيق معاوية ولكنها سمعت واحداً من الحضور يقول بصوت عالٍ « انت لها يا عمرو يا ابن العاص انت نصير الخليفة المظلوم » فعلمت انه عمرو بن العاص

فوقفت تنتظر ما يبدو منهما فرأت معاوية ظلّ ماشياً الى دكة عليها قميص ابيض ملطخ بالدماء وعلمت ان الدكة المنبر وان القميص قميص عثمان فتذكرت مقتل ذلك الرجل على مشهد منها وتذكرت نائلة المسكينة وقالت في نفسها اين هي الآن يا ترى

وكانت تفكر في ذلك وهي تنظر الى معاوية فرأته صلىّ ركعتين وصعد المنبر فسكت الناس واصغوا فوقف واجال نظره وحمد الله واثنى عليه وامر بالمعروف ونهى عن المنكر . ثم سكت لحظة وهو يمشط لحيته باصابعه وعيناه تتنقلان في الناس واحدًا بعد واحد ثم تناول عن المنبر هنات كانت معلقة بالقميص جعل يقلبها بين يديه وينظر الى الناس ويقول « اتعلمون ما بين يديَّ . . . انها اصابع نائلة زوج الخليفة المظلوم قطعت بسيوف القتلة وهي تدافع عنه » فتأملت اسماء في الاصابع فاذا هي اصبعان وشيء من الكف واصبعان مقطوعتان من اصليهما ونصف الابهام [١] ثم امسك معاوية القميص بيده وقال « اتعلمون قميص من هذا . . انه قميص الخليفة المظلوم . . انه قميص عثمان المقتول ظالمًا »

ولم يكد يتم كلامه حتى ضجّ الناس من جوانب المسجد بصوت واحد « قتل عثمان مظلومًا . . . قتل مظلومًا » وسمعتْ بعضهم يقول بصوت عالٍ « اقسم بالله وبرسوله وخليفته ان لا يمسني ماء الاّ للغسل من الجنابة وان لا انام على الفرش حتى اقتل قتلة عثمان ومن قام دونهم » وما اتمّ الرجل كلامه حتى ضج النساء والاطفال بالبكاء والعويل وتهافتوا على المنبر ليبكوا على القميص والاصابع فزجرهم معاوية فعادوا الى اماكنهم وعاد هو الى كلامه واسماء تكاد تتميز غيظًا لما سمعته من التعريض بعلي ومحمد وما آنسته من التهديد . فثارت الحمية في رأسها ولكنها صبّرت نفسها لعلمها ان موقفها خطرٌ . فسمعت معاوية عاد الى كلامه بين تحريض وتعريض وهي صابرة حتى سمعته يقول « ان عليًا قتل عثمان وآوى قتلته » فلما سمعت ذلك لم تعد تستطيع صبرًا فتحولت من النافذة اسرع من لمح البصر وهرولت الى باب الجامع بعباءتها وكوفيتها . وفيما الناس يسمعون خطاب معاوية اذا بفتاة وقفت فيهم وعيناها تتقدان غيظًا وحنقًا والمهابة تجلى في محياها فاستلفتت انتباههم فشغلوا بالنظر اليها عن سماع الخطاب

اما هي فصعدت الى دكة من الرخام وولت وجهها الى الناس وظهرها الى معاوية وقالت وصوتها يرتعش وركبتاها تصطكان « ايها الناس اراكم تسمعون وتغضبون لامرٍ لم تشاهدوه ولا انتم على بينة منه لانكم لم تكونوا في المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة . يقولون لكم انه قتل مظلومًا وان عليًا امير المؤمنين قتله وآوى قتلته وهو

(١) ابن الاثير ج ٣

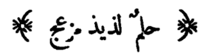
افتراء واختلاق لان عليًا اول من دافع عنهُ بلسانهِ وسيفهِ واولادهِ . قُتل عثمان ايها الناس والحسن والحسين في داره وقد تلطخ وجه الحسن بالدم ولو لم يأمرهما عثمان بالكف عن الدفاع لبذلا النفس عنهُ . على انهما لم ينجوَا مع ذلك من تأنيب الامام . وقد شهدتُ ذلك بنفسي ورأيتهُ رأي العين . فاتّهام علي بقتلهِ افتراء وفتنة لا يصيب القائم بها الاَّ ما اصاب اصحاب الجمل في البصرة . تزعمون انهُ قُتل مظلومًا وربما كان زعمكم صحيحًا ولكن عليًا لم يردّ قتلهُ بل هو اول من قال باستنكائهِ خوفًا من هذه الفتنة فكيف تقولون انهُ قتلهُ »

وما اتمت اسماء كلامها حتى صاح معاوية « من ذا الذي يتكلم من انت يا رجل » فالتفتت اسماء اليهِ وقالت « انني فتاة يا معاوية ولست رجلاً »

فعجب لهذه الجسارة من فتاة بمثل سنها وتأثر من هيبتها وجمالها وانفتها ومع كل غيظهِ وحنقهِ لم يأمر بالقبض عليها ولا المثلة بها ولكنهُ دعاها اليهِ والناس شاخصون ينظرون كأنهُ يريد مجادلتها في الامر . فاشار اليهِ عمرو اشارة فهم منها انهُ لا يليق بهِ ان يجادلها امام الناس لان الجدال يقلل قيمة برهانهِ عندهم ويزيدها وقاحة . فاعجبهُ دهاء عمرو . فلما صارت اسماء بين يديهِ امر بالقبض عليها فتكاتف بضعة عشر من رجالهِ لشد وثاقها فصاحت فيهم « تجمهروا على فتاة وانتم رجال ولا حاجة الى شدّ الوثاق فاني لا افرّ من بين ايديكم . ولكن عار عليكم ان تدفعوا الحق بالقيود والاغلال وهو انما يدفع بالبرهان والجدال »

فاشار معاوية ان يسيروا بها الى السجن كما هي حتى ينظر في امرها بعدئذٍ

الفصل السبعون



ولا تسل عن حال اسماء لما وجدت نفسها في حجرة لا يدخل اليها النور الاَّ من كوة في اعلى الجدار وليس في الحجرة الاَّ حصير بال . فتأملت في حالها وقد جردت من سلاحها مع ما هي فيهِ من الضنك وما تتوقعهُ من الشقاء فندمت على ما ابدتهُ من الجسارة

في الدفاع عن عليّ ولكنها شعرت انها فعلت ذلك بالرغم عنها فقد كانت لا تسمع ذكر علي الا طربت واستعزت او خافت وتهيبت وهي لا تقدر على كبح احساسها

فلما خلت بنفسها في تلك الحجرة المظلمة تمثلت لها حالها كما هي فتذكرت ما مرّ بها من الاهوال منذ حداثتها وما قاسته من البلاء في اسفارها وجهادها وما كان من وفاة والدتها قبل وصولها المدينة وضياع ذلك السر (ولما وصل ذهنها الى هناك اعترض ظلمة كدرها نورٌ ضعيف لما تجدد من آمالها بكشف السر على يد الشيخ مرقس) ثم تصورت مروان وما سامها من العذاب في بيت الخليفة عثمان وتذكرت ان هناك كاشفت محمدًا بأمر الحب فانبسطت نفسها . ثم تذكرت اسفارها الى مكة وما لاقته فيها من المرض والتعب وما عقب ذلك من اسرها ومسيرها في الصحراء تحت خطر الموت والعار حتى قضى الله بنجاتها فعادت الى خطر آخر ونجت منه ثم استّرت بالكشف عن اصلها ثم حضرت وقعة الجمل ...

وما زالت تتسلسل الافكار في ذهنها حتى وصلت الى ما جرّ عليها ذلك السجن فعظم الامر عليها واشتد الاسف بها حتى اجهشت للبكاء فحاولت التجلد الا يقال انها بكت من اليأس او الخوف وهي انما بكت لنكد حظها وسوء طالعها وما يقف في سبيلها من العقبات التي لم تكن تخطر لها ببال . فالتفتت الى ما حولها فلم تجد احدًا وتطاولت بعنقها الى باب السجن فرأت السجان في غفلة عنها . فأطلقت لنفسها عنان البكاء واخذت تناجي نفسها تارة تذكر والدتها وطورًا حبيبها وآونة عليًا وأُخرى تندب حظها . واستغرقت في ذلك حتى نسيت نفسها وغاب رشدها كانها اصيبت بنوبة عصبية فلم يعد في امكانها امساك عواطفها عن البكاء والنحيب

وما زالت في ذلك حتى تعبت فغلب النعاس عليها فنامت على ذلك الحصير . فرأت في منامها كأن والدتها ماشية نحوها على بساط من الورد المنثور وعليها حلة ارجوانية طويلة الذيل مزركشة بالذهب تجرّه وراءها وعلى رأسها تاج من زهر الرمان -- رأتها تمشي الهوينا وهي تتلمس الخطى كانها تحاذر ان تشوش مهب النسيم . فبغتت اسماء لرؤية خيال والدتها وخصوصًا لما رأتها بصحتها الكاملة وقد ارتد اليها لونها وتوردت وجنتاها واشرق وجهها . وظلت اسماء مبغوتة شاخصة الى ذلك الخيال حتى سمعتها تقول بصوتٍ رخيم وهي تبتسم « هل عرفت والدك يا اسماء »

فاسرعت اسماء اليها والقت نفسها على صدرها فاشتمت رائحة الوالدية فانعشت وجعلت تتنشقها وهي تقول « لا لا لا يا اماه لم اعرفه بعد .. قولي لي ... قولي فقد نفد صبري »

فضمتها والدتها الى صدرها وهمست في اذنها قائلة « اخفضي صوتك لئلاّ يسمعك الامام »

فاطاعتها وقالت بصوت خافت « قولي لي يا اماه من هو والدي »

قالت « انما جئت اليك الآن لاخبرك بذلك فاعلمي ان والدك هو .... »
وسكتت لحظة وهي تلتفت يمينًا وشمالاً وعيناها تلمعان كان الماء يغشاهما واسماء شاخصة اليها ببصرها وقلبها يكاد ينشقّ لاستقبالها واذناها مفتوحة لسماع اسم والدها. ولكنها ما لبثت ان شعرت بوالدتها ترتعد وقد اخذ لونها بالامتقاع وهي شاخصة الى شبح قادم اليها . ثم رأتها اجفلت وحاولت الفرار فتشبثت اسماء بها وهي تقول « امكثي بالله لا تذهبي قولي لي اسم والدي » فلم تلتفت اليها ولكنها حاولت التملص منها واسماء ممسكة ثوبها . وفيما هي في ذلك افاقت من نومها مذعورة فرأت نفسها في تلك الحجرة المظلمة على ذلك الحصير القذر وسمعت صوتًا لم تكد تموجاته تدرك حاسة اذنها حتى ارتعدت فرائصها لمشابهتهِ صوت مروان بن الحكم عدوّها القديم . فقالت في نفسها « اعوذ بالله من نكد حظي على يد هذا الرجل ألا يزال ذكره شؤمًا عليّ حتى في احلامي . كنت في الذ الاحلام فايقظني بصوتهِ »

وكانت تفكر في ذلك وهي تمسح عينيها باناملها لتتحقق اذا كانت في يقظة ام في منام . فما كادت تفتح عينيها حتى رأت مروان واقفًا امامها وقد تقلد حسامه وانتفخت هندامه . فلما رأته استعاذت بالله ولم تلتفت اليهِ

فتقدم مروان نحوها وهو يقول « لقد صفحنا عمّا مضى يا اسماء اذا كنت ترجعين عن غيك وتعلمين ان محمدًا وعلياً لا يغنيان عنك فتيلاً . ها انت الآن في دمشق مسقط رأسك ومقر آبائك . مالك والمدينة والكوفة . اصغي لنصحي وارجعي عن عنادك واعلمي انك اذا اطعتني هذه المرة صفحتُ عما مضى وكنتِ اسعد فتاة والاّ فانكِ مقتولة لا محالة لانك في قبضة يدي افعل بك ما اشاء . واعلمي ان معاوية سيبعث اليك يستطلع اقوالك بشأن ما فهتِ به في المسجد مما لا يأتيه الاّ كل مختل الشعور فاذا شئت البقاء حية

اعتذري عما فرط منك وكوني مع القوة ولا يغرك انتصار علي في البصرة فانه سيلاقي منا سيوفاً لا تُفَلّ ورجالاً لا تردّ وقلوباً كالحجر الصلد وستخرج الخلافة من يديه فيخضع لنا هو واولاده وكل من يلوذ به »

وكان مروان يتكلم واسماء ترتعش وقلبها يكاد يفرّ من صدرها لشدة التأثر وصعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها واحمرت عيناها وهي مع كل ذلك لا تزال مطرقة تفكر في ماذا تجيبه وقد ايقنت ان حياتها بين يديه وبدي معاوية فحدثتها نفسها لاول وهلة أن تعمل بمقتضى عواطفها فتنتهر مروان وتوبخه ولكنها تذكرت تهوّرها في ذلك الصباح في المسجد وما آل اليه امرها بسببه فامسكت نفسها وتجلدت وهي تكظم الغيظ ولكنها لم تستطع جواباً

فظن سكوتها لينا او رضاء فدنا منها وبالغ في نصحها فقال « لعلك تذكرين ما عاملتني به من الجفاء حتى الآن وانا اعذرك وارجو ارعواءك لانك انما كنت مدفوعة الى ذلك بطيش التسمية وكنت تحسبين محمداً اهلاً لك وقد رأيت كيف انقلب امرهم جميعاً وكيف قام المسلمون عليهم يطالبونهم بدم الخليفة عثمان . ولا اظنك تجهلين ما فعله محمد يوم قتله وقد كنتِ في جملة الشهود . الم تريه دخل على الخليفة وامسك بلحيته وهمّ بقتله فوبخه الخليفة وذكّره بوالده فرجع . اتحسبين ذلك دفاعاً وانت مع ذلك ترعمين ان محمداً خيراً من مروان »

فثقل كلام مروان على اسماء ولا ثقل الجبال حتى كادت تصرح باحتقارها له ولكنها حاولت الكلام والسكوت فطغت عواطفها عن طريق العينين فانسكب دمعها قطرات تسابق بعضها بعضاً وهي مطرقة لاتنظر اليه

ففرح مروان وتحقق ندمها وهمّ بالدنو منها والرجوع الى الحديث واذا بالسجان دخل وقال لمروان « ان الامير بعث رجالاً يستقدمون السجينة اليه » فاذن بدخولهم وتقدم السجان وهو لا يجسر على مخاطبة اسماء الا بالوقار فقال لها تفضلي يامولاتي الى الامير . فوقفت وقد مسحت عينيها وخرجت فرأت خارج السجن بضعة رجال بالسيوف والحراب فقال لهم مروان لاحاجة الى سلاحكم وخفارتكم فانها تسير بنفسها الى مجلس الامير سيروا انتم عن بعد

الفصل الحادي والسبعون

﴿ مجلس معاوية ﴾

وسارت اسماء بقدم ثابتة وقلب لايهاب الموت ومروان يمشي وراءها وقلبهُ مبتهجٌ بما تجدد من آمالهِ في الحصول عليها . لانهُ كان لاينظر اليها الا سحر بجمالها وهيبتها . ولقد يكفيهِ من الفخر في الحصول عليها ان يقهر محمدًا ويغلبهُ

وبعد بضع دقائق وصل الجميع الى قصر منيع من بناء الرومان كان في الاصل قصرًا لحاكم الشام من الروم وعند بابهِ بعض الخفر بالسيوف والحراب . فدخلت الى دار واسعة ومروان يسير امامها يهديها الى قاعة المجلس فعرج بها حول البركة حتى دخل قاعة كبيرة فيها الوسائد والطنافس على الجانبين وفي صدرها معاوية على متعدٍ والى جانبهِ عمرو بن العاص وولداه محمد وعبد الله وبين ايديهم جماعة من الامراء لم تعرفهم . فدخلت ووقفت ونظرت الى الحضور نظرة فاحص بسكينة وجلال ثم وجهت نظرها الى معاوية غير هائبة

فنظر معاوية اليها وتأمل ما يتجلى في وجهها من المهابة وكانت لاتزال غاضبة وقد تقطبت اسرتها وازدادت هيبة فاعجب معاوية بهيبتها وجمالها وكان قد أعجب بشجاعتها واقدامها . فلما وقفت بين يديهِ قال لها « ما الذي حملك على الجرأة التي ظهرت منك في المسجد اليوم »

قالت انما حملني على ذلك الحق والصدق فقد سمعت تعريضًا برجل اتهمتموهُ تهماً هو بريءٌ منها

قال معاوية وما ادراكِ ببراءتهِ وانت فتاة قاعدة في بيتك

قالت اني اعلم من الامر فوق ما يعلم كل واحد منكم وقد تحققت يقينًا ان عليًا امير المؤمنين بريءٌ من هذه التهم

فاعترضها عمرو بن العاص قائلاً لاتقولي « امير المؤمنين » فاننا لم نبايعهُ

فقالت واذا لم تبايعوهُ انتم فقد بايعهُ سواد المسلمين في المدينة والبصرة والكوفة

ومصر وسائر الحجاز وهو ابن عم الرسول (صلعم) واحق الناس بهذا الامر

فقال عمرو اراكِ تحكمين وتفصلين في امور يظهر انك تجهلينها . فلو اجمع الناس على بيعتهِ ما اضطر الى الحرب وسفك الدماء . يكفيهِ انهُ سبب قتل الخليفة عثمان الذي اصبح دمهُ طليعة ما سفك وسيسفك من الدماء

فنظرت اسماء الى عمرو وقالت الست عمرًا ابن العاص

قال اللهم نعم

قالت « الم تكن اول ناقم على ذاك الخليفة المقتول لانهُ عزلك عن مصر وولاها أخاه عبد الله . . . ألم تفرح بقتلهِ . . ولكن الدهاء اوجب بعدك والناس يعلمون من هو القاتل او الساعي في القتل » قالت ذلك وقد ظهر التأثر على وجهها مما بدا عليهِ من الامتقاع

فعظم جوابها على عمرو وخاف تماديها في الجرأة فقال لها « ممن انتِ يا فتاة »

قالت من هذا المكان

قال اني اسألك عن ابيك

فسكتت ولم تجب فتقدم مروان وهو يرجو ان يخفف غضب معاوية وعمرو عن اسماء طمعًا برضائها واستبقائها وقال « انها اموية وهي بنت يزيد الاموي وقد قتل ابوها رحمهُ الله في جملة من قتل يوم مقتل عثمان

فقال معاوية أأموية انتِ فلم تجب

فقال كيف تكونين أمويةً وتقولين غير قول بني امية وهم مجمعون على ان عثمان قتل ظلمًا وقد نهضوا جميعًا للاخذ بثاره

فقالت « لا يهمني أموية كنت او غير أموية ولكنني اشهد بما اعلم . فانا لا أرى احدًا مظلومًا في هذه الفتنة الاَّ امير المؤمنين علي بن ابي طالب واني اقول اعتقادي رضيتم ام غضبتم . ولعلكم تهددونني بالقتل او السجن فلا ابالي بالتهديد ولا بالوعيد هذا قولي قلتهُ فافعلوا ما تشاؤُون »

وكان مروان في اثناء كلامها يفكر في ما يرجوهُ من رضائها وعيناه شاخصتان الى الحضور لئلاَّ ينظر اليها احد نظر الراغب فيها وودَّ لو انهم يقطعون الحديث لئلا تقول قولاً يثير غضب معاوية فيأمر بقتلها

اما عمرو فرأى بحسن فراستهِ ودهائهِ ان يظهر الاستخفاف بكلام اسماء ويبدي الرفق بها لانهُ رآها لا ترضخ بالعنف . وخاف ان تتمادى في كشف ما كان ساعيًا فيهِ على عثمان قبل قتلهِ . فقال لها اراك يا بنية مغرورة ومن العبث ان نجادلك وخصوصًا ان النبي (صلعم) اوصانا بالنساء رفقًا لانهن ضعيفات وبالأخص انك أموية من لحمنا ودمنا . فارفقي بنفسك وارجعي عن غيك وامكثي عندنا في امن واقلعي عما انت فيهِ

فقالت لا تستضعفوني ولا ترجوا رجوعي ولا تحسبوني أموية ولا هاشمية فافعلوا ما تشاؤُون وقد قلت لكم اني لا أهاب الموت . .

فتقدم مروان الى معاوية وهمس في اذنهِ قائلاً « أرى الاقتصار عن جدالها فاتركوا امر اقناعها اليَّ لاني اعرفها قبل ذهابها الى المدينة فقد كانت مقيمة في دمشق واعرف والدها ووالدتها وانا اضمن اقناعها اما طوعًا واما كرهًا اذ لا يليق بنا استبقاءها على هذا العناد فاما ان ترجع عن رايها او ان نقتلها والقتل امر مستدرك فأرى ان نقنعها بالحسنى » ثم تحوَّل الى عمرو وقال بحيث يسمعهُ الاثنان ولا تسمعهُ اسماء « ولا يخفى عليكما اننا اذا اكتسبناها لحزبنا اطلعتنا على كل مخبآت علي ورجالهِ لانها عالمة بكل اسرارهم فاتركا هذا الامر اليَّ » قال ذلك ونحى جانبًا واسماء خائفة مما بدا منه . فقال معاوية خذوها الآن الى منزل مروان وسننظر في امرها

فقطعت الحديث قائلة العلَّ منزلهُ سجن

قال كلاَّ

قالت « بل خذوني الى السجن حيث كنت في هذا الصباح »

فخاف مروان اذا اصروا على ارسالها معهُ ان تصرّح بشيء ضده فقال « خذوها الى السجن » وعوَّل على ان يخاطبها هناك



الفصل الثاني والسبعون

ظلمة السجن

وأشار معاوية الى الخفر فساروا وأسماء تمشي امامهم غير هائبة ولا جزعة · واما مروان فانهُ اسرَّ الى كبير الخفر ان يجعلها في غرفة من غرف السجن منفردة وان يضيقوا عليها لعلها تشعر بحاجتها الى استنجاده · ولم يدركوا السجن الاَّ بعد الغروب فدخلوا بها والسجان معهم من باب كبير الى دار كبيرة انصلوا منها الى دهليز مظلم انتهوا فيهِ الى بضع درجات نزلوا عليها الى دار صغيرة تستطرق الى غرف عديدة دخلوا في احداها وانصلوا من هذه الى حجرة اخرى واطئة السقف مظلمة تتصاعد منها رائحة الرطوبة والعفونة وقد سنت الطحالب على جدرانها ونحلب الماء عنها · فأقعدوها على حصير بال ورجعوا وظل السجان وحده · فلما خلا بها نظر اليها وكأنهُ اشفق على شبابها وتوسم فيها مهابة وجلالاً ولكنهُ لم يخاطبها فتركها على ذلك الحصير وعاد وهو يرجو ان تخاطبهُ هي وتلتمس نجدتهُ متى احسَّت بالوحدة او شعرت بالجوع والخوف

اما هي فلما رأت نفسها في تلك الغرفة وقد خلا المكان من الناس واستولى السكوت على تلك الجدران العفنة لبثت تفكر في حالها وما صدر منها في حضرة معاوية من الاقوال مخافة ان تكون قد فاهت بما يدل على عجز او خوف فرأت انها ادت الامانة حقها · ولكنها مع ذلك تأسفت لانها لم تسمح لها الفرصة باستيفاء الكلام

وقضت ساعات وهي جالسة لا تبالي بالظلمة ولا بالجوع او الخوف لعظم تأثرها ثم انتبهت لنفسها وماهي فيهِ من الخطر اذا لم يكن من معاوية ورجالهِ فمن مروان وآمالهِ وايقنت انهُ آتٍ اليها تلك الليلة طمعاً برضائها · والموتُ عندها خير من اجابة طلبهِ فالتفتت الى ما حولها وهي لا تكاد ترى جدران الغرفة لشدة الظلام فاصغت بسمعها لعلها تسمع مشياً او كلاماً فاذا كل شيء هادئ ساكن لا يكدر سكونهُ الاَّ وزوزة البعوض حول وجهها ونقيق الضفادع نقيقاً ضعيفاً يظهر من جهتهِ وضعفهِ ان السجن قائم على ضفة نهر بردى الذي يتشعب في دمشق فيسقي اهلها بقساطل من الحجارة او الخزف متفرقة في كل منازلها · فاستأنست بذلك النقيق ولكنها استوحشت الظلمة الدامسة مخافة ان تغتالها عقرب او ثعبان على غرة

وفيما هي ساكنة تفكر في حالها وقد شغلتها الوحشة عن الافتكار بالخطر المحدق بها سمعت خطوات بطيئة تدل على تسرُّق صاحبها في مشيتهِ فجمد الدم في عروقها وخافت ان يكون ذلك القادم مروان آتيًا نحوها . فوجهت انتباهها نحو الحجلى وقلبها يخفق بشدة وسرعة حتى كادت تشعر بخفقانهِ في عنقها فاذا بذلك الصوت يقترب نحوها فاجفلت ونهضت وتهيأت للدفاع اذا رأت لزومًا ولبثت تنتظر ما يكون . واذا بالخطوات تسرع وتبتعد وتضعف حتى لم تعد تسمعها . فعلمت ان واحدًا كان قادمًا نحوها ثم رجع فازدادت قلقًا وظلت واقفة وركبتاها ترتعدان لعظم التأثر وودت لو ان ذلك القادم وصل اليها لتعلم من هو وما غرضهُ واما رجوعهُ فقد زاد بلبالها . وصممت في باطن سرّها ان تستهلك في سبيل الدفاع وان القادم اذا كان مروان فتصرح لهُ بما في ضميرها ولو آل ذلك الى القتل

ولبثت برهة لم تعد تسمع في اثنائها صوتًا ولكنها ما برحت مضطربة شاخصة بعينيها الى الجهة التي سمعت بها الصوت وطال شخوصها حتى لم تعد تستطيع اطباق اجفانها ونسيت موقفها برهة

وفيما هي في ذلك لمحت نورًا ضعيفًا في دار الحجر الصغرى فاستأنست بهِ ولكنها تذكرت مروان فخافت ان يكون قادمًا اليها . على انها تشجعت وقالت في نفسها فليأت اما اقتلهُ او يقتلني فاستريح من هذه المخاوف . ولم تكد تفكر في ذلك حتى رأت النور يتعاظم ويقترب ثم بان المصباح يحملهُ رجل عرفت من لباسهِ وقيافتهِ انهُ السجان فهدأ روعها . ونظرت اليهِ فاذا هو يحمل المصباح في احدى يديهِ ويحمل بالاخرى قصعة فلما دنا من غرفتها تأكدت انهُ السجان

فلبثت تنتظر ما يبدو منهُ فاذا هو يقول لها سامحيني يا سيدتي لاني تركتك الى الآن بلا طعام ولا نور فاني لم آكن اعرف انك تنتمين الى الامير مروان

فلما سمعت ذلك الاسم ارتعدت فرائصها ولكنها لم تجب . وكان السجان قد دخل الغرفة ووضع المصباح على الارض وقدَّم القصعة اليها وفيها خبز ولحم وهو يقول هذا طعام بعث بهِ الامير مروان اليك وكلفني ان اطمئنك انك لن تبيتي في هذا المكان الاَّ الليلة وفي الغد ينقلك الى منزلهِ

فنفرت منهُ وقالت لا حاجة بي الى طعام فارجع من حيث اتيت

فقال لقد قضيتِ طول النهار بلا طعام ألا تأكلين شيئًا

قالت لا لست جائعة عد بالطعام حالاً

فعجب السجان لقولها وقد كان يتوقع ارتياحها لالتفات مروان فقال لها « ولماذا هذا يا سيدتي . . . كلي . . تناولي لقمة تسدين بها جوعك

قالت خذ الطعام اني لست جائعة قالت ذلك وحوّلت وجهها عنهُ

فقال دعي القصعة والمصباح هنا افعلي بهما ما تشائين وها اني عائد . قال ذلك ورجع

فلما خلت بنفسها ظل بصرها على المصباح تتأمل حركاته والبعوض يحوم حوله وفكرها تائه وقلبها يخفق كلما تصوّرت مروان قادمًا نحوها . وارادت ان تسند ظهرها الى الحائط فاحسّت برطوبته فعادت عنهُ

الفصل الثالث والسبعون

طارقٌ مفاجيء

وعاد المكان الى السكون مدة طويلة وقد غرقت اسماء في بحار الهواجس ونسيت وجدانها ولكنها ما لبثت ان انتبهت لصوت اقدام تمشي في الغرفة الخارجية بهدوٍّ فأجفلت وتأكدت ان مروان قادم فخفق قلبها وصعد الدم الى رأسها وتهيأت للفتك به . وحوّلت نظرها الى الخارج فرأت شبحًا قادمًا يخطو خطو السارق المتلصص وقد التف بعباءة . فخافت ولكنها تجلدت لترى ما يبدو منهُ فلما دنا من باب الغرفة همّت ان تخاطبهُ فاذا هو يقول بصوت خافت « لا تخافي يا سيدتي اني جئتك بالفرج لا تخافي »

فلما سمعت كلامهُ ارتعدت فرائصها وتذكرت انها تسمع صوتًا تعرفهُ فقالت « من انت »

قال اني عبدك مسعود لا تخافي . وقد جئت لانقاذك

قالت ومن اين اتيت ومن ارسلك هل هبطت من السماء ام خرجت من جوف الارض

قال لم يرسلني احد ولكنني كنت سجينًا في هذا المكان منذ تركتك في دير البصرة · لاني خرجت من الدير وفيما انا عائدٌ الى الكوفة ظفر بي جماعة من بني امية كانوا قادمين بهمة من معاوية فقبضوا عليَّ وساقوني الى هذا السجن لاني من صنائع ابن ابي بكر واشكر الله لوجودي هنا لعلي استطيع انقاذك من ايدي هؤلاء الظالمين

فاطمأن بالها ولكنها حسبت نفسها في منام مثل منام الامس · فقالت وكيف عرفت اني هنا

قال رأيت الخفر لما أتوا بك عند الغروب ولبثت انتظر فرصة آتي بها اليك وقد جئت منذ ساعة حتى كدت اقترب اليك فسمعت خطوات السجان فهرولتُ راجعًا واما الآن فلا خوف علينا من السجان تعالي معي

قالت واين هو السجان

قال انهُ ذهب الى بيت مروان

قالت وكيف ذلك واخشى ان يكون باقيًا

قال لا تخافي لاني حرضتهُ على المسير الى مروان ليخبره برفضك طعامهُ ويحرضهُ على المجيء للانتقام منك واطمعتهُ بمالٍ ينالهُ منهُ اذا فعل ذلك وعوّلت على الخروج في اثناء غيابهِ

قالت « والباب »

قال يظن السجان المسكين انهُ اقفلهُ ولكنهُ لا يزال مفتوحا تعالي قبل ان يعود السجان أو يأتي مروان · فترددت برهة وقد اعظمت الفرار

فأدرك مسعود ترددها فقال لها اتحسبين خروجك من هذا السجن فرارًا وما في بقائك فيهِ غير الموت او العار .. تعالي .. اسرعي ناشدتك الله

ومشى فمشت هي في اثره ثم عاد الى المصباح وقال ارى ان نطفئَ هذا المصباح لئلاَّ يدلَّ علينا · واطفأهُ فاظلم المكان ولم تعد اسماء تعرف الطريق فأمسك بيدها ومشيا وهي ترتعد حتى خرجا من الغرفة الثانية الى الدار الصغرى واطلاَّ على الدهاليز وما صعدا الدرجات حتى سمعا كلامًا في طرف الدهليز الآخر مما يلي الدار الكبرى فوقفا يتنصتان فاذا بمروان والسجان قادمان ومروان يقول « لا بد لي من قتلها اذا ظلت على عنادها وقد كنت اتوقع هذا العناد منها ولذلك فاني ارسلتك بالطعام

وسرتُ في اثرك »

فجمد الدم في عروق مسعود واسماء وايقنا بالهلاك وشق ذلك على مسعود بالاكثر لانهُ عرّض اسماء للخطر

اما هي فامسكت اضطرابها وشدت على يد مسعود وجرّتهُ الى خلوة وراء باب الدهليز انزويا فيها وقلباهما يخفقان والظلام حالك ولبثا ينتظران دخول مروان والسجان فسمعا مروان يقول « هاتِ المصباح وتعال »

فأجابهُ السجان « ان في حجرتها مصباحًا تركتهُ عندها »

قال ذلك ودخلا في الدهليز وصدى خطواتهما يتعاظم رويدًا رويدًا حتى بلغا الباب الثاني الذي اختبأ مسعود واسماء وراءه . فلما رأى مروان المكان مظلمًا وقف وقال للسجان « اين هو المصباح اني ارى السجن مظلمًا »

فقال السجان اني وضعتهُ في حجرتها ولعلها اطفأتهُ لكيدها وقاحتها هلم بنا لنرى

فقال مروان اني لا ارى الطريق لشدة الظلام هات مصباحًا آخر

قال « هلمّ بنا ندخل ثم آتيك بالمصباح ... انزل هذه الدرجات على مهلٍ .. ها اني اخطوها امامك .. تمسَّك بمصراع الباب من عندك » قال ذلك ونزلا ومروان يتوكأ باحدى يديهِ على السجان و بالاخرى على الباب حتى وصلا ارض الدار الصغرى . فمشيا حتى دخلا الغرفة وهما يلمسان الارض

ولا تسل عن حال مسعود واسماء في تلك اللحظة فقد كانت عندهما اطول من شهر فحالما علما بدخول مروان والسجان الى الغرفة اشار مسعود الى اسماء ان تخلع نعليها لئلا يُسمع وقعهما وكان هو بلا نعال فخلعت نعليها وحملتها بيدها وتحوّل كلاهما من وراء الباب الى الدهليز بخفة وسرعة ومنهُ الى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان لا يزال مفتوحًا واسرعا الى الشارع وما صدقا انهما نجوا

وكانت اسماء تعرف طرق الشام معرفة جيدة فلما بعدا عن السجن وقفا برهة يتدبران المكان الذي وصلا اليهِ فعرفتهُ اسماء فسارت تلتمس كنيسة ماري يوحنا

الفصل الرابع والسبعون

النجـاة

وقبل ان تصل الى الكنيسة تذكرت خادمها والجوادين في الخان فوقفت تتردد بين ان تسير الى الكنيسة اولاً او الى الخان . فسألها مسعود عن سبب ترددها

فقالت اتردد بين ان اذهب الى كنيسة ماري يوحنا فأقيم فيها او اسير الى الخان حيث يقيم الخادم ومعه الدواب

فتعجب مسعود لترددها بين الاثنين وهو لايرى حاجة الى الكنيسة لانهُ لا يعلم بما انبأها بهِ الراهب في دير الصرة . فقال وما لنا وللكنائس هلمَّ بنا الى الخان ومنهُ الى الكوفة حالاً فقد بلغني ان الامام علياً وسائر الصحابة هناك

فتنهدت وقالت نعم انهم جميعاً هناك ولكن لي في هذه الكنيسة غرضاً يهمني وانا انما جئت دمشق من اجلهِ ولا بدَّ لي من اتمامهِ . ولكنني ارى ذهابي الى الكنيسة في آخر هذا الليل ما يوجب شبهة او تساؤلاً والكنيسة والمسجد متلاصقان او هما بناءٌ واحد فأرى ان امضي بقية هذا الليل في الخان فأرى الخادم وادبر اموره ثم اسير الى الكنيسة . قالت ذلك ومشت ومسعود الى جانبها فسألتهُ هل انت عازم على الكوفة

قال نعم ان شاء الله

قالت اذا لم يكن بدٌّ من ذلك فأوصيك ان تبلغ الامام ورجالهُ ما هم فيهِ اهل الشام من النقمة لعثمان والطلب بدمهِ . وقصّت عليهِ ما رأتهُ في المسجد من التحريض والتهديد بالاصابع والقميص الى ان قالت . وقل لهم اني باقية هنا بضعة ايام اخرى ريثما تتم مهمتي و . . . ثم ادركت ان مسعوداً شديد الميل لمعرفة السبب الذي يدعوها الى البقاء هناك مع ما قاستهُ من الخطر والعذاب وشعرت ان بقاءها على كتمانهِ عنهُ مبالغة في احتقاره بعد ان كان سبباً في انقاذها من الموت والعار . فأحبت اطلاعهُ على بعض السرّ تشجيعاً لهُ لما في ذلك من دلائل الثقة بهِ والاعتماد عليهِ وهمّت بالكلام فاذا هما قد وصلا الى باب الخان فقرع مسعود الباب ففتح لهُ صاحب الخان واراد ان يستفهم عمّن هما وما غرضهما فابتدرتهُ اسما . بالسؤال عن خادمها هل يقيم هناك فاستأنس بهما ودعاهما الى غرفة الخادم فدخلا . وجلسا هناك في مأمن وقد استولى التعب

على اسماء على أثر ماقاسته من الجهد والسفر والسهر والخطر

واحس مسعود بتعبها فقال لها ها اني ذاهب الى الكوفة وساخبر امير المؤمنين ومحمداً بما جرى ولكن اذا سألني احدهما عن سبب بقائك هنا ماذا اقول له

قالت « قل له ان القسيس الذي جئت في التماسه غائب في بيت المقدس فاما ان انتظر قدومه او ان اسافر اليه » وقصت عليه بعض الحديث ونهض وودعها وخرج وظلت هي والخادم فبدلت ثيابها وتناولت بعض الطعام ونامت والخادم في غفلة تامة عما وقع لها في ذلك اليوم . وظلت راقدة الى ظهر اليوم التالي حتى ارتاحت

على ان نومها كان متقطعاً تخللهُ هواجس وبلابل . وفكرت طويلاً في هل تقيم في دمشق ام تلتمس بيت المقدس لمشاهدة القسيس ولكنها تركت ذلك الى ما بعد السؤَال عن مدة اقامته هناك وما يرجوهُ من الاسراع في قدومه

وقضت بقية ذلك اليوم في الخان وفي الصباح التالي لبست ثوباً غير الذي كانت فيه يوم المسجد . واوصت خادمها ان يكتم كل شيء . فاذا سئل عن سبب اقامته هناك لا يذكرها وخرجت تلتمس الكنيسة من غير طرقها العمومية فدخلت الكنيسة وسارت تواً الى القسيسة فاذا هي في غرفتها تصلي فمكثت ريثما فرغت من صلاتها ودخلت عليها فلقيت منها ترحاباً عظيماً وكانت قد علمت بالقبض عليها وقالت لها لقد بكيتك يا ابنتي وبدنتك مخافة ان تكوني قد اصبت بسوء فقصت اسماء عليها خبرها من الوجهة التي تهمها . ففهمت القسيسة ان حالها تستدعي الكتمان فقالت لها اقيمي هنا ما شئت وليس لاحد سبيل اليك اذا اقمت معي في هذه الغرفة فانك بمنزلة ولدي

فلما سمعت اسماء قولها « ولدي » تذكرت والدتها فهاجت اشجانها وقالت في نفسها « لو كانت والدتي لا تزال حية لكنت في غنى عن كل هذه المتاعب ... آه ما اعز الامهات وما اشد حاجة البنات اليهن » . ولكنها اجابت القسيسة شاكرة وقالت اعلم ذلك جيداً ولولاه ما جئت بنفسي وقد كنت عازمة على الخروج من هذه المدينة لو لم اكن في انتظار القسيس مرقس . هل تظنينه يقيم طويلاً في بيت المقدس

قالت لا ادري عزمه يقيناً ولكنني لا اظنه يطيل الاقامة هناك

وقضت اسماء اياماً في مخبأها عند القسيسة تنتظر قدوم القسيس فابطأ وملّت الانتظار وخافت ان يموت قبل رجوعه بالنظر الى شيخوخته وضعفه ولما تصورت موته

قبل اطلاعها على امر والدها هبَّ جسمها واقشعر بدنها وخافت اذا سارت اليهِ ان يأتي هو من طريق آخر فلا يلتقيان فلبثت تتردد بين الامرين

الفصل الخامس والسبعون

خلافة الامام علي بعد وقعة الجمل

مرَّ بنا ان الامام عليًّا لما انتصر في وقعة الجمل نزل البصرة فبايعهُ اهلها فاستعمل عليها عبد الله بن عباس وسار الى الكوفة فنزلها واستقام لهُ الامر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان و بايعه اهلوها ولم يبق خارجًا عنهُ الاَّ الشام وفيها معاوية واهل الشام مطيعون لهُ في الطلب بدم عثمان كما قد رأيت

وكان عليٌّ قد ولىَّ على مصر قيس بن سعد بن عبادة وهو من خيرة المهاجرين وكان من جهة الامام علي وهو من دهاة العرب . وكان في مصر جماعة بخربتا يرون غير رأيهِ و يطالبون بدم عثمان ولكنهم معتزلون لا يتحركون لحرب فرأى قيس من السياسة والدهاء ان يكف الحرب عنهم و يداهنهم لئلاَّ ينضموا الى معاوية

وكان معاوية قد كتب الى قيس يستميلهُ و يبذل لهُ الولايات العظام فلم يجبهُ قيس الاَّ دفاعًا عن علي . فاصطنع معاوية عن لسان قيس كتابًا قرأهُ على الناس في الشام يوهمهم ان قيسًا معهُ وانهُ لذلك لم يقاتل المعتزلين في خربتا . فبلغ ذلك عليًّا فصدق الوشاية في قيس وعزلهُ عن مصر وولى عليها محمد ابن ابي بكر (١)

ولم يكن لعلي شاغل بهمهُ بعد وقعة الجمل الاَّ معاوية وجنود الشام فرأى ان يبعث اليهِ يطلب بيعتهُ فبعث اليهِ جرير بن عبد الله البجلي في ذلك و يطلب منهُ الدخول فيما دخل فيهِ المهاجرون والانصار . فسار جرير الى الشام فماطلهُ معاوية مدة ريثما اراه حال اهل الشام وما يقاسونهُ من البكاء والعويل عند قميص عثمان واصابع نائلة كما تقدم فرجع جرير بذلك الخبر الى علي . فعلم ان لا بدَّ لهُ من الحرب فسار من الكوفة في جيش يلتمس الشام وقد علم بما تحالف عليهِ معاوية وعمرو . وسار

(١) ابو الفداء ج ١

معاوية وعمرو من الشام يطلبان علياً ولكنهما ابطآ في السير حتى التقى الجيشان في صفين . ودخلت سنة ٣٧ هـ والجمعان في صفين

(١) (صفين) وصِفّين موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من غربيهِ بحيث تكون الرقة على الضفة الشرقية وصِفّين في الغربية والفرات بينهما . او هو بين الرصافة في الجنوب والفرات في الشمال . بين صفين والكوفة نحو ثلاثمئة ميل او اكثر و بينها و بين الشام نحو نصف ذلك . وهي من الشام في الشمال الشرقي ومن الكوفة في الشمال الغربي

هناك نزل الجيشان العظيمان يقودهما اعظم رجال الاسلام ونخبة المهاجرين والانصار . في ذلك السهل الواسع جرت واقعة صِفّين المشهورة التي قتل فيها عشرات الالوف من الرجال . وقد نال فيها عليٌّ ما نالهُ في وقعة الجمل من النصر والغلبة . ولكن هل انتظم لهُ الامر بعدها . كلاّ . . فانها كانت خاتمة نصراتهِ على مناظريهِ في الخلافة . ولم يكن ذلك لضعف عزيمتهِ ولا لفلول حسامهِ ولكنها حيلة دبرها عمرو ابن العاص فنفذت فيهِ وفشل رجالهُ وانقسموا فيما بينهم كما سيجيء

الفصل السادس والسبعون

﴿ اسماء وجدّاها ﴾

ولبثت اسماء اياماً واسابيع عند القسيسة تنتظر عود القسيس من بيت المقدس فلم يرجع فحسبت لابطائهِ الف حساب واشتغل بالها ولم ترَ خيرًا من ان تسير هي اليهِ بنفسها فاستشارت القسيسة في الامر فاستغربت قلقها وتسرعها في مشاهدة القسيس فقالت لها وهل تحتاجين الى القسيس في امر يدعو الى هذا القلق

فتأوهت الفتاة وسكتت كأنها تريد مكاشفتها بما في ضميرها لعلها تفرج كربتها

فقالت لها القسيسة قولي يا ابنتي ما الذي اوجب تنهدك عساي ان انفعك

قالت اني احتاج الى سيدي القسيس في سرٍّ عندهُ عن والدي لا يعرفهُ احد سواهُ

---

(١) مراصد الاطلاع ج ٢

وقد كانت والدتي فقط تعرفهُ و باحت بهِ للقسيس · واما الآن فلم يبق غيره عارفاً بهِ

فادركت القسيسة ان والدتها ماتت فلم تشأ ان تذكرها بها ولكنها احبت ان تعرف ما هو موضوع ذلك السر فقالت وهل يجوز ان اعرف ما هو ذلك السر

قالت اعترف لك يا سيدتي اني ربيت في دمشق في حجر والدتي ورجل كنت احسبهُ والدي فاخبرتني والدتي يوماً ان ذلك الرجل ليس والدي فسالتها عن والدي الحقيقي فوعدتني باطلاعي عليهِ في فرصة اخرى · وقصت اسماء قصتها على القسيسة من اولها الى آخرها مما يتعلق بحقيقة والدها

وكانت اسماء تتكلم والقسيسة تنظر اليها وتتأمل ملامحها فلما فرغت من كلامها تبسمت القسيسة وهشت لها وضمتها وقالت ألعلك ابنة مريم ....

قالت « نعم ياسيدتي » واستأنست بحنوّها

فقالت مسكينة والدتك

فقالت اسماء وهل تعرفينها

قالت اعرفها جيداً قبل ان تتزوج وكانت كثيراً ما تأتي الكنيسة للصلاة مع والديها وكنت انا يومئذ شابة وهي صبية وكنت احبُّها كثيراً فلا يمضي عيدٌ من اعيادنا الكبرى كالفصح والشعانين والميلاد وغيرها الاّ كنت انا والقسيس على مائدة جدّيك رحمهما الله · واذكر انهُ كان لوالدتك اخ جميل الصورة حاد الذهن كان يأتي مع امك ووالديها الى الصلاة · وظللنا على ذلك حتى جاءنا العرب منذ بضع وعشرين سنة ففتحوا هذه المدينة واستولوا عليها وفرقوا شملنا · وكانت والدتك قد اصبحت شابة وهي في مثل خالك جمالاً وذكاء ولم اعد أرى جديك ولكنني سمعت انهما قتلا · اما امُّك فبلغني انهم اخذوها سبية ولم اعد اراها الاَّ منذ عام و بعض العام اذ اتت الى القسيس واذكر اني رأيتها وهي داخلة فمكثت عنده برهة واما احسبني اعرفها ولما خرجت سألت القسيس عنها وان يكن سؤالي تطفلاً وقلت « اليست هذه مريم بنت قسطنطين (وهو اسم جدك) » قال بلى هي ولكنني رأيت على وجهه بعد خروج والدتك من عنده اثر الانقباض ورأيت الدمع في آماقهِ فانشغل خاطري ولم اسألهُ عن السبب مخافة ان يكون سؤالي من قبيل التطفل لعلمي ان القسيس مستودع اسرار كثيرين وقلت في نفسي لو كان خبر هذه المرأة مما يجوز ذكره

لما تأخر عن ذكره لي فسكت · اما هو فكأنهُ ادرك عظم قلقي لمعرفة خبر والدتك لما يعلمهُ من رابطة المودة بيننا فلما جلسنا على المائدة في المساء أخبرني عن كيفية سبيها وسبب غيابها عنا كل هذه المدة وفهمت من خلال كلامهِ ان الرجل الذي كان معها يومئذٍ ليس والدك وان والدك رجل آخر

فقالت اسماء بلهفة « الم تعرفي اسم والدي » · قالت كلاّ لاني لم اسألهُ عن ذلك فاستأنست اسماء بالقسيسة وازدادت ميلاً اليها فقالت لها بماذا تشيرين عليَّ الآن أأنتظر رجوع القسيس ام اسير الى القدس فاستطلعه السرّ

فصمتت القسيسة كأنها تفكر في امر ثم تغير لونها بغتة واغمض وجهها ونظرت الى اسماء والدمع يتلألأ في عينيها وقالت ارى ان تذهبي الى بيت المقدس لان القسيس اصبح شيخًا هرمًا · قالت ذلك وغصّت بكلامها

فادركت اسماء انها تخاف انقضاء اجلهِ عاجلاً فتجاهلت عما بدا من عواطفها وقالت ها اني ذاهبة والاتكال على الله · ونهضت للحال فودعت القسيسة وخرجت تلتمس الخان وفيهِ خادمها والجوادان فامرته بالاستعداد وفي صباح اليوم التالي ركبت وسارت قاصدة بيت المقدس

الفصل السادس والسبعون

﴿ القسيس مرقس وانطاكية ﴾

وكان القسيس مرقس كما تقدم يعرف جدّي اسماء واهلها قبل النزوح ولهُ انعطاف خصوصي لما فيها تسلم السرّ من مريم والدة اسماء شاركها في عواطفها وبلاياها وازداد انعطافًا لما وود لو استطاع ما يفرج به عنها · فلما جاءته المرة الاخيرة قبل سفرها الى المدينة واخبرته انها عازمة على كشف امرها لاصحاب الشأن هناك سرّ ولكنهُ رآها مريضة ضئيلة فتشاءم من منظرها وتوقع قرب انقضاء اجلها فاوصاها ان تبعث اليهِ بما يتمّ لها وهو انما يريد بذلك تحقق وصولها الى مأمنها حية · فلما مضى العام ولم يرد عليهِ خبر تعاظم قلقهُ عليها وكان كلما سمع اسم يثرب (المدينة) تجدد بلباله وود

لو يرى اسماء ليخبرها عن والدها ولكنهُ لا يعرف مقرها · فلبث وذلك شأنهُ حتى جاء الامويون بقميص عثمان واصابع نائلة وكان ما كان من كتائبهم وعويلهم وعلم ما حدث من الفتنة في المدينة فازداد اشتغال خاطره واثرت تلك الغوغاء في صحتهِ فاضطر مع ضعفهِ وعجزه ان يبرح دمشق الى مكان يسكن فيهِ ريثما تهدأ الاحوال · فخطر لهُ المسير الى بيت المقدس لان لهُ فيها اهلاً يرتاح الى مجاورتهم فركب اليها قبل وصول اسماء الى دمشق ومكث هناك مدة وهو لا يزداد الاضعفاً ولم يجدِ ترحب اهلهِ واحتفاؤهم بهِ نفعاً واحسَّ بقرب الأجل

فخطر لهُ الركوب الى انطاكية وهو الكرسي البطريركي الذي سيم فيهِ قسيساً فيرى البطريرك الانطاكي ويتزوَّد الاسرار المقدسة على يده قبل الوفاة واتفق ان مركباً امبراطوريًّا كان راسيًا في مياه عسقلان انفذه الامبراطور قونسطانس الثاني ليحمل البطريرك الاورشليمي الى انطاكية لمحادثة بطريركها في بعض الشؤون الدينية التي كان الخلاف قائمًا عليها في تلك الايام · وكان البطريرك الاورشليمي قد علم بعزم القسيس مرقس على انطاكية فدعاه ليسير اليها معهُ بحرًا لان الفصل صيف ولا خوف من الانواء والطريق في البر شاق لما يقتضيهِ من ركوب الدواب وقطع الجبال والاودية فسر القسيس بتلك الدعوة وسار في حاشية البطريرك على البغال والحمير الى عسقلان على ان يسيروا منها الى انطاكية في المركب الامبراطوري

واتفق وصول اسماء الى القدس بعد خروج القسيس منها ببضعة ايام ولما اخبروها انهُ قصد انطاكية استعاذت بالله مما اتفق لها من النحس في اسفارها الاخيرة وباتت ليلة وصولها في الخان حزينة لم ينشف دمعها طول ذلك الليل لفرط ما تولاَّها من القنوط فاصبحت شديدة الاعتقاد بنحس طالعها

على انها اصبحت في اليوم التالي وقد هدأ روعها فاستخدمت ارادتها وتعقلها وعادت الى رابطة جاشها فقالت في نفسها لأذهبن الى انطاكية على عجل قبل ان يخرج القسيس منها والاتكال على الله فركبت جوادها وسارت والخادم في رفقتها يقوم لها بما تحتاج اليهِ من الخدمة في السفر · وهي حيثما توجهت متنكرة بلباس الرجال مخافة ان يعلم مروان بها ولا يمنعها منهُ شيء الاَّ القتل وكان المسافر من القدس الى انطاكية يغلب ان يمر بدمشق اما هي فجعلت طريقها في لبنان · وبعد مسيرة ايام وليال

اشرفت على انطاكية

وكان وصولها اليها في الصباح قبل طلوع الشمس والشمس لا تشرق على انطاكية الاَّ متأخرة لاحتجابها بالجبل الشرقي . واشرفت اسماء على تلك المدينة العظيمة ام مدن الشام وكرسي بطاركتها بل هي ثالثة مدن تلك الايام (رومية والاسكندرية وانطاكية) [١] فاطلت عليها من مرتفع مشرف فاذا هي مستطيلة الشكل على ضفة نهر الاورنتس الجنوبية تحدق بها البساتين الغناء وفيها الاثمار والفاكهة من كل الانواع .
فاندهلت اسماء لعظمة تلك المدينة وما فيها من الابنية الشاهقة واكثرها من الكنائس فوقها القباب المزخرفة ناهيك عن الشوارع التي لا تكاد تشرق الشمس حتى تغص بالناس . ومما ذهلها بنوع خاص سورها العظيم وما عليهِ من الابراج التي يبلغ عددها ٣٦٠ برجا وله خمسة ابواب . وتتبعت ذلك السور الواسع بنظرها لعلها تحيط بسعة المدينة ورأت انها تحاول عبثًا لان السور يصعد مع الجبل الى اعلاه ثم ينزل من الجهة الاخرى بحيث يحيط بالمدينة ومزارعها جميعًا [٢] بما تزيد مساحته على تسعة عشر ميلا مربعًا

فبهتت اسماء لتلك المناظر الفخيمة وكان بحر الروم يتراءى لها عن بعد في الافق كأنهُ هلال مستطيل . وبعد ان وقفت هناك برهة تتأمل بعظمة هذه المدينة تحوَّلت الى باب من ابواب السور في الشرق انصلت منهُ الى الشارع الاعظم وهو يقطع المدينة في طولها من الشرق الى الغرب طولهُ اربعة اميال عليهِ من الجانبين اربعة صفوف من الاعمدة الرخامية تعلوها اقواس جميلة وفي الوسط طريق واسع مكشوف مرصف بالغرانيت . يحدهُ من الجانبين مقعد من الرخام المنقوش . والشارع كلهُ على استقامة واحدة تتفرَّع منهُ طرق صغرى الى كل من الجانبين فذهلت اسماء لما شاهدتهُ من العظمة والبذخ في انطاكية مما لم ترَ مثلهُ قبلاً . ومما زاد ذهولها واندهاشها انها رأت تيجان الاعمدة في ذلك الشارع الطويل محلاَّة بالذهب الخالص مما يندر مثالهُ في اعظم مدن الارض . على ان ذلك المنظر الجليل كان ممزوجًا بما يدعو الى الاسف الشديد لما توالى على هذه المدينة من الزلازل التي دكت معظم ابنيتها فشوَّهت وجهها وغيرت مجرى نهرها على ان العظمة مع ذلك ما زالت تتجلى فيها [٣]

(١) الانسيكلوبيذيا البريطانية (٢) مراصد الاطلاع (٣) الانسيكلوبيدية البريطانية

وما زالت اسماء سائرة تلتمس دار البطريرك لعلها ترى القسيس هناك فوصلت الى بناء شاهق يدخلون اليهِ من باب عظيم قائم على اعمدة من الرخام عتبتهُ العليا من الغرانيت الاحمر الجميل عليها نقوش باليونانية لم تستطع اسماء قراءتها · فاطلَّت من ذلك الباب الى فناء واسع مرصّف بالفسيفساء ينتهي الى سلم عريض يصعدون منهُ الى دار رحبة رأت فيها جماعة من القسوس والشمامسة وغيرهم يخطرون وكل اثنين او ثلاثة منهم في شاغل من الحديث · فقالت في نفسها أأدخل ... فاذا كان القسيس ليس هنا فما الذي يدخلني · ثم سألت بعض الوقوف عند الباب عن القسيس مرقس فقال انهُ لا يعرفهُ · فتذكرت انهُ قادم على مركب البطريرك الاورشليمي وانهما يصلان معًا · فسألت عن البطريرك فقالوا انهُ لم يصل ولا هم يعلمون زمن وصولهِ لان السفر في البحر انما هو تحت رحمة الرياح فاذا هبت في جهة مسير المركب اسرع وصولهُ واذا عاكستهُ تأخر اياماً واسابيع · وعلمت اسماء ذلك فقالت لا بد لي اذًا من التربص ريثما تصل السفينة · وامرت الخادم ان يسير بها الى خان تقيم فيهِ

الفصل السابع والسبعون

المسير الى صفّين

وقضت اسماء في الخان اياماً وهي على مثل الجمر تصعد احياناً الى الجبل تتطلّع منهُ الى البحر لعلها ترى مركبا قادماً · ولكن بعد البحر من انطاكية كان كثيرًا ما يحول دون رؤيتها شيئًا فاذا ملّت الاصطبار أرسلت خادمها الى البطريركية يسأل عن القادمين حتى لم يبق لها صبرٌ على البقاء هناك وايقنت سوء طالعها فقالت في نفسها لا يبعد ان تغرق السفينة بمن فيها تتميماً لشقائي

وكانت غرفتها تشرف على الشارع الاعظم فاستيقظت ذات يوم من فراشها على ضجيج الناس وغوغائهم وجلبتهم في الشارع فاطلت من النافذة فاذا هم جماعات من العرب بالعدة والسلاح سائرون على غير نظام بعضهم يحملون الاعلام وفيهم الفرسان والمشاة تتقدمهم بعض النساء بالدفوف بين مربع ومستدبر يضرب عليها وينشدن

الاشعار الحماسية يستحثثن بها الرجال وينهضن هممهم · فعلمت اسماء انهم من جند انطاكية ولكنها لم تفهم معنى جلبتهم فنادت الخادم فلم يجبها لانهُ كان قد انخرط في سلك المارة يحادثهم ويستفهم منهم عما هم فيهِ · وبعد قليل عاد مسرعًا وامارات البغتة بادية على وجههِ

فقالت وما وراءك · · مَن هم هؤلاء

قال هم جماعة من جند انطاكية سائرون لنجدة جند الشام في صفين

فقالت على من

قال على جند امير المؤمنين علي بن ابي طالب

فقالت بلهفة وهل هم في حرب هناك

قال نعم يا سيدتي انهم هناك منذ مدة طويلة لان بعض الذين خاطبتهم الآن يزعم انهُ كان في حملة سابقة وانهُ شهد معركة هائلة هناك انكسر فيها جيش الامام

ولم يتم كلامهُ حتى اقشعرَّ بدن اسماء وصعد الدم الى وجنتيها غيرة وحمية وقالت اين هي صفين

قال انها على بضع مراحل من هذا المكان شرقًا

فلبثت في حيرة بين ان تظلّ في انطاكية حتى يصل القسيس او ان تسير الى صفين وترى ما تمَّ لجند الامام فلبثت صامتة برهة فتركها الخادم وخرج · اما هي فقالت في نفسها ان انتظاري مركبًا قادمًا في هذا البحر قد يطول كثيرًا لان سفر البحر لا حدود لهُ وقد ينتهي انتظاري بالفشل إما بغرق المركب واما بموت القسيس قبل وصولهِ لتتم تعاستي · قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها اسفًا على حالها وغيظًا مما احدق بها من البلاء فبكت ثم عادت الى هواجسها فقالت واما الحرب في صفين فان عليها تتوقف سعادة المسلمين او شقاوتهم وما انا خير من احدهم ولا بدَّ لي من الاسراع الى هناك عساي ان استطيع خدمة او لعلي اقتل في ساحة الوغى فانجو من هذه المتاعب ثم نادت الخادم فلما حضر قالت اسرع الى دار البطريرك واسأَل عن القسيس مرقس فاذا قيل انهُ لم يأْتِ عد حالاً واسرج الجواد واعدد معدات السفر

فخرج الخادم وبعد قليل عاد ومعهُ بعض الزاد مما لا غنى عنهُ في الطريق

واخبرها ان السفينة لم تصل ولا يعلم احد زمن وصولها وها اني اعددت ما نحتاج اليهِ في الطريق

قالت نذهب اذًا الى انطاكية حتى اذا انقضت الحرب وظللنا في قيد الحياة نعود الى انطاكية والاَّ ... فعلى الدنيا السلام

ولم تمضِ ساعة حتى ركبت اسماء وركب خادمها في اثرها وخرجا من المدينة فالتقيا بالنجدة سائرة امامها ففكرت اسماء بماذا تستطيع خدمة الامام وهي يد واحدة لا تفيد في القتال فائدة تذكر فلاح لها ان تخدمهُ في استطلاع حال العدو وكشف عوراتهِ ومخبآتهِ ولا يتم لها ذلك الاَّ اذا اختلطت بجند الشام . وذلك لا يكون الاَّ اذا تنكرت وانخرطت في سلكهِ

وقصت مسافة الطريق وهي تفكر في الامر وكانت قد سبقت نجدة انطاكية فاطلت في صباح الخميس بعد بضعة ايام على سهل صفين من جبل عال فهالها ما شاهدتهُ في ذلك السهل من الخيام والاعلام والجند والخيل والجمال ولم يكن في ذلك الحين قتال . فرأت هناك معسكرين احدهما في الشرق والآخر في الغرب بينهما ساحة خالية فعلمت انهما معسكرا معاوية وعلي في هدنة وشاهدت الجمال سارحة في المراعي وراء الخيام ومعها العبيد ترعاها . وتأملت معسكر الشام لانهُ اقرب الى موقفها من ذاك فرأت في وسطهِ قبة كبيرة حولها الرجال والخيول فعلمت انها قبة معاوية امير تلك الحملة ...

وما كادت تتأمل في ذينك الجندين برهة حتى رأت فيهما حركة وقد تهيأوا جميعًا للقتال والتحم الجيشان وتطايرت النبال وصهلت الخيول وخفقت الاعلام وصاح الفرسان من الجانبين . فلم ترَ بدًّا من العمل فقالت لخادمها اعطني ثيابك وخذ ثيابي وابقَ انت هنا بالجوادين

الفصل الثامن والسبعون

وقعة صفين

فلبست اسماء ثياب خادمها حتى اشبهت بعض رجال حملة انطاكية وكانت

لم تصل بعد على انها وصلت بعد هنيهة فانخرطت اسماء في سلكها وسارت مع المشاة لا ينتبه لها احد حتى دخلت معسكر معاوية والحرب محتدمة وكلٌّ مشتغل بنفسهِ · وما زالت تخترق الجماهير وهي تتظاهر بالمقاتلة معهم حتى وصلت الى قبة معاوية فرأت حولها خمسة صفوف من الرجال قد عقلوا انفسهم بالعمائم (١) حول القبة للدفاع عن معاوية بحيث لايستطيع احدمنهم الفرار وحدهُ · فعلمت انهم مستهلكون في سبيل نصرتهِ او مستقتلون في الدفاع عنهُ · وتطلعت من خلال الصفوف فرأت معاوية والى جانبهِ عمرو بن العاص وكلاهما في وجل واعينهما تكاد تطير شعاعًا تطلعًا لما سيكون من عاقبة تلك الواقعة وهما يستحثان الرجال على الدفاع ويحرضانهم على الثبات والنبال تتطاير كأنها الجراد في السحاب · فاحتالت اسماء في الدخول الى قبة معاوية فرأت فارسًا جاء مسرعًا ودخل من شق بين تلك الصفوف فدخلت هي في اثرهِ ودخل غيرها ايضًا فلم ينتبه لها احد فسمعت معاوية يسأل الفارس عما بهِ فقال ان وطأة العدو شديدة ولكننا سنغلبهم باذن الله

ونظرت اسماء الى وجه عمرو بن العاص فاذا هو ممتقع وقد ظهرت البغتة عليهِ وكذلك معاوية ومن معهما من الامراء · ثم رأت عمرًا خرج مسرعًا فركب فرسهُ وسار يخترق الصفوف يستحث الرجال ويحرضهم واسماء واقفة في جملة الوقوف وقد سرت بما شاهدتهُ من شعور معاوية بقوة رجال علي · وبعد هنيهة عاد عمرو مسرعًا ودخل القبة واختلى بمعاوية فلم تعلم اسماء ما دار بينهما ثم عادا الى فرسيهما يشرفان عنهما على الواقعة واسماء تترقب حركاتهما

وفيما هي في ذلك سمعت صوتًا كالرعد القاصف رن في اذنيها رنينًا مطربًا لانهُ صوت الامام علي يقول

اقتلهم ولا ارى معـاوية ✽ الجاحظ العين العظيم الحاوية (٢)

فالتفتت فاذا هو عليٌّ على فرسهِ وقد تلطخت ثيابهُ وسالت الدماء من نصال حسامهِ · ولما دنا من قبة معاوية صاح فيهِ « الى ًّ يا معاوية علامَ يُقتل الناس بيننا هلمَّ احاكمك الى الله فأيُّنا قتل صاحبهُ استقام لهُ الامر » فسمعت اسماء عمرًا يقول لمعاوية همسًا « والله انصفك » فقال لهُ معاوية « ولكنك ما انصفت » · اما

(١) ابن خلدون ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٣

الامام عليّ فانهُ صرّ هنيهة فلما لم ينزل معاوية لمبارزتهِ عاد على فرسهِ يهب الارض نهباً وعينا اسماء تشيعانهِ وهي تدعو لهُ بالنصر

وانقضى النهار والحرب قائمة وخيم الظلام والناس لا يزالون يتقاتلون فاغتنمت اسماء ظلام الليل لاستطلاع نية معاوية فدنت من القبة حتى كانت بالقرب من معاوية ليس بينها وبينهُ الا الجدار وهو لا ينتبه لها . فسمعتهُ يخاطب عمراً وفي حديثهما ما يشف عن خوفهما من عاقبة تلك المعركة . ومما سمعتهُ قول معاوية « ارى اهل العراق قد ثبتوا امام اهل الشام »

فاجابهُ عمرو « انهم ثبتوا . نعم ولكن لا بد من الحيلة والا قتلنا وانقضى الامر علينا »

فقال معاوية « وما الحيلة يا ابا عبد الله »

قال « نتربص على ما نحن فيه الى الصباح فاذا تحققنا قتل جندنا عمدنا الى الحيلة وهي عندي هينة »

قال معاوية « وما هي »

قال « ساقولها غداً صباحاً وارجو ان لا نرى حاجة اليها »

فودت اسماء لو انهُ ذكر حيلتهُ لتسرع بخبرها الى علي ولكنهُ لم يقلها

الفصل التاسع والسبعون

رفع المصاحف

واصبحوا يوم الجمعة والحرب لا تزال متواصلة وقد تقهقر جند معاوية حتى وصل رجال علي الى الصفوف المحتولة حول القبة . فالتفت معاوية الى عمرو وقال « ما الحيلة يا عمرو »

قال « ارفعوا المصاحف على الرماح وقولوا كتاب الله بيننا وبينكم فان قبلوا بذلك جميعاً ارتفع القتال عنا . واذا قبل بعضهم دون البعض الآخر تفرقوا وانقسموا على انفسهم فيكون لنا بانقسامهم راحة »[1]

---

(1) ابن خلدون ج ۲

فلما سمعت اسماء ذلك خافت ان تلاقي تلك الحيلة على علي فهرولت مسرعة تخترق الصفوف وقلبها يرقص فرحا لانها استطاعت خدمة تنفع بها عليًا وهي على يقين من فشل جند معاوية وان عليًا اذا ظل على القتال فاز بالنصر المبين واذا صدق حيلة عمرو ضاعت الفرصة منهُ

اما عليٌّ فكان قد حارب بسالة عظيمة طول نهار الامس وليلهِ وقد تحقق فوز جندهِ وما انفك يطوف في صفوفهم يحثهم على الثبات ويدعو لهم بالنصر حتى عاد في الصباح الى فسطاطهِ لعرض لهُ وفيما هو هناك جاءهُ مخبر ان اهل الشام رفعوا المصاحف على الرماح وهم يقولون « هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد اهلهِ . ومن ثغور العراق بعد اهلهِ » . فلما سمع عليٌّ كلامهم قال « لا لا نجيبهم الى ذلك لانها حيلة منهم »

فجاءهُ نفر من رجالهِ وقالوا « يجب علينا ان نجيب الى كتاب الله »

فوقف عليٌّ وقد خاف الفتنة وقال :

« عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم فان معاوية وعمرًا وابن ابي معيط وحبيبًا وابن ابي سرح والضحاك ليسوا باصحاب دين ولا قرآن انا اعرف بهم منكم قد صحبتهم اطفالاً ثم رجالاً فكانوا شر اطفال وشر رجال ويحكم والله ما رفعوها الاَّ خديعة ووهنًا ومكيدة »

فقالوا لهُ « لا يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فنأبى ان نقبلهُ »

فقال لهم علي « فاني انما اقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب فانهم قد عصوا الله فيما امرهم ونسوا عهدهُ ونبذوا كتابهُ »

فقال لهُ مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي في عصابة من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك « يا علي اجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت اليهِ والاَّ دفعناك برمتك الى القوم او نفعل بك ما فعلنا بابن عفان »

قال « فاحفظوا عني نهيي اياكم واحفظوا مقالتكم لي فان تطيعوني فقاتلوا وان تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم » [1]

قال ذلك وقد أخذ الغضب منهُ مأخذًا عظيماً . وفيما هو في هذا الجدال انشق

(١) ابن الاثير ج ٣

الجمع وخرج من وسطهم شخص شاب الرجال ولكنة اسماء فانها وصلت وسمعت الناس يحاجون علياً فهرولت حتى وقفت بينهم و بين علي وقد ثارت الحمية في رأسها وعلا وجهها احمرار التعب من شدة الجري فضلاً عما قام في نفسها من الاسف لتلك الحال . فكشفت عن وجهها وسلمت على الامام بتحية الخلافة والتفتت الى الوقوف هناك وقالت لهم « اعلموا اني قادمة من معسكر معاوية وقد سمعت حديثهم عن هذه الحيلة بأذني وانما جئت مسرعة مخافة ان تنطلي الحيلة عليكم وتكفوا عن القتال . انها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلقي الشقاق بينكم . واخشى ان تنفذ حيلته فيكم فاطيعوا امير المؤمنين وانتم الغانمون »

فضحكوا من كلامها وقالوا « كيف ندعى الى كتاب الله ولا نجيب . هذا لا يمكن ابدًا »

ثم وجهوا كلامهم الى علي وقالوا « ابعث الى الاشتر فليأتك » وكان الاشتر النخعي من اشجع قواد تلك الحملة وقد ابلى في تلك الحرب بلاء حسنًا وكان لا يزال يحارب وهم انما طلبوا استقدامه ليكف عن الحرب . فبعث عليٌّ اليه فلم يأت لانه رأى الفوز بين يديه واذا تحوّل عن موقفه فسدت اعماله

فلما ابطأ قال اولئك الناس لعلي « نظنك امرته بالحرب فابعث اليه والاَّ والله اعتزلناك » فبعث اليه علي ثانية فجاء وهو يقول « اظنكم تدعونني الى الكف عن القتال بعد رفع المصاحف »

ثم اقبل عليهم وهو يقول .

« يا اهل العراق يا اهل الذل والوهن أحين علوتم القوم وظنوا انكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا ما امر الله به فيها وسنة من انزلت عليه فامهلوني فواقا فاني قد احسست بالفتح »

قالوا « لا »

قال « امهلوني عدو الفرس فاني قد طمعت بالنصر »

قالوا « اذن ندخل معك في خطيئتك »

قال « فخبروني عنكم متى كنتم محقين أحين تقاتلون وخياركم يقتلون فانتم الآن اذا امسكتم عن القتال مبطلون ام انتم الآن محقون فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم

وهم خير منكم في النار »

قالوا « دعنا منك يا اشتر قد قاتلناهم لله وندع قتالهم لله »

قال « خدعتم وانخدعتم ودعيتم الى وضع الحرب فاجبتم يا اصحاب الجباه السود كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً الى لقاء الله فلا ارى مرادكم الاّ الدنيا الا فقبحاً يا اشباه النيب الجلالة ما انتم برائين بعدها عزّاً ابداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون »

فسبوه وسبهم وضربوا وجه دابتهِ بسياطهم وضرب وجوه دوابهم بسوطهِ . فصاح بهِ وبهم علي فكفوا وقال الناس قد قبلنا ان نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً

وطال الاخذ والرد بينهم واسماء واقفة وقلبها يكاد يتقد غيظاً من عناد اولئك الخالدين فلما سمعت الاقرار على اجابة الدعوة تناثرت الدموع من عينيها بالرغم عنها والتفتت الى علي فاذا هو مطرق وقد أخذ الغضب منهُ مأخذاً عظيماً كأنهُ يرى عاقبة ذلك بعينيهِ فتعاظم غيظها وارادت توبيخ اولئك وتقريعهم فخافت ان يعد ذلك وقاحة بعد ان وقع الاقرار فتنحت جانباً ولبثت تنتظر ما يكون

الفصل الثمانون

أمر الحكمين وعقد التحكيم

فتقدم رجل من خاصة علي فقال ارى الناس قد قبلوا ما دعوا اليهِ من حكم القرآن فهل تأذن ان نسمع ما يدعونا معاوية اليهِ من هذا الامر

قال عليٌّ سر اليهِ واسأله عن ذلك

فذهب وعاد وهو يقول سألت معاوية عما حملهُ على رفع المصاحف فقال « الرجوع الى ما امر به الله في كتابهِ فابعثوا رجلاً ترضون بهِ ونبعث نحن رجلاً نرضى بهِ نأخذ عليهما ان يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليهِ »

فقال علي قبلنا بذلك فأي رجل اختاروا هم

قال اختاروا ان ينوب عنهم عمرو بن العاص

فالتفت عليٌّ الى من حوله وقال « ومن تختارون انتم »

قالوا « نختار ابا موسى الاشعري »

فلما سمع عليٌّ كلامهم اجفل وقال « لا لا .. انكم لم تصيبوا . وقد عصيتموني في اول الامر فلا تعصوني الآن . لا ارى ابا موسى كفوءًا لابن العاص وهو مع ذلك ليس بثقة فقد فارقني وخذل الناس عني ثم هرب مني حتى امّنته بعد اشهر . فكيف نركن اليهِ في مثل هذا التحكيم . هذا ابن عباس اوليهِ ذلك »

فصاحوا بصوت واحد « والله لا نبالي انت كنت ام ابن عباس لا نريد الا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء »

قال عليٌّ « فاني اجعل الاشتر »

قالوا « وهل سعر الارض غير الاشتر »

قال « قد ابيتم الاّ ابا موسى » (١)

قالوا نعم

قال افعلوا ما اردتم

وكانت اسماء تسمع ذلك الجدال وهي تكاد تتميز غيظًا ولكنها لم تكن تجسر على الكلام تهيبًا من علي

وبعد قليل جاء ابو موسى الاشعري وعمرو فدخلا على عليٍّ ليكتبا القضية محصورة وهي صورة عقد التحكيم فبدأوا بكتابة « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليهِ امير المؤمنين .. » فاعترض عمرو قائلاً « هو اميركم وليس اميرنا » وطال الجدال في ذلك حتى وقع نفور شديد بين علي وعمرو وانتهى الامر ان يكتب العقد على هذه الصورة

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليهِ علي بن ابي طالب ومعاوية ابن ابي سفيان قاضي علي على اهل الكوفة ومن معهم وقاضي معاوية على اهل الشام ومن معهم . اننا ننزل عند حكم الله وكتابهِ وان لا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله بيننا من فاتحتهِ الى خاتمتهِ نحيي ما احيا ونميت ما امات . فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما ابو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا بهِ . وما لم يجداه في

(١) ابن الاثير ج ٣

كتاب الله فالسنّة العادلة الجامعة غير المفرقة · واخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق انهما آمنان على نسيهما واهليهما والأمة لهما انصار على الذي يتقاضيان عليهِ · وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقهُ ان يحكما بين هذه الامة لا يردانها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا · واجل القضاء الى رمضان وان احبّا ان يؤخرا ذلك اخراهُ وان مكان قضيتهما مكان عدل بين اهل الكوفة واهل الشام » [1] (ويلي ذلك اسماء الشهود)

وقد كتب ذلك العقد في ١٢ صفر سنة ٣٧ هـ

ولما تمت الكتابة تلي العقد على الناس وانفض المجلس وجاءت الجنود الى المدينة ريثما يحل الاجل المضروب لمجلس التحكيم

وتراجع الناس عن صفين وهمّ علي بالنزوع الى الكوفة فجاءتهُ اسماء في ساعة كان فيها مختليًا وقبلت يده فسألها عن حالها وما تمّ لها بعد سفرها فقصّت عليهِ خبرها وما الذي حملها على القدوم قبل مقابلة القسيس فاثنى على غيرتها ودعاها الى الذهاب معهم الى الكوفة

فقالت يا حبذا ذلك ولكنني اقرب الآن الى انطاكية فأذن لي بالذهاب اليها فقد آن لي ان اعرف حقيقة نسبي · فاطرق عليّ برهة يتأمل فخافت اسماء ان يكون في شاغل آخر فودعتهُ وخرجت على ان تعود يوم التحكيم لتسمع حكم الحكمين

وكان المسلمون كافة في انتظار ذلك اليوم لانهُ سيكون يومًا عظيماً ولم تنتقد محمدًا لعلمها انهُ كان يومئذٍ في مصر يتولى امورها

الفصل الحادي والثمانون

قطعت جهيزة قول كل خطيب

عادت اسماء الى الجبل حيث تركت جوادها وخادمها وبدلت ثيابها وركبت الى انطاكية لاتقيم ليلاً ولا نهارًا كأن قلبها حدثها بما ستلاقيهِ من الفشل هناك واشرفت على انطاكية من جبلها الشرقي واطلت على البحر فلمحت شيئًا كأنهُ مركب

(١) ابن خلدون ج ٣

ولكن البعد حجبهُ عنها فخفق قلبها سروراً فنزلت من الجمل حتى اذا دنت من المدينة سمعت دقّ الاجراس دقاً بطيئاً متقطعاً فقالت في نفسها لعلّهم يحتفلون بقدوم البطريرك ولكنها لم تكد تدخل الشارع الاعظم حتى رأت الناس يحتشدون فيهِ يتقدمهم سرب من الاكليروس بالمباخر فعرفت انهُ احتفال بجنازة

ولا تسل عن حالها لما علمت انها جنازة القسيس مرقس وقد مات بعد وصولهِ انطاكية بيومين فانها لطمت وجهها وندبت سوء حظها ولكنها تحولت حالاً الى الخان واغلقت باب غرفتها واطلقت لنفسها عنان البكاء وجعلت تعدّد ما اصابها من الاحن منذ ولادتها وكم قاست من المصاعب والمشاكل والاخطار حتى اذا دنا وقت سعادتها وآن لها ان تعرف والدها وهي ترجو ان تكون معرفتهُ سبباً في زيادة سعادتها داهمها القدر بذلك الفشل

وتذكرت مروان وما قاست من البلاء بسببهِ وتذكرت اسرها في الصحراء بين مكة والبصرة وما قاستهُ على اثر ذلك من الجرح وغيرهِ . وغرقت في بحار الهواجس وتحققت تعاستها وودت ان تموت فتخلص من العذاب . ولما تمنّت الموت اجفلت وندمت لانها تصورت محمداً وحبهُ لها وما ترجوهُ من السعادة معهُ فقالت « لا . . لا اموت بل احيا لاجل حبيبي واقصى مرادي وهو تعزيتي الوحيدة في هذا العالم فاذا خسرت الدنيا كلها وفاتتني كل نعمها وحصلت على محمد فذلك يكفيني »

ثم تذكرت ما قالهُ الامام علي للحسن يوم سألها ان يخطبها لهُ فانهُ جعل غموض نسبها مانعاً من زواجهِ بها فقالت في نفسها ان لي في وسط هذه التعاسة رجاء وبشرى ان غموض نسبي يدنيني من محمد ويبعدني عن سواه وهذا هو مرادي . . . ان الحسن لا يلتمس الزواج بي بعد . . ولكن ربما كان ذلك عينهُ سبباً في اقصاء محمد ايضاً . ولما تصورت ذلك اقشعرّ بدنها واظلمت الدنيا في عينيها ولكنها عادت بغتة الى فكر انعشها فقالت « واذا كان غموض نسبي يمنع محمداً من زواجي فهل يمنعهُ من ان يكون اخي فنعيش معاً بقية حياتنا لا نفترق ابداً . . . نعم اني اتخذهُ اخاً رفيقاً اتمتع بمشاهدتهِ وحديثهِ »

وظلت اسماء في انطاكية بضعة ايام ريثما استراحت من السفر وقد انقطع حبل رجائها من قبيل اصلها واقتنعت ان تعيش مع محمد عيشة الاخت مع اخيها اذا رأى هو ما يمنع

الزواج او اشار عليهِ عليٌّ بذلك . ولكنها تذكرت الحكمين وما يخوفهُ الناس من حكمها فقالت اسمع حكم الحكمين ثم التمس مصر فألقى محمداً فيها

وبعثت خادمها يستطلع مكان التحكيم وزمانهِ فأنبأها انهُ سيكون في اذرح من اطراف الشام من اعمال السراة نواحي البلقاء وعمان (١) في زمن معلوم . فلما دنا الاجل تنكرت وسارت تلتمس اذرح والخادم معها

الفصل الثاني والثمانون

﴿ حكم الحكمين وحيلة عمرو ﴾

ولما جاء الاجل المعين لتلاوة حكم الحكمين بعث عليٌّ ابا موسى الاشعري في اربعماية رجل ومعهم عبدالله بن عباس . وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعماية من اهل الشام والتقوا باذرح . وكان عمرو بن العاص قد استخدم كل دهائهِ في اقناع ابي موسى ان يوافقهُ على خلع علي وتولية معاوية لانهُ المطالب بدم عثمان فلم يفلح فذكرا تولية احد ابناء الصحابة كعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير . وبعد جدال عنيف اتفقا على خلع علي ومعاوية وان يختار المسلمون واحدًا غيرهما بالشورى . وكان من دهاء عمر انهُ ما زال يدافع ابا موسى في الكلام حتى طلب هذا خلع الاثنين فاصبح هو البادىء في الكلام عند اصدار الحكم

فلما جاء اليوم المعين واجتمع الناس من الاقطار وصلت اسماء ايضًا في ذلك اليوم فوقفت بين الناس بحيث لا يعرفها احد فرأت ابا موسى وعمرًا في مجلس على دكة وبقية الناس في جانب آخر وكأن على رؤوسهم الطير ينتظرون ما يكون من الحكم

فوقف اولاً ابو موسى فأصغى الناس لمقالهِ فقال بصوت عالٍ بحيث يسمعهُ الحاضرون كافة « ايها الناس انَّا قد نظرنا في امر هذه الامة فلم نرَ اصلح لامرها ولا ألمَّ لشعثها من امر قد اجمع رأيي ورأي عمرو عليهِ وهو ان نخلع عليًا ومعاوية

(١) مراصد الاطلاع ج ١

ويولي الناس امرهم من احبوا . واني قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموهُ اهلاً » قال ذلك وتنحى

وكان لقوله وقع عظيم ولبث الناس ينتظرون قول عمرو فاذا هو وقف وقال « ان هذا قد قال ما سمعتموهُ وخلع صاحبهُ (علياً) وانا اخلع صاحبهُ كما خلعهُ واثبت صاحبي معاوية فانهُ وليُّ ابن عفان والطالب بدمهِ واحق الناس بمقامهِ »

فلما سمع اصحاب علي قولهُ علموا انهُ غدرٌ من عمرو وتغفل من ابي موسى وايقنوا بالفشل وبحوا ابا موسى واسوهُ فقال ما العمل وقد غدر بي

اما اسماء فلما سمعت القولين علمت ان معاوية قد اشتد ساعدهُ وان رجال عليٍّ لا بد ان ينقسموا بين من يقبل الحكم ومن لا يقبلهُ فلم تعد تستطيع صبرًا على البقاء هناك فخرجت من بين الجمع لا تلوي على شيء وقد صغرت نفسها . وما زالت سائرة والخادم معها حتى اتت شجرة منفردة في الصحراء فاستظلت بها وشغلت الخادم بتدبير الجوادين وخلت بنفسها فجعلت تفكر في حالها وما اتفق لها من الفشل المتوالي من كل الوجوه وخصوصاً موت القسيس وضياع اسم والدها وفشل رجال علي وخروج الخلافة من يده بحكم الحكمين . فغلب عليها اليأس فلم ترَ لها فرجًا الاَّ بالبكاء والنحيب فنظرت الى ما حولها فاذا هي منفردة وليس من يسمع بكاءها فاطلقت لنفسها العنان حتى كاد يغمى عليها وما زالت تشهق وتزداد شهيقًا كلما ذكرت عليًا او والدتها او محمدًا . حتى تعبت وجف دمعها فألقت رأسها على حجر ونامت ولكنها لم تستغرق في النوم فتراأى لها طيف محمد فأفاقت مذعورة وهي تقول « اهلاً بحبيبي لا تعزية لي الآن . . . انهُ في مصر الآن . . . هل من يعلمهُ بما حلَّ بامر الخلافة ان عمرًا قد كاد فيها كيدًا عظيماً . . . . آه يا محمد هل من حيلة تخدم بها علياً رجل هذه الامة . . . لا اظن الامر بعد الآن الاَّ صائرًا الى معاوية

« اما انا المسكينة اليتيمة المجهولة النسب والتعيسة الحظ فربما كنت انا وحدي سبب هذا البلاء وربما كانت تعاستي هي التي جرت كل هذه المصائب لكي اموت مقهورة . . . . » وسكتت هنيهة . ثم انتبهت بغتة وهي تقول « محمد محمد . . انت تعزيتي في احزاني ومصائبي هلم بي اليك فأعيش بقربك فانك لديَّ افضل من الوالد والوالدة والاخ والاخت . انت ملجاءي وملاذي . ولكن عليًا سيدي وفخري بل اذهب اليهِ واموت في الدفاع عن امرهِ . ولكن . . . . »

الفصل الثالث والثمانون

﴿ الخوارج في الكوفة ﴾

وفيما هي تخاطب نفسها لمحت الخادم عائدًا بالجوادين وهو يسرع نحوها فقالت ما وراءك

قال التقيت والما اسرج الجوادين بشرذمة من رجال الشام ركبوا مسرعين وفيهم عمرو بن العاص وكلهم فرحون بما نالوهُ وسمعت عمرًا يقول لقد استقام لنا الامر ولم يبق عليَّ الاَّ ان افتح مصر فاذا دانت لي عدتُ الى ولايتها ثم لا يبقى في يد علي الا العراق والحجاز فنجرد عليهما ونفتحهما

فلما سمعت ذكر مصر وفتحها اقشعرَّ بدنها وتذكرت محمدًا فيها فقالت في نفسها هل اذهب الى مصر الآن وارى ما يؤول اليهِ امرها . ثم التفتت الى الخادم وقالت وما ظنك في مسيرهم الى مصر

قال لا ادري متى يسيرون ولكن لا بد لهم من الشخوص الى الشام اولاً وتدبير امورهم ثم يحملون على مصر

فلبثت مدة تتردد بين ان تسير الى مصر لترى محمدًا او الى الكوفة لترى عليًا وما آل اليهِ امر الخلافة عنده . فلما رأت امر الحملة على مصر بطيئًا عوَّلت على قصد الكوفة سريعًا ثم تعود الى مصر بعد ان تخابر عليًا بنجدة محمد . ولكنها رأت ان تكتب الى محمد تخبره بعزمها وتنبئه باحوالها استعدادًا للقاء فكتبت اليهِ ما نصهُ :

« من اسماء المحبة التعيسة الى حبيبها محمد بن ابي بكر

« اذا لم يكن بلغك ما اصابني بعد سفرك الى مكة اخبرك اني يممت الشام ابحث عن اسم والدي فرأيت حامل السر سافر الى بيت المقدس فلبثت هناك مدة قاسيت فيها من الخطر والعذاب الوانًا سأقصها عليك متى اجتمعنا ان شاء الله ثم فررت الى بيت المقدس اسأل عن القسيس حامل السر فقالوا انه سار الى انطاكية فقصدتها فأبطأ حضوره . وعلمت في اثناء ذلك بحملة اهل الشام على مولانا امير المؤمنين في صفين فحضرت المعركة وشهدت ما نصبهُ عمرو بن العاص من الحيل برفع المصاحف ثم

ما كان من امر التحكيم مما اظنهُ يبلغك ممن امنذتهُ لهذه الغاية ولكنني متى التقيت بك اقصهُ عليك منصلاً

واما الآن فاكتب هذا اليك والقلب لولا الامل بلقياك ذاب وطار شعاعًا · فقد اصبحت يتيمة حزينة مجهولة النسب لان ذلك القديس الشيخ قضى نحبهُ واما في صفين · ولا تسل عن حالي لما رجعت الى انطاكية ورأيت الناس يحتفلون بجنازه فلطمت وبكيت وانتحبت ولولا الامل بقربك لتضيت على نفسي بالقتل · وكيف يلذُّ طعام او منام لفتاة احدقت بها التعاسة وتوالتها النحوس من كل جانب لم تشرع في امرٍ الاَّ فشلت · فأَصبحتُ يا محمد يتيمة غريبة متروكة لا اعرف من هو والدي بعد ان رجوت بان يكون احد كبار الصحابة · فضلاً عما اتاني من البلاء بسبب ذلك الرجل الاموي ولا اسميهِ لان اسمهُ يؤلمني

« واعلم ان كل ما قاسيتهُ من الشقاء امحى من ذاكرتي بمجرد الامل بلقيا حبيبي ومنتهى املي محمد · · · آه ما الذ ذكر هذا الاسم بفمي

« وكنت قد عولت على القدوم اليك على اثر حكم الحكمين اليوم لولم اكن في شاغل على حال الخلافة وعلى مولاي وفخري بل فخر المسلمين كافة اعني بهِ الامام علي امير المؤمنين · فها اني شاخصة الى الكوفة لعلي استطيع خدمتهُ ثم آتي اليك · ويكفيني من قربك ان اراك واسمع حديثك · وارجو ان يكون لي نصيب في جندك فاذا حمل عمرو بن العاص على مصر كما سمعت لا يلقى فيها مقوقسًا يسلمها اليهِ فنحارب سوية فاما نعيش معًا واما نموت معًا والسلام »

ولفَّت الكتاب وجعلتهُ في انبوب من القصب ودفعتهُ الى الخادم واوصتهُ ان يوصلهُ الى محمد بن ابي بكر في مصر ويبقى هناك حتى تأْتي هي لانها ستلحق بهِ حالاً · فمضى الرسول وبقيت هي وحدها وبعد قليل ركبت الى اذرح واستأجرت دليلاً سار في ركابها الى الكوفة وهي مع ذلك ميالة الى مصر لان قلبها هناك وخصوصًا بعد ان سمعت بعزم عمرو على فتحها فوصلت الكوفة بعد ايام فلم ترَ عليًا فسأَلت عنهُ فقيل لها انهُ خرج لحرب الخوارج في النهروان

فقالت ومن هم الخوارج

قالوا هم الذين نقموا على عليٍّ لانهُ رضي بالتحكيم

فقالت اعوذ بالله من هؤلاء القوم ايحملون امير المؤمنين على قبول التحكيم ثم

ينقمون عليهِ لانهُ قبل بهِ

وفكرت في الامر ومصيره وشاورت نفسها في الذهاب لنصرة عليّ او الخروج الى مصر لمشاهدة محمد . وقضت في ذلك اياماً وفيما هي تفكر فيهِ ذات يوم رأت في الكوفة هرجاً واضطراباً فقالت ما ذلك . قالوا ان الامر استقام في الشام لمعاوية حتى انفذ الى مصر من يفتحها انفذ عمراً فاتحها الاول . فأرسل عاملها بذلك الى الامام يستنجدهُ

فلم يبق عندها شك في المسير الى مصر فأسرعت الى جوادها وركبت وقد يئست مما اصابها من الفشل وتولاها من الحصر وسارت وهي تعلل نفسها بلقيا محمد حيث لا رقيب ولا مناظر . وكانت قد ملّت الاسفار والاخطار على غير جدوى فعوّلت في باطن سرها ان تقيم في مصر لا تلتفت الى شيء . وهي لا تدري وا أسفاه عليها بما ينتظرها هناك مما لم يخطر لها ببال ولا يستطيع الصبر عليهِ انس ولا جان

الفصل الرابع والثمانون

فتح مصر

قد تقدم ما كان من اجتماع دعاة عثمان في مصر وعزل قيس بن سعد عنها بما دبرهُ معاوية من الحيلة حتى افسد ما بينهُ وبين علي . وما كان من تولية محمد بن ابي بكر . فلما تولاها محمد بعث رجلاً من خاصتهِ لحرب اهل خربتا القائمين بدعوة عثمان فقتلوهُ وتعاظم امرهم وفسدت مصر كلها على محمد . فبلغ ذلك عليًّا فقال ما لمصر الاَّ احد الرجلين يعني قيساً او الاشتر وكان قد عزل قيساً فلم يرجع اليهِ فبعث الى الاشتر وكان قد عاد بعد صفين الى عملهِ في الجزيرة . فلما حضر اخبرهُ خبر مصر وقال ليس لها غيرك فاخرج اليها فاني لو لم اوصك اكتفيت برأيك . فخرج الاشتر وشخص الى مصر . واتت معاوية عيونهُ بذلك فعظم عليهِ وكان قد طمع بمصر لكثرة خيراتها ليستعين بها على اعدائهِ وحروبهِ . فعلم ان الاشتر ان قدمها كان اشد عليهِ من محمد بن ابي بكر

وكان على حدود مصر يومئذ بلد اسمهُ القلزم بالقرب من مكان السويس يغلب للقادم من الشام الى مصر ان يمرَّ فيهِ وكان القلزم في حوزة معاوية

فبعث معاوية الى صاحب خرجه في القلزم يخبره بمسير الاشتر الى مصر وقال له « فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجًا ما بقيت و بقيت »

فلما مرّ الاشتر بالقلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فاتاه بطعام فلما اكل اتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سماً فسقاه فمات فظلت مصر بامرة محمد بن ابي بكر . فازداد طمع معاوية فيها وهو يرجو منها خيرًا فاستشار عمرًا فقال عليّ بها اني فاتحها الاول ومن أولى بها مني . وجرّد جيشًا كبيرًا وسار قاصدًا مصر فلما علم محمد بمجانته بعث الى الامام عليّ يستنجده وعلمت اسماء بذلك فقدمت كما مرّ

وكان محمد لم ينظر اسماء منذ افترقا في البصرة يوم خرج مع اخته ام المؤمنين الى مكة . وكان قد علم بما دار بينها و بين الامام علي على اثر وقعة الجمل بشأن خطبتها للحسن . اخبره بذلك الحسن نفسه وهو لايدري انه مناظره عليها . فاخبره كيف ان والده جعل غموض نسبها مانعًا من زواجه بها فسره ذلك وهو على يقين من بقاء اسماء على عهده . واخبره الحسن ايضًا انها سارت الى بيت المقدس لاستطلاع اسم والدها . ونظرًا لانشغاله بامارة مصر وما احاط بها من المشاكل وما قام فيها من الثورات المتوالية التي اضرم نارها دعاة عثمان في خربتا وغيرها لم يتمكن من مكاتبتها ولكنه كان يسأل عنها ويتجسس اخبارها . فكان تارة يعرف مقرّها وطورًا لايعرفه . وآخر ما علمه انها كانت في مجلس الامام عليّ يوم خالفه الصحابة في قبول التحكيم وسمع ما اظهرته هناك من الحمية والغيرة فتذكر حديثها وتصورها امامه تشير بيديها وتتكلم وتتهدد فارتاح لتلك الذكرى واشتاقت نفسه للقياها

على انه تذكر ما رآه الامام عليّ في غموض نسبها حتى جعله مانعًا من الاقتران بها فقال في نفسه « اذا عرفتُ والدها كان امرها مشكلاً لان الحسن لا يتخلى عنها واذا ارادها الحسن وطلبها والده فكيف اطلبها انا » فلما تخيل ذلك عظم عليه الامر حتى ودّ ان لا تعرف والدها فتكون اقرب اليه ولو بدون اقتران . وسوّلت له الغيرة ان لا يأخذها احد منهما خير من ان يأخذها الواحد دون الآخر

وما زال يردد هذه التصورات في ذهنه حتى جاءهُ كتاب اسماء الاخير من اذرح وعلم بموت القسيس وضياع السر وما تشير اليه اسماء في كتابها من رغبتها في

المعيشة معهُ كاخت او صديقة فحقق صدق مودتها و بقاءها على العهد فانبسطت نفسهُ ولبث ينتظر عودتها وهو يكرر تلاوة الكتاب وقد استأنس بولائهِ هاج اشجانهُ بعد ان طال زمن الفراق وكان كلما تلا الكتاب تصوّر اسماء واقفة بين يديهِ تخاطبهُ ويخاطبها

ولكن استئناسهُ بتذكرها لم يطل لانشغالهِ بهام الحرب . فبينما هو ذات يوم في الفسطاط عاصمة الديار المصرية في ذلك الحين جاءهُ عيونهُ بخبر اهل الشام وانهم حاملون عليهِ بقيادة عمرو بن العاص

وكان عمرو قد كاتب محمدًا يطلب اليهِ التسليم فارسل محمد الكتاب الى علي يستنجدهُ فكتب اليهِ عليٌّ ان يجمع شيعتهُ و يندبهم للقتال ووعدهُ بانفاذ الجيوش . فأخذ محمد في التأهب بمن عندهُ من الرجال فجهز كنانة بن بشر في الفين وسار هو في اثرهِ بالفين

اما عمرو فانهُ دخل مصر من الشرقية وجعل يسرح الكتائب كتيبة بعد كتيبة وكنانة يلقى كتائبهُ و يفرّقها حتى كاد الفشل يحبط بجنود الشام لو لم تأتهم نجدة قوية بقيادة معاوية بن حديج فاشتد أزرهم

اما جند مصر فلم تأتهم نجدةٌ لتقاعد اهل العراق عما دعاهم اليهِ عليٌّ ولكنهم حاربوا حربًا شديدة دافعوا فيها دفاع الابطال ونزل كنانة عن فرسهِ وما زال يقاتل حتى قتل (١)

الفصل الخامس والثمانون

محل الواقعة

وسارت اسماء من الكوفة وهي كلما تقدمت نحو مصر ازدادت هواجسها على محمد . وكانت قادمة وحدها على جوادها فاضطرها ذلك الى المسير بجوار المدن استئناسًا بالناس ومخافة العطش في الصحراء والجواد لا يصبر على العطش فسارت على

(١) ابن الاثير ج ٣

ضفاف الفرات ثم تحوّلت الى الشام حتى وصلت دمشق فسمعت هناك بسير حملة عمرو فأخذت تبحث عن الغالب فعلمت ان عمرًا بعث يستنجد معاوية وان جيش مصر غالب · فسرّت ولم تلبث في دمشق الاّ ريثما استراحت وركبت تلتمس مصر · ولما دنت من العريش وقيل لها انها على حدود مصر تذكرت ما قالهُ رئيس دير البصرة عن والدتها وانها ولدتها في مصر وانها عرفت يزيدًا هناك · فهاجت احزانها ولكن افتكارها بمحمد شغلها عن كل ذلك

ولما دخلت مصر مرّت اولاً بالفرما وهي مدينة كانت في ما يجاور بور سعيد الآن · وما صدقت انها وصلت هناك حتى اخذت تبحث من حال الحرب بين محمد وعمرو فاخبروها ان عمرًا جاءتهُ النجدة بعد ان كاد ينشل فتشدد ولحظت من خلال حديث القوم انهم على دعوة عمرو وانهم ميالون الى معاوية فانقبضت نفسها وخرجت من الفرما لاتلوي على شيء وبحثت عن مكان القتال فقالوا انهُ في ضواحي الفسطاط فجدت في السير · وهي في كل سفرها لا تنام من الليل الاّ قليلاً حتى وصلت بلبيس فرأت اهلها في هرج ورأت جماعة من الناس يدخلونها وفيهم من ربط يده او شد زندهُ او عصب راسهُ فعلمت انهم عائدون من قتال · فاضطربت حواسها واستفهمت منهم عما كان فقالوا ان جنود الشام تكاثروا بما انضمّ اليهم من اهل مصر ممن هم على دعوة عثمان وقد بايعوا معاوية وهو بعيد · وان كنانة بن بشر قتل وتشتت جند مصر · فسألت عن محمد فلم ينبئها بخبرهِ مخبرٌ فاختلج قلبها في صدرها فقالت ومتى كان ذلك · قالوا كانت الواقعة اول امس وان عمرًا دخل الفسطاط

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فلم تستطع صبرًا فركبت وخرجت تلتمس مكان الواقعة وهي سائرة وعيناها شائعة الى الامام لاتبالي بما يتهددها من الخطر

وسدل الليل نقابهُ فلم تعد تستطيع التطلع الى بعيد وخافت ان تتيه عن الطريق فلبثت تفكر في الامر وهي سائرة الهوينا · وقد تهيأت للدفاع بسلاحها اذا اعترضها معترض فما لبثت ان رأت الافق ينير ثم اطلّ القمر واضاء فتلقتهُ بالترحاب واحست عند رؤيتهِ بانفراج الازمة ولكنها رأت بعضهُ ناقصًا وهو قبيل ربعهِ الاخير فخيل لها لشدة هواجسها بالحرب انهُ خارج من المعركة وقد شطب وجههُ بالسيف

ولما طلع القمر استنارت بهِ وجدّت في السير تلتمس الفسطاط · وكانت لما خرجت

من بلبيس ترى بعض المارة قادمين اليها افرادًا وازواجًا ولكنها لم تكد تبعد عنها حتى خلت الطريق من الناس فظنت نفسها سائرة في طريق لا تؤدي الى الفسطاط فوقفت وتبينت الجهات جيدًا فرأت انها اخطأت الجهة والتفتت فلم ترَ امامها الاّ صحراء قاحلة فعرجت يمينًا حتى اصبحت في ارض زراعية وسارت تلتمس الجنوب والقمر الى يسارها يعلو رويدًا رويدًا حتى اصبح يريها الاشباح عن بعد . ووادي النيل ارض منبسطة لا جبال فيها ولا اودية

ومضى معظم الليل وهي سائرة حتى تعبت وجاعت واحست بالبرد وهو شديد في مصر بعد منتصف الليل حتى في ابان الصيف . فترجلت ومشت تلتمس الدفء وقادت جوادها وراءها والجو هادئ والارض خالية من الناس لا تسمع غير وقع حوافر فرسها وشخيره

وفيما هي ماشية تفكر في حالها سمعت جوادها يصهل وقد اجفل فالتفتت الى ما اجفله فرأت شبحًا منطرحًا على الارض واشتمت رائحة النتانة . فدنت من الشبح فاذا هو جثة قتيل جائفة فخفق قلبها وعلمت انها على مقربة من مكان الواقعة فتشددت وتجلدت وقد شعرت منذ رأت تلك الجثة بارتعاش نسبتهُ الى البرد وما هو في الحقيقة الاّ نتيجة ما طرق ذهنها من التصورات المرعبة عن محمد

ومشت والجواد وراءها والروائح تتعاظم ثم رأت جوادها اجفل ثانية اجفالاً عظيماً من جيفة جواد وراءها جيف كثيرة تطايرت عنها النسور محلقة في الجو وصفقت بطيرانها تصفيقًا زاد الفرس اجفالاً . فارتبكت في امرها وهي تودُّ البحث بين تلك الجيف مخافة ان يكون محمد بينهم والجواد يمنعها باجفالهِ وصهيلهِ فعمدت الى شجرة شدتهُ اليها وعادت وقلبها يخفق وركبتاها ترتعدان وعيناها شاخصتان الى تلك الساحة وفيها الجثث ملقاة ازواجًا واثلاثًا وبين اولئك القتلى من استلقى على ظهرهِ وبسط ذراعيهِ كأنهُ يستقبل طفلاً يستغيث بهِ ولكنهُ حوّل وجههُ الى احد الجانبين كأنهُ شعر بقبيح منظرهِ وقد جعلهُ البلى جلدًا على عظم واكلت بعضهُ النسور — لئلاّ يخاف الولد منهُ . ورأت آخر مكبًا على بطنهِ وقد قبض باحدى يديهِ على رمح وبالاخرى على التراب ورأت هناك رؤوسًا مدحرجة وجثثًا بلا رؤوس متراكمة بعضها فوق بعض . وارهب ما رأتهُ رجل وامرأة ماتا متعانقين ولم تعرف المرأة الاّ من ثوبها لان الوجوه لم تعد تميز

ولا ازيدك علمًا بحالة اسماء ساعتئذٍ فقد كانت تجرّ نفسها جرًّا بين تلك الجيف وهي تحاذر ان تدوس على يد او رجل او رأس وقلبها يخفق خفقانًا شديدًا تكاد تسمع صوتهُ في اذنها . ولو تأتى لها ان تنظر الى وجهها بمرآة لرأتهُ اشدّ امتقاعا من وجوه تلك الجثث . وتعبت من التفرس بالوجوه والثياب واثرت تلك الرائحة الكريهة في رأسها مع ما كانت فيهِ من التعب والجوع فأصابها دوار وخافت ان تسقط فوق القتلى فاستدركت نفسها ونحت الى الشجرة التي شدّت فرسها اليها وجلست هناك واسندت رأسها الى جذعها تلتمس الراحة . ولكن افكارها ظلت تائهة ولم تبرح صورة محمد من امام عينيها . ولم تكد تلقي رأسها حتى غلب عليها النعاس فاغمضت جفنيها فتصوّرت لها محمد مقتولاً فارتعدت فرائصها ونهضت مذعورة . وفيما هي تنهض رأت الفرس يمدّ رأسهُ الى الارض فالتفتت اليهِ فرأتهُ التقط شيئًا مضغهُ بين اسنانهِ فسمعت لهُ قفشًا كقفش القصبة اذا كسرت بين الاضراس ثم ما لبثت ان رأت الفرس يلفظ تلك المضغة فلمحت فيها شيئًا ابيض فتناولتهُ فاذا هو قصبة وفيها رقٌ هو كتابها الى محمد لا يزال في قصبتهِ كما ارسلتهُ اليهِ فازداد بلبالها وتحققت ان محمدًا كان في تلك الواقعة وتلك القصبة معهُ فسقطت من جيبهِ في اثناء الدفاع .. فأين هو ...

وكانت قد يئست من وجوده هناك وفي ذلك اليأس فرج لانها تحقق نجاتهُ من تلك الواقعة فلما وجدت كتابها خافت ان يكون محمد قتل هناك فعادت الى الجثث تبحث فيها

وكان القمر قد تكبد السماء وصفا الجوّ وظهر كل شيء امامها جلياً واضحًا كأنها تنظر اليهِ في رابعة النهار . وهي لا تحتاج في بحثها عن محمد الى تمعّن وتبصر ولو لمحت طرف ثوبهِ او بعض عمامتهِ ولو عن بعد لعرفتهُ لان صورتهُ نصب عينيها . ولكن الاثواب والعمائم تتشابه . فلا تسل عن خفقان قلبها وارتعادها كلما رأت شبحًا يشبههُ



الفصل السادس والثمانون

﴿ البحث عن محمد ﴾

وما زالت في ذلك حتى لاح الفجر وتبينت الوجوه فدارت بين القتلى تجدد البحث فطلع النهار وهي تجول وتتفرس فلم ترَ اثرًا لمحمد فتحققت انهُ لم يقتل في تلك المعركة . فلما سكن روعها من هذا التنبيل احست بالتعب والنعاس والجوع فالتفتت الى ما حولها فرأت بيوتًا تكاد تتوارى لبعدها فعلمت انها منازل بعض اهل القرى فتحولت اليها تلتمس طعامًا لها وعلفًا لجوادها فوصلت المكان وحيّت اهلهُ . فرأت هناك امرأة معها صبيان عراة يحومون حولها وهي تحلب لهم لبنًا من غنمةٍ . فلما رأى الصبيان اسماء قادمة على فرسها صاحوا بامهم ففزعت وفزعوا جميعًا . فتركوا الغنمة ودخلوا الكوخ فنادتهم اسماء وطيبت خاطرهم فعادوا فقالت لهم هل عندكم علف لهذا الجواد قالوا نعم واعتذروا لخوفهم بانهم قاسوا في تلك الاثناء اهوالاً من الجند المحارب لانهم كانوا ينهبون كل ما تصل اليهِ ايديهم

فأكرموا وفادة اسماء وجاؤُها باللبن ولجوادها بالعلف والتمست حصيرًا تتكئ عليهِ فنهض صاحب الدار فأخذ الفرس وشدَّهُ الى وتدٍ وجاء بحصيرٍ كان قد خبأهُ تحت فراشهِ اعوامًا حرصًا عليهِ فاتكأَت اسماء على ذلك الحصير في ظل الكوخ ونامت نومًا عميقًا لم تفق منهُ الاَّ قبيل الغروب

ولم تفتح عينيها حتى رأت رسولها الاخير الذي انفذتهُ الى محمد من اذرح واقفًا عند رأسها فصاحت فيهِ اين كنت ومن اين اتيت . . اين هو محمد

فعضَّ على شفتهِ السفلى واشار بعينيهِ يلتمس سكوتها لئلاَّ يسمعها احد اهل البيت فنهضت ونحت اهل الكوخ تعاية لقاء خدمتهم وسلمت الفرس الى ذلك الرسول ومشت الى جانبهِ وسأَلتهُ عما يعلمهُ عن محمد ومكانهِ وما الذي جاء بهِ الى ذلك المكان

فقال ابشري يا مولاتي ان مولاي محمدًا قد نجا من هذه الواقعة

فقالت واين هو . . وماذا تمَّ لهُ اخبرني

قال اعلمي يا سيدتي اني ما فارقت سيدي محمدًا يومًا واحدًا منذ جئتهُ بكتابك

وقد آنست فيهِ انعطافاً نحوي لا ادري سببهُ وحينما توجه سرت في ركابهِ اما راجلاً او راكباً. ولما كانت الواقعة منذ يومين في هذا السهل وقتل كنانة بن بشر قائد مقدمتهِ تفرق رجالهُ عنهُ حتى اصبح وحيداً فالححت عليهِ ان يخرج من المعركة خيراً من ان يقتل ....

فلما وصل الرسول الى هذا الحد امتقع لون اسماء وشخصت ببصرها لسماع تتمة الحديث وخفق قلبها

فقال « واما هو فقد كان عازماً على البقاء في ساحة القتال الى الموت فألححت عليهِ بالخروج فأطاعني فمشينا حتى انتهينا الى خربة [1] في ناحية الطريق بالقرب من هذا الجبل (واشار الى المقطم) فأوينا اليها خائفين . وقد مضى علينا هناك يومين بلا طعام ولا ماء . فلما رأيت سيدي ظمأ استأذنتهُ في الخروج لآتيهِ ببعض الماء والطعام واوصاني ان ابحث عن كتابك فقد كان في جيبهِ اثناء المعركة وفقد منهُ »

فقالت « اما الكتاب فقد وجدتهُ بل وجدهُ هذا الجواد . واين هو محمد الآن هلمَّ بنا اليهِ ومعنا الماء »

فقال « انهُ حيث قلت لك على مسافة قصيرة من هنا »

قالت « احمل لهُ الطعام والماء وهلمَّ بنا »

قال « الا تظنين علينا بأساً »

قالت « لا تلبث الشمس ان تغيب ويخيم الظلام فلا يرانا احد . وارى ان ندني هذا الفرس هنا لئلاَّ يدلَّ علينا »

فأخذ الرجل الفرس وعاد الى الكوخ . وبعد قليل رجع بقربة مملوءة ماء وبأرغفة وشيء من الجبن

الفصل السابع والثمانون

الخربة

مضيا وقد خيم الظلام والرجل يمشي امامها يدلها على الطريق وهي تكاد تعثر

(1) ابن الاثير وابن خلدون وغيرهم

باذيالها للهفتها وسرعتها . وقضت مسافة الطريق لا تتكلم لانشغال خاطرها بما تتوقعهُ من التأثير عند لقيا محمد

وقضيا ساعة سائرين والليل دامس لا يكادان يميزان الطريق لولم يكن جبل المقطم ظاهرًا امامهما في الافق . فجعلاه وجهتهما لان مخبأ محمد بالقرب منهُ . وكانا يمرَّان تارة بين خيام وآونة في اعشاش او اكواخ صغيرة حتى وصلا الى جانب المقطم فتقدم الرجل وسارت اسماء في اثره ومشى هو يتلمس الطريق بين انقاض بعض الاخربة وهي تتبعهُ وقلبها يخفق توقعًا للبغتة التي ستصيبها عند المقابلة بعد طول الغيبة . وكان قلبها يرقص فرحًا لما تتصور انها أتتهُ بالماء والطعام

و بعد هنيهة اختفى الدليل في ظلمة مدلهمة هناك فنادتهُ بصوت منخفض فقال اننا وصلنا . فدخلت في اثره الى بيت خرب لم يبق منهُ الا الجدران و بعض السقف ولم تكد تدخل حتى سمعت الرجل يقول « اين انت يا مولاي » فلم يجبهُ احد . فقالت اسماء « العلهُ كان هنا وغاب »

قال « تركتهُ في هذه الخربة »

قالت فلنفتش عنهُ في غيرها لعل الخرب تشابهت عليك . وفتّشا كل الخرب المجاورة فلم يقفا لهُ على اثر حتى تعبا وملاّ التفتيش فقالت اسماء « ما ظنك بسبب تغيبهِ »

قال « لا ادري واخشى ان يكون عمرو قد عرف بمكانهِ فبعث في القبض عليهِ وهو اعزل لا سلاح معهُ »

فلما سمعت ذلك اقشعر بدنها وقالت « وكيف العمل الآن »

قال « اني رهين اشارتك في ما تأمرين »

قالت « عد بنا الى حيث كنا مكث هناك الى الصباح ثم تسير انت للبحث عنهُ »

قال حسنًا . وعادا حتى اتيا الكوخ وعرفاه من صوت الفرس فانهُ حالما اشتم رائحة القادمين حتى صهل و رفس الارض بحافرهِ

وباتت اسماء عند تلك المرأة وبكر الرجل في الصباح للبحث عن محمد ومكانهِ ولبثت هي هناك في انتظارهِ

الفصل الثامن والثمانون

خبر الفاجعة

وابطأ الرجل في رجوعه فانشغل خاطر اسماء وندمت لانها لم تسر هي للتفتيش معهُ . واضحت الشمس ولم يرجع فازداد قلقها ولم يعد يطيب لها مقام فمشت وراء تلك الاكواخ الى الجهة التي تتوقع ان يكون رسولها قادماً منها حتى بعدت مسافة . وفيما هي تتطلع في آخر الطريق رأت شبحاً مسرعاً نحوها عرفت من قيافتهِ انهُ رسولها فاختلج قلبها وشخصت اليهِ ببصرها لترى ما يبدو منهُ فاذا هو ما زال مسرعاً حتى وصل اليها وهو يلهث من شدة التعب وقد علتهُ البغتة واحمرت عيناه وكلل العرق جبينهُ

فصاحت فيهِ ما وراءك .. قل ... ما خبرك ... هل وجدت محمداً .
قالت ذلك وقلبها يزداد في الخفقان

فقال وهو يلهث لهثاً شديداً « آه يا مولاتي ... نعم وجدتهُ ... ولكنهُ ... ولكنهُ في خطر القتل ... »

فصاحت « وكيف ذلك ومن يقتلهُ »

قال « انهم عثروا على مكانهِ في الخربة قبل وصولنا اليها بالامس ... آه ضاق صدري من التعب امهلني لانتشق الهواء ... وقد دلهم عليهِ بعض ابناء الحرام فحملوه وهو اعزل الى الفسطاط ... »

فقالت « وبعد ذلك .. ما ذا جرى »

قال — لما مضيت من عندك في هذا الصباح قصدت الفسطاط رأساً لاني اعلم انهُ لا يذهب الى مكان اذا لم يقبضوا هم عليهِ فوصلت الجامع وتظاهرت بالصلاة فرأيت هناك عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن ابي بكر اخا سيدي محمد وسمعت عبد الرحمن يقول لعمرو « انقتل اخي صبرًا ابعث الى ابن حديج فانههِ عنهُ » [1] فعلمت ان معاوية بن حديج هو الذي قبض عليهِ ويريد قتلهُ . فطار صوابي ووددت ان اعرف اين هو ابن حديج لاسير اليهِ فسمعت عمرًا يقول لبعض رجالهِ « اذهبوا الى ان

(1) ابن الاثير ج ٣

حديج ان يكف عن قتل محمد ويأتيني به » فخرجتُ في اثر ذلك الرسول حتى وصلت الى مكان وسط بين الخربة والفسطاط رأيت فيه جمعًا متكاثفًا بينهم ابن حديج ومعهُ رجالهُ احاطوا بمولاي محمد وقد رقَّ جسمهُ من العطش والجوع ... آه من اولاد الحرام ... وتقدم رسول عمرو الى ابن حديج وابلغهُ امر عمرو فاجاب « قتلتم كنانة ابن بشر واخلي انا محمدًا اكفاركم خير من اولئكم هيهات هيهات »(١)

ولا تسل عن اسماء وشدة اصغائها لمقال الرجل وكيف كان وجهها يتلون . فلما سمعت ذلك الكلام تطاولت بعنقها وحدقت ببصرها لترى ما تمَّ بعد ذلك وهي تقول « جزاهم الله شرًا على هذا القول .. لا لا لا اظنهُ يقتلهُ بلا امر عمرو ولكنهُ اساء الادب »

فقال الرجل ولو اقتصرت اساءتهُ على ذلك لكان خيرًا ولكنهُ منع سيدي الماء فقد سمعتهُ باذني طلب منهم ان يسقوه فقال لهُ ابن حديج بوقاحة واستخفاف « لا سقاني الله ان سقيتك قطرة ابدًا انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق »(٢)

فلما سمعت اسماء ذلك قالت « خسئ النذل » واصاخت بسمعها . فاتم الرجل كلامهُ وقال — فاجابهُ سيدي محمد « يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي اولياءه ويظمئ اعداءهُ انت وامثالك اما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا »

فلم تعد اسماء تستطيع صبرًا على استماع الحديث وهي تود ان تعرف النتيجة عاجلاً فقالت « وماذا جرى اخيرًا »

قال سمعت ابن حديج يقول لهُ « اتدري ما أصنع بك ادخلك جوف حمار ثم أحرقهُ عليك بالنار »

فصاحت اسماء والدمع يتساقط من عينيها وهي تتشدد وتتجلد « خسئ ابن اليهودية والله انهُ لا يجسر على ذلك »

فقال الرجل « فلما سمعت قول ابن حديج اسرعت لاخبرك لاني رأيت في اوجه القوم المبادرة الى الشر »

---

(١) ابن الاثير ج ٣

فالتفتت اسماء وراءها فرأت الكوخ بعيداً ولا سبيل لها الى الرجوع ولم تعد تمالك عن المبادرة الى محمد فقالت « وهل المكان بعيد من هنا »

قال انهُ قريب

فقالت هلمَّ بنا اليوم ومشت وهي لا تدري كيف تنقل قدميها لعجلتها ولهفتها والرجل لا يستطيع اللحاق بها لانهُ كان لا يزال تعباً وليس في قلبهِ نار تستعجل خطواتهِ كما تستعجل خطوات اسماء . فمشت نصف ساعة ولم تدرك المكان فندمت لمجيئها ماشية وقد كانت تظن المسافة اقصر من ذلك

الفصل التاسع والثمانون

﴿ قضي الأمر ﴾

ثم اشرفا على ساحة . فقال الرجل « كانوا في هذه الساحة والظاهر انهم ساروا الى الفسطاط » فمشت حتى اتت المكان الذي كانوا فيهِ فرأت آثار دم وكأن شيئاً جرّوهُ على الارض جرًّا . فارتعدت فرائصها وجمد الدم في عروقها وصاحت « ويلاه ويلاه انهم قتلوهُ ... قتلوهُ ... آه يا محمد يا محمد .. يا حبيبي »

فقال لها الرجل « وكيف عرفت ذلك »

قالت « اما ترى الدم وآثار جر الجثة » قالت ذلك ولطمت وجهها وانحدر الدمع على خديها ومشت تتبع آثار الجر وعيناها لا تريان الطريق لما يغشاهما من الدمع ولم تمش قليلاً حتى اشتمت رائحة شواء . فمسحت عينيها وتطلعت فرأت دخاناً يتصاعد من خربة . فأيقنت انهم قتلوهُ واحرقوهُ في جوف الحمار كما قالوا

فهرولت الى الخربة لا تلوي على شيء فرأت هناك جيفة حمار حولها النار موقدة وجوفها مشقوق فتفرست في ذلك الشق فرأت من خلال اللهيب رأس محمد مغمض العينين كانهُ في سبات عميق فصاحت « محمد يا محمد .... لقد صح قولهم وفعلوا ما ارادوا انهم قتلوهُ قتلهم الله » وهمت ان تلقي نفسها في النار فأمسكها الرجل بثوبها وتقدم اليها ان لا تفعل . فلطمت وجهها وحلت شعرها واخذت في الندب والعويل

وهي تمسح عينيها كل لحظة وتنظر الى حبيبها من خلال اللهيب فتراه لا يزال نائمًا فتناديهِ فلا يجيب فتهمُّ بان تلقي نفسها فوقهُ والخادم يمسكها

فضاقت بها الحيل فجعلت تدور حولهُ وتندبهُ بل تندب نفسها وتقول « آه يا لتعاستي وشقائي ·· آه يا حبيبي يا محمد انك لم تصب حتفك الا لنحس طالعي ولو لم احبك لم تمت ·· و يلاه وا اسفاه ماذا اعدد من النحوس المحدقة بي ··· لم يبق عندي شك في اني ولدت شؤمًا على نفسي وعلى كل من هم حولي ··· ولدتُ لا أعرف والدي ولما دنا زمن معرفتي اياه ماتت امي ··· آه يا والدتي الحنونة ···· نزلت في دار عثمان فقتل ذلك الخليفة وكان قتلهُ شؤمًا على الاسلام فقامت الفتنة وقتل فيها جماعة من خيرة الصحابة · قتل فيها طلحة والزبير والوف من المسلمين توسدوا الثرى وجرت دماؤهم مجرى الانهر · وسعيت في تلافي الفتنة بقلبي ويدي ولساني فلم افز لان التقادير كانت تعاكسني · يكفيني ما قاسيتهُ من مروان · ثم فتح لي باب اعرف بهِ والدي الحقيقي ورجوت ان يكون احد كبار الصحابة فما زالت الاحوال تؤخرني وتقدمني حتى مات حامل السر قبل ان اراه · ولا ريب انهُ كان في شوق ان يطلعني على ذلك السر اكثر من شوقي انا للاطلاع عليهِ ····

« نعم عاكسني الدهر ولكنهُ لم يصب مني مقتلاً لان آمالي كانت معلقة بك ياحبيبي يا محمد ··· قلتُ بكل مصائبي املاً بلقائك وقنعت ان اعيش معك معيشة الاخت او الخادمة او الامة ··· ولكن آه ·· آه ·· لولا هذه الآمال لم تُقتل انت لانك انما قتلت لتمام تعاستي فانا هو سبب القتل ··· كيف تموت ·· كيف يخالط بدنك بالتراب بل كيف تموت هذه الموتة الشنيعة وابقى انا حية ··· كلاَّ ثم كلاَّ ··· »

قالت ذلك والقت نفسها في اللهيب قبل ان يبادر الخادم الى منعها فالتهب شعرها ولكن الرجل اسرع الى اطفائهِ بعد ان اشتعل معظمهُ ولفح بعض وجهها وهي ما زالت تحاول القاء نفسها في اللهيب عن غير هدًى وتقول « اتركوني دعوني انام مع حبيبي محمد ··· دعوني اعانقهُ »

فاسندها الرجل وحملها الى جانب فأجلسها على الارض وقلبهُ يكاد يتفطر على حالها وخاطبها فلم تسمع · ثم افاقت من غفلتها فنظرت الى اللهيب وقالت بصوت خافت « لقد مات عطشانًا فكيف اشرب الماء بعده وقد مات جائعًا فكيف آكل

الطعام بعده ... انت روح اسماء فكيف تعيش اسماء بلا روح . انك آمال اسماء فكيف تحيا اسماء بلا آمال .... آه ما احلى الموت وما الذه »

ثم وقفت بغتة والتفتت الى ما حولها كأنها استيقظت من رقاد وقالت بلهجة الجد والسكينة « وأفضلُ من الموت بجانبك ان آخذ بثارك ... ولكن ممن ... انهم اجمعوا على هذه المصيبة ... أأستنجد الامام علياً ولا اراني الا شؤماً عليهِ ولم يعمل عملاً منذ عرفني الا عاد بالنحس عليهِ . أأعيش لاريد تعاسة مولاي الامام علي رجل هذه الامة وخيرة من مشى على سطح الارض بعد الرسول (صلعم) ... انك امير المؤمنين بالرغم عنهم اجمعين .. ولكنهم اجمعوا على خلافك طمعاً في الدنيا وانت لا مطمع لك الا في الآخرة ...... الآخرة ... »

ثم سكتت هنيهة وهي مطرقة كأنها تفكر في امر ذي بال ثم قالت « الآخرة ... نعم ان الآخرة خير من هذه الدنيا دنيا الشقاء ... هل نلتقي هناك بعد الموت .. أجل نلتقي .. لا بدَّ من عالم آخر نلتقي فيهِ لان الله عادل لا يرضى ان اقضي شبابي سعيًا في تعزيز كلمتهِ ونصرة ابن عم نبيهِ بقلب مخلص ونية سليمة ولا ارى من نتيجة اتعابي غير البلاء والشقاء . ثم ارى حبيبي ومنتهى املي يحرق امام عينيَّ في جيفة منتنة وهو ابن اول الخلفاء وشقيق زوج الرسول الطاهرة ... فلا بد من عالم آخر ينال فيهِ كل ذي حق حقهُ . هناك نلتقي ... نلتقي هناك . إذن لماذا اعيش هنا ... ألزيادة الشقاء وما في بقائي حية بعد محمد الا طول اغترابي عنهُ ... بل كيف يموت محمد وابقى انا بعيدة عنهُ والموت احسن وسيلة تجمعني بهِ . دعوني احترق بناره فيختلط رمادي برماده كما احرقني في حياتهِ فاتحد فؤادي بفؤاده ... الموت الموت »

قالت ذلك وهمَّت بان تلقي نفسها في اللهيب ثم احجمت ووقفت والتفتت الى يمينها ويسارها كأنها تفتش عن شيء ... ثم نظرت الى السماء وصاحت « بل اموت فالقى هناك والدتي ايضًا فعساها ان تخبرني عن اسم والدي » ثم جست رأسها بيدها فرأتهُ عاريًا من الشعر وشعرت بما اصابها من الحرق فلم تبال بل تقدمت الى تلك الجيفة الملتهبة وكانت النار قد اكلت معظمها فنظرت الى وسطها لعلها ترى رأس محمد ثانية فاذا هو قد اسودَّ ولم يعد يتميز من سائر اجزاء الجيفة فصاحت

« محمد محمد . . محمد . . الوداع الوداع يا حبيبي يا أملي يا رجائي يا أخي يا شقيقي يا سيدي . . . الوداع الوداع . . . لا بل اللقاء اللقاء . . . كيف اودعك ونحن ذاهبان معًا . . . اللقاء اللقاء ياما أحلى اللقاء ولو في النار . . . »

قالت ذلك والقت بنفسها في اللهيب كانها تعانق محمدًا ووجهها فوق وجهه . . فاسرع الرجل الى انتشالها فاذا هي تختلج اختلاج الموت وكان اللهيب قد خنقها

فبكى الخادم لذلك بكاء مرًّا وصبر حتى خمدت النار فجمع رفات الحبيبين وضمها الى مدفن واحد وترحم عليها

انتهت الرواية

هكذا انتهت حياة عذرائنا القرشية بعد ما قاسته من العناء في نصرة الحق فلم تلق غير الشقاء . ولا غرو اذا بكاها القارئ فقد بكيناها قبله . وهي تمثل التعاسة التي تحدق ببعض اولي النصل فلا ينالون جزاء لنصلهم وبرّهم غير الشقاء ولولا تأسيهم بدار الخلد لماتوا حزانى بائسين

ويعزّ علينا ان تكون نهاية هذه الرواية محزنة وهي اول رواية ختمناها على هذه الصورة ولكن حوادثها قضت علينا بذلك . وكيف يكون ختامها غير محزن وفتاتها التي مدار حديثنا علقت بمحمد بن ابي بكر الذي قضى التاريخ بموته على هذه الصورة . فقد قضي عليها بالتعاسة منذ أحبته وذلك شان الخلق يسيرون في الحياة الدنيا لا يدرون مصيرهم ولا ما خبأته الاقدار لهم فقد يفرحون بكسب او يبتهجون بمولود او يلذون بحبيب والاقدار تتوعدهم تهزأ بعواطفهم حتى اذا جاءهم امر من ربهم راوا غير ما يرجون وذاقوا غير ما يتوقعون . ولله في خلقه حكمة لا تدركها العقول



المملوك الشارد

﴿ رواية تاريخية ادبية . الطبعة الثانية ﴾

﴿ تأليف منشىء الهلال ﴾

تتضمن حوادث مصر وسوريا في النصف الاول من هذا القرن وفيها شرح وافٍ عن اوصاف **الامير بشير الشهابي** الكبير والمغفور له **محمد علي باشا** وولده المرحوم **ابراهيم باشا** مع ذكر احوال بري مصر والشام واخلاق اهليهما اثناء المدة المشار اليها . ووصف الحروب التي جرت اذ ذاك في **مصر والشام والمورة** مع الاشارة الى **الحملة الفرنساوية** واسبابها

والمحور الذي تدور عليهِ الحكاية **المملوك الشارد** وهو المملوك الذي نجا من مذبحة المماليك في القلعة . والرواية تشوق الى القراءة لتناسق حوادثها ولا يبدأ قارئ بمطالعتها الاَّ اضطرَّ الى اتمامها بالرغم عنهُ . عدد صفحاتها نحو مائتي صفحة . ثمنها ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش ونصف

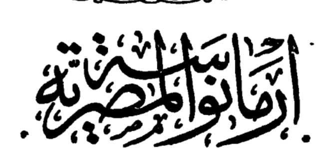


﴿ رواية تاريخية غرامية . جزآن ﴾

﴿ تأليف منشىء الهلال ﴾

هي الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام واسمها يغني عن وصفها شرح فيها المؤلف ظهور الاسلام وانتشاره وما آلت اليهِ حال العرب بعد ذلك مع بسط حال جاهليتهم وما قاموا بهِ وما كان لظهور الاسلام من التأثير في سائر احوالهم وعاداتهم واخلاقهم مما لا يمكن الوقوف عليهِ الاَّ بمطالعة المجلدات الضخمة ثم ما كان من الجهاد في نشر الاسلام وما تمَّ على أثر ذلك من الفتوح في جزيرة

العرب والشام والعراق · ومن ابطالها جبلة بن الايهم ملك غسان وابوعبيدة ابن الجرّاح قائد جند المسلمين في الشام وخالد بن الوليد والنعمان بن المنذر وهرقل امبراطور الروم وفيهِ تفصيل فتح مكة وبصرى ودمشق وبيت المقدس والمداين وواقعة اليرموك والقادسية ووصف الكعبة وكيف تكسرت اصنامها وغير ذلك · وقد نشر الجزء الاوَّل منها في السنة الخامسة « للهلال » والجزء الثاني في السنة السادسة ثم نشر الجزآن على حدة · ثمن كل منهما عشرة غروش واجرة البوسطة غرش ونصف وثمن الجزئين معاً بما فيهِ اجرة البوسطة ٢٢ غرشاً



✻ رواية تاريخية غرامية · الطبعة الثانية ✻

✻ تأليف منشئ الهلال ✻

هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وتشتمل على اهم حوادث التاريخ الاسلامي واكثرها تعلقاً بالقطر المصري اعني ظهور الاسلام وفتوحاتهِ وخصوصاً فتح مصر وبيان حقيقة اسباب ذلك الفتح وما كان من حال الاقباط مع الروم وشرح احوالهم وعوائدهم واخلاقهم وملابسهم منذ ثلاثة عشر قرناً اوهي عبارة عن تاريخ فتح مصر في صدر الاسلام مع تمثيل حركات الجند وملابسهم ومداولات القواد في خيامهم وقصورهم وما جال في خواطرهم مكتوباً على اسلوب حكاية يقرأها المطالع ولا يمل بل يزداد اشتياقاً لمطالعتها وهو يحسب نفسهُ يقرأ قصة فكاهية فلا يأتي على آخرها الاَّ وقد فهم تاريخ الفتح وحوادثهُ كأنهُ شهدهُ بنفسهِ · ومن ابطالها عمرو بن العاص والمقوقس حاكم مصر والاعيرج قائد جند الروم فيها وغيرها · ثمنها ١٠ غروش مصرية واجرة البريد غرش ونصف



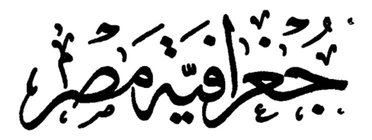
التاريخ العام

﴿ تأليف مؤلف هذا الكتاب ﴾

الجزء الاول

يتضمن مختصر تاريخ ممالك اسيا وافريقيا القديمة والحديثة بعد ذكر مقدمات جغرافية عمومية وحكاية الخليقة والطوفان وتفرق الانسان

وفي الكتاب كثير من الرسوم لزيادة الايضاح · وعدد صفحاتهِ ٢١٦ صفحة وفيها من الرسوم ٢٥ رسماً ثمنهُ ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش واحد



﴿ تأليف مؤلف هذا الكتاب ﴾

الطبعة الثانية

طبعت الطبعة الاولى لهذا الكتاب في اواخر سنة ١٨٩١ ولم تمض سنة ١٨٩٢ حتى نفذت نسخة كلها وزاد اقبال المطالعين على اقتنائهِ فاعيد طبعهُ ثانية · ولما كانت تقاسيم المديريات والمحافظات لا تبقى على حالها زمناً طويلاً لما يطرأ عليها من التغيير والتبديل لما تراه الحكومة من تجديد التنظيم والترتيب فقد كاتب المؤلف كل مديرية ومحافظة على حدة وتلقى الاستعلامات الحقيقية عن آخر تقسيم لها حتى تكون هذه الطبعة اكثر تدقيقاً من سابقتها واوفر فائدة · ثمن النسخة ٣ غروش مصرية واجرة البوسطة ٣٠ بارة ولها اربع خارطات ثمنها غرشان

تاريخ انكلترا

﴿ تأليف مؤلف هذا الكتاب ﴾

صدر الجزء الاول من تاريخ انجلترا وفيه تاريخها من اول عهدها الى انقضاء دولة اليوركية سنة ١٤٨٥ مزيناً بالرسوم والاشكال ثمنه ٤ غروش صاغ واجرة البوسطة ٢٠ بارة

مطبعة الهلال

لما رأينا اقبال الناس على الكتابة والتأليف والطبع والنشر مع اشتغال مطبعتنا في الاكثر بطبع مطبوعاتنا الخصوصية حتى كثيراً ما كنا نضطر الى الاعتذار عن طبع شيء للمؤلفين الآخرين . فبعثنا نستحضر عدداً اخرى من أتقن طرز واجمل وضع في اوربا فوق ما لدينا من العدد وقد وصل منها آلة « ماكنة » كبيرة من طرز الوزيه المشهور بدقته وسرعته فاصبحت مطبعة الهلال مستعدة للقيام بطبع الكتب على ما اشتهرت به من الجودة والاتقان . واذا كان صاحب الكتاب او مؤلفه خارج القاهرة او في حال تحول بينه وبين مراجعة المسودات فالمطبعة تقوم بذلك بعد المخابرة

